

الكتاب: مقارنة الأديان ، المسيحية
المؤلف: الدكتور أحمد الشلبي
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: مصادر عقائد أهل الكتاب وردودها
تحقيق:
الطبعة: الرابعة
سنة الطبع: ١٩٧٣ م
المطبعة: مطبعة السنة المحمدية
الناشر: مكتبة النهضة المصرية - القاهرة
ردمك:
ملاحظات: مقارنة الأديان

مقارنة الأديان ٢

المسيحية

وملحق عن:

(قضية الألوهية) كنموذج للمقارنة بين قضايا الأديان

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبردج

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الرابعة (١٩٧٣) مع زيادات واسعة وتنقيحات مهمة

ملتزم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده،

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى سنة ١٩٦١
الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥
الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٧
الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٣
رقم الايداع بدار الكتب
٤٣٣٧ لسنة ١٩٧٣
مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين
ت ٩٦٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم
ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير
(سورة الممتحنة الآية الرابعة)

كتب للمؤلف

أولاً - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
دراسة تحليلية شاملة في ثمانية أجزاء لتاريخ العالم الإسلامي كله، من مطلع
الإسلام حتى الآن، مع دراسة الجوانب الحضارية التي أسهم بها المسلمون في
ترقية العمران، وتطوير الفكر البشري. (الناشر: مكتبة النهضة المصرية)
ظهر منه الأجزاء التالية:

١ - الجزء الأول: (الطبعة السادسة)

- مقدمة الموسوعة: نطاق التاريخ الإسلامي - تفسير التاريخ - هل التاريخ
علم؟.. فلسفة التاريخ - فائدة التاريخ -
مراحل تدوين التاريخ - قضية الالتزام في كتاب
التاريخ الإسلامي - علم التاريخ بين المسيحية
والإسلام....

- تاريخ العرب قبل الإسلام: البدو والحضر - حياة العرب السياسية والاقتصادية
والاجتماعية.

- السيرة النبوية العطرة

- الدعوة الإسلامية وفلسفتها

- عصر الخلفاء الراشدين

٢ - الجزء الثاني: (الطبعة الرابعة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها

٣ - الجزء الثالث: (الطبعة الرابعة)

العصر العباسي الأول، ودور المسلمين خلاله في خدمة الثقافة والعلم

٤ - الجزء الرابع: (الطبعة الرابعة)

- موجز تاريخ الخلافة العباسية من مطلع العصر الثاني إلى سقوطها.

- الأندلس الإسلامية وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عن طريقها.

- المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا (مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر).

- السنوسية: مبادئها وتاريخها.

.

- ٥ - الجزء الخامس: (الطبعة الثانية)
- مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر.
- الحروب الصليبية: دوافعها - أدوارها - نتائجها.
- الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن.
- ٦ - الجزء السادس: (الطبعة الثانية)
- الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقيا منذ دخلها الإسلام حتى الآن
- دراسة عن وسائل انتشار الإسلام.
- مراكز الشمال - هجرات عربية وغير عربية - التجار - الطرق الصوفية - مراكز داخلية
- الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوروبي:
- غانة - مالي - صنغى - دول الهوسا - برنو - باجرمى - واداي - الفونج - مقدشو
- مملكة الزنج.
- الدول الإسلامية الحالية.
- موريتانيا - السنغال - جامبيا - غينيا - مالي - النيجر - نيجيريا - تشاد - السودان
- الصومال
- ٧ - الجزء السابع:
- الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق:
- دول الجزيرة العربية:
- * منطقة المملكة العربية السعودية
- * اليمن
- * منطقة جمهورية اليمن الجنوبية
- * عمان
- * منطقة الخليج العربي
- * الكويت
- من مطلع الإسلام حتى الآن
- العراق من مطلع الإسلام حتى الآن
- (الجزء الثامن سيظهر قريبا إن شاء الله)
- ترجمت أكثر أجزاء هذه السلسلة للتركية والماليزية والإندونيسية

كتب للمؤلف

ثانيا - موسوعة النظم والحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة في ستة أجزاء، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الإسلام لهداية البشرية، في شؤون الفكر، والسياسة والاقتصاد، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية، وتشمل:
٨ - الفكر الإسلامي: منابعه وآثاره (الطبعة الثالثة) (مترجم عن الإنجليزية).

٩ - المجتمع الإسلامي: (الطبعة الرابعة)

أسس تكوينه - أسباب تدهوره - الطريق إلى إصلاحه.

١٠ - تاريخ التربية الإسلامية: (الطبعة الرابعة)

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين، ولمناهج التعليم وأمكنته، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية، وللإجازات العلمية، والعقوبات والجوائز والمكافآت، وملابس المدرسين، ونقابة المعلمين.....
وتكافؤ الفرص بين التلاميذ، وتوجيههم حسب مواهبهم.....
وغير ذلك من الدراسات التربوية الرائعة.

١١ - السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي: (الطبعة الرابعة)

دراسة شاملة للسياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي مع المقارنة بالاتجاهات السياسية والاقتصادية الحديثة.

١٢ - الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامي: (الطبعة الثانية)

- في نطاق الأسرة كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة.....

- وفي نطاق المجتمع كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء.....

- وفي نطاق المال كصناديق التوفير والبنك الإسلامي والربا.....

١٣ - الجهاد في التفكير الإسلامي: (الطبعة الثالثة)

بحث علمي يبرز اتجاهات الإسلام في مشكلات الحرب، كالأستعداد للجهاد ووسائله،

وأخلاق المجاهد، والخديعة في الحروب، والثبات والفرار، والتجسس والخيانة،

والهدنة والأسرى..... (الناشر مكتبة النهضة المصرية)

ترجمت أكثر أجزاء هذه السلسلة لعدة لغات.

كتب للمؤلف

ثالثا - مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان، تعتمد على أدق المراجع بمختلف اللغات، وتمتاز دراستها بالحيادة والعمق، وتشمل:

١٤ - اليهودية: (الطبعة الثالثة)

دراسة لشتى المسائل اليهودية، اليهود في التاريخ من عهد إبراهيم حتى الآن، الصهيونية،

أنبياء بني إسرائيل، عقيدة بني إسرائيل، يهوه إله بني إسرائيل، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي، التابوت والهيكل، الكهنة والقرايين.

- مصادر الفكر اليهودي: العهد القديم، التلمود، بروتوكولات حكماء صهيون،

- اليهود في الظلام: الماسونية، الروتاري، الاغتيال والتجسس، البابية والبهائية.

- من صور التشريع في اليهودية.

١٥ - المسيحية (الطبعة الرابعة)

- المسيح والمسيحية في نظر المسلمين، واليهود، والمفكرين الغربيين، والكنيسة.

- بولس واضع المسيحية الحالية: التثليث، صلب المسيح، المجامع، طبيعة المسيح

والآراء فيها، الطوائف المسيحية، الرهينة والأديرة، حركة الاصلاح الديني

ونتائجها ونقدها.

١٦ - الإسلام: (الطبعة الرابعة)

الله في التفكير الإسلامي، النبوة في التفكير الإسلامي، الروح والمادة في التفكير

الإسلامي، فلسفة العبادات في الإسلام، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، الدين

المعاملة، المرأة في الإسلام، الرق وموقف الإسلام منه، السياسة والاقتصاد في الإسلام

١٧ - أديان الهند الكبرى (الهندوسية - الجينية - البوذية): (الطبعة الثالثة)

- تقديم عن: جغرافية الهند، سكان الهند، اللغات في الهند، الأديان في الهند.

- دراسة الكتب المقدسة الهندية: الويدا، مهابهارتها، يوجاواستها، كيتا.

- أهم العقائد الهندية: الكارما، والتناسخ، الانطلاق والنرفانا، وحدة الوجود.

تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها.....

(الناشر: مكتبة النهضة المصرية)

ترجمت هذه السلسلة للأوردية، والإنجليزية والفرنسية والإندونيسية.

كتب للمؤلف

رابعاً - كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

١٨ - كيف تكتب بحثاً أو رسالة: (الطبعة السابعة)

دراسة منهجية لكتابة الأبحاث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه.

١٩ - رحلة حياة:

مشاهد وتجارب مثيرة وهادفة، تعرض أهم قضايا العصر: مصرية وعربية وإسلامية

٢٠ - الاشتراكية: (الطبعة الثانية)

دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي:

باللغة الإنجليزية:

٢١ - Morls - Legesiation - Belief: ISLAM (مكتبة النهضة المصرية)

٢٢ - History of Muslim Education (دار الكشاف بيروت والقاهرة)

باللغة الإندونيسية والماليزية:

٢٣ - Negara dan Pemerintahan dalam Islam

٢٤ - Mosjarakat Islam

٢٥ - Hukum Islam

٢٦ - Sedjarah dan Kebudajaan Islam I

٢٧ - Sedjarah dan Kebudajaan Islam II

٢٨ - Sedjarah dan Kebudajaan Islam III

٢٩ - (Jahudi) Perbandingan Agama)

٣٠ - (Masihi) Perbandingan Agama)

٣١ - (Islam) Perbandingan Agama)

٣٢ - Jaina - Hindu: Terbesar di India

٣٣ - Perbandingan Agama (٢ Yang Agama)

٣٤ - Sedjarah Pendidikan Islam - Buddha

٣٥ - Politik dan Ekonomi Dalam Islam

Social dalam Islam

٣٦ - (Singapore) Dan Pustaka National (Surabaja) Nabhan)

(dalam Islam dan Masehi (solo

Sjamsijah Perkembangan Keagamaan

كتب تصدت لون يعاد طبعها:

٣٧ - في قصور الخلفاء العباسيين:

أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة.

٣٨ - الحكومة والدولة في الإسلام:

وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٠ من هذه القائمة.

.

كتب للمؤلف

خامسا - تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب.
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ.
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف.
- تضم هذه السلسلة الكتب الأربعة التالية:
- ٣٩ - تعليم اللغة العربية لغير العرب: (الكتاب الأول للمبتدئين)
هجاء - قراءة - تعبير - إملاء - خط - محفوظات
- ٤٠ - تعليم اللغة العربية: (الكتاب الثاني للمتقدمين)
- يقفز بالطالب من المرحلة المبتدئة إلى المرحلة المتقدمة في القراءة والمحادثة والكتابة.
- موضوعات جذابة من الفكر الإسلامي والعربي اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت في أسلوب مناسب مع أسئلة وتمارين مفيدة.
- كبير النفع للطالب العربي وغير العربي
- ٤١ - قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها: (الجزء الأول)
عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة.
- ٤٢ - قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها: (الجزء الثاني)
عود لأهم أبواب النحو العربي بمزيد من الشرح والتفصيل، ودراسة مركزة واضحة لأبواب الصرف.
- هذان الكتابان ضروريان للمثقف العربي وغير العربي

مقدمة الطبعة الثانية

يا رب... في مطلع هذا العمل يطيب لي أن أتوجه إليك، أعتزف بفضلك، وأشكر نعمتك وأستلهم رضاك.

يا رب... إني أعرف ماضي وأعرف حاضري، وأؤمن أن حاضري ليس وليد ماضي، فلم يكن ذلك الماضي يهيب لهذا الحاضر، ولكن عنايتك يا رب كانت معي، فانبثق النور بعد الظلام، وأشرق الصبح بعد ليل بهيم.

يا رب... إني إن عرفت ماضي وحاضري فلا أعرف مستقبلي، ولكنني أعاهدك أن أظل على الدرب أسير، فأبعث لي يا رب شعاعاً من ضوئك، وفيضا من هدايتك، لأحقق مستقبلاً يرضيك عني، ويرضيني عن نفسي، ويرضي عني الناس.

يا رب... إياك أعبد وإياك أستعين، فكن معي وأنا أعبدك، وكن لي وأنا أستعين بك.

يا رب... إن أوزار الأرض وأثقال الحياة تشدني وأنا أسعى إليك، وتحاول أن تقصر خطواتي وأنا أجاهد لإرضائك، فساعدني يا رب لأتغلب عليها، وأنتزع منها نفسي، لأظل في طريقي إليك أناضل وأكافح.

يا رب... إني أعرف أن ثقة الناس تستلزم مزيداً من الجهد، وإقبال الناس يستدعي مضاعفة الطاقة، فامدني يا رب بالقوة والعون، لأزيد من جهدي وأضعف من طاقتي.

يا رب... ليس إلا أنت الذي يعرف مدى إخلاصي في عملي ومدى العناء الذي ألاقه في سبيله، ولست - لهذا - أرجو الجزاء إلا منك، فإنك لا تضيع أجر من أحسن عملاً.

يا رب... كثيرون من الناس يكافحون من أجلك بسيوفهم، وكثيرون يكافحون من أجلك بأموالهم وبجاههم، ولا أملك يا رب إلا قلبي ولساني، فأقبل يا رب كفاحي بهما، وباركه، واجعل له أحسن النتائج.

وآخرون يا رب... أعمتكم الدنيا، فراحوا بأسلحتهم وأموالهم يعارضون
تعاليمك، ونحن ضد هؤلاء في ميدان حرب، فكن معنا يا رب في هذه المعركة،
عاونا بوسائلك الظاهرة والباطنة حتى نكسب النصر، ونرفع علم الحق.
يا رب... يا رب...؟

وهذه هي الطبعة الثانية من كتاب (المسيحية) وإذا كنت أطمع في رحمة
من الله يوم لا ظل إلا ظله، فهذا الكتاب هو أهم وسائله لهذه الغاية، إنه
القريب التي أمسكها بإحدى يدي وأمسك كتاب (الإسلام) باليد الأخرى
وألوح بهما في شكر وتواضع، ذاكرا أنهما ساعدا على تقديم الهداية لملايين
البشر وإنقاذهم من التبشير ووسائله، فقد عشت ست سنوات في آسيا ورأيت
التبشير المسعور يعم كل الأرجاء. يحاول أن يجتذب للمسيحية ملايين البشر من
الذين وصفتهم في كتابي (أديان الهند الكبرى) (١) بأنهم ذوو قلوب فارغة،
لم تستطع البوذية أن تحتفظ بها، ولا استطاعت اللا دينية أن تقنعها.
ودخول هؤلاء المسيحية ليس خطرا ضدنا من الناحية الدينية فحسب،
ولكنه خطر سياسي واقتصادي أيضا، فإن المسيحية التي يعلمها هؤلاء المبشرون
ليست المسيحية التي جاء بها عيسى عليه السلام، إنما هي المسيحية التي نسميها
(المسيحية السياسية) التي ترمي أولا إلى ربط دول آسيا وإفريقية بعجلة الغرب
عن طريق نشر الدين، وترمي ثانيا إلى خلق فكر مسيحي يقف أمام المسلمين
وأمام الفكر الإسلامي في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والدولية (٢).

(١) ص ١٩٠.

(٢) اقرأ ما كتبناه هنا تحت عنوان (الكنيسة في خدمة السياسة الغربية).
وما كتبناه في الجزء السادس من موسوعة التاريخ الإسلامي عن (الاستعمار والأديان).

وقد انتهى الاستعمار السياسي في هذه البلاد، ولكنه يحاول أن يستعيد نفوذه بطريق المبشرين، وأحيانا بطريق عملائه من السكان الأصليين، وكان كثير من السكان الأصليين يتجمعون حول راية الإسلام إبان الصراع للتححر، إذ كانت المسيحية تمد دين المستعمر، والإسلام دين المقاومة، فلما انتهى الاستعمار خفت صوت التجمع الإسلامي أحيانا وقلت شوكته، وزاد التجمع لنشر المسيحية وكثرت وسائله.

وبمناسبة الحديث عن وسائل نشر المسيحية بالشرق الأقصى وقلب إفريقية أعددت هنا بعض هذه الرسائل تعدادا سريعا:

- وفود العلماء اللاهوتيين المبشرين.
- الرجال الذين يعملون بالسلك الديبلوماسي ولهم دراسات لاهوتية.
- الكتب اللاهوتية التي تباع بأرخص الأسعار وتقدم هدايا في كثير من الأحوال.
- المجالات الدينية التي توزع بدون ثمن.
- نشرات التبشير ونسخ الكتاب المقدس التي تصرف مجانا.
- المستشفيات المسيحية التي توجد في كل مكان.
- المدارس المسيحية التي توجد في كل مكان.
- البعثات التي تخصص لخريجي الجامعات والمعاهد وتمنحهم الشهادات بسرعة وتعيدهم لأسمى المناصب.
- البعثات السريعة التي يدعى لها مئات الصبيان [من سن ١٦ إلى سن ١٨] لزيارة أمريكا أو ألمانيا مدة بضعة شهور ويتلقى خلالها هؤلاء الصبيان ما يفسد عقائدهم.
- الإذاعات التبشيرية التي تنطلق في قلب إفريقية، وفي بعض المناطق بالشرق الأقصى.

ويؤسفني أن أقرر أن المسلمين لم يعملوا شيئا ذا بال لمقاومة هذه الحركة التي ستعود بالخسارة علينا وعلى بلادنا إن لم نوقف تيارها. ومن أشنع ما نذكره هنا أن النشاط التبشيري فتح له جبهات في البلاد الإسلامية، ليفسد الجيل القادم من المسلمين، وليشغلنا عن مقاومته في الجبهات الخارجية، ومما يستحق الثناء أن السلطات المسؤولة بجمهورية مصر تقف صارمة ضد ما يعرف من هذه الحركات، فقد علمت أن قسا أجنيا كان يعيش هنا، وكان يمارس ألوانا من النشاط الضار، ولما اكتشفت السلطات المسؤولة خبره أمسكت به ووضعت في الحال في طائرة غادرت به بلادنا على ألا يعود إليها، وأرجو أن يضاعف هذا الجهد في جمهوريتنا وفي السودان والباكستان وغيرها من الأقطار الإسلامية، ليوقف إلى الأبد هذا الصوت التبشيري الأثيم. ولم أن في كل كتبي وتقارير الرسمية عن التنبيه بخطر هذا التبشير، ولا زلت أفعل، وهذه السطور صورة من صور التنبيه، فأرجو أن تتجه العناية لمقاومة التبشير، على الأقل بترجمة بعض الكتب الإسلامية الممتازة إلى اللغات المختلفة، وإرسال بعض المبعوثين الأفذاذ لا ليعلموا الفقه واللغة فحسب، بل لينشروا الإسلام ويقاوموا الحركات المضادة له. * * *

ومع أن هذا الكتاب هو الطبعة الثانية (١) لكتاب المسيحية إلا أنني أقرر أنه - تقريبا - كتاب جديد، لا تغني عنه الطبعة الأولى، فهذه الطبعة، غنية بمراجع كثيرة عثرت عليها بعد ظهور الطبعة الأولى، وغنية أيضا بأبواب جديدة، وبتنظيم جديد، ومن الكتب التي انتفعت بها في هذه الطبعة أذكر ما يلي:

Pagan Christs by D , . Ropertson
The Sources of Christinaity by Kamal - . ubdin
. The Life of Buddha by Edward Smith

(١) الطبعة الحالية هي الطبعة الرابعة وفيها مزيد من الدراسات والإضافات.

يسوع المسيح للأب بولس إلياس.
تاريخ الأقباط للأستاذ زكي شنوده.
المسيحية في الإسلام للقس إبراهيم لوقا.
وغيرها....

وبمناسبة الحديث عن الكتاب الأخير أذكر أن بعض المسيحيين قاموا بما يلزم أن نسميه (حديث خرافة) إذ أصروا على ربط المسيحية بالإسلام، وعلى الاعتقاد بأن الإسلام بل القرآن الكريم أجاز المسيحية على حالها بما فيها التثليث، وأن المسيح سيحاسب الناس يوم الدين، وأن المسيح مصدر الحياة... فالقس بولس سباط يروي قوله تعالى:
- إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين (١).
- وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس (٢).
ويعلق عليهما بقوله بالحرف الواحد (فكأنني بصورة التثليث قد انعكست على مرآة القرآن فأبرزها بهاتين الآيتين (٣).
وردنا عليه هو أن هذا القول ليس إلا خرافة لا تستحق الذكر، فليس في الآيات الكريمة ما يفيد التثليث من قريب أو بعيد، وحاشا لذلك أن يكون. أما القس إبراهيم لوقا فكتابه كله من هذا اللون، وعلى هذا فليس إلا حديث خرافات متصلة، وليس إلا ضلالات بعيدة كل البعد عن المنطق والفكر السليم، وأورد على هذا مثالا واحدا ليرى القارئ اتجاه هذه المؤلف (٤):

(١) سورة آل عمران الآية ٤٥.

(٢) سورة البقرة الآية ٨٧.

(٣) المشرع ص ٢٥.

(٤) المسيحية في الإسلام ص ٩٦.

مقيدة المسيحيين
المسيح مصدر حياة
تصريحات المسيحية
أنا هو القيامة والحياة،
من آمن بي ولو مات فسيحيا
(إنجيل يوحنا) ١١ : ٢٥
تصريحات الإسلام
إنما المسيح عيسى بن مريم
رسول الله وكلمته ألقاها إلى
مريم وروح منه
(سورة النساء)

ولست أدري كيف توحى هذه الآية الكريمة بأن المسيح مصدر حياة
ومبعث الكون، مع أن الآية تنص بوضوح على أن الله خلق عيسى بن مريم
بعد أن ازدهر الكون وعمره؟
ونصيحتي لهؤلاء الكتاب ألا يحاولوا الاستدلال على عقائدهم بشئ من
القرآن، فالقرآن الكريم في واد وأفكارهم في واد آخر سحيق.

وبعد، فهذه الطبعة أقدمها للقارئ وللمجتمع، راجيا أن يكون فيها
هدى ونور لبني الإنسان، وأن يكون فيها مرضاة للخالق العظيم.
ومما يدعو للبهجة أن هذه الطبعة بعد أن اكتملت حلقات سلسلة
مقارنة الأديان، وبعد أن أصبحت مادة مقارنة الأديان كبيرة الأهمية ومقررة
في عدة كليات ومعاهد، وقد أسند إلي تدريسها في أكثر من مكان، فشهدت
إقبال الطلاب عليها وحسن استجابتهم لأفكارها، وأقرر أن بعض الزيادات
بهذه الطبعة كان تلبية للأسئلة التي قدمها الطلاب في أثناء المناقشات والمباحثات
خلال المحاضرات.

ودعاء يا رب من الأعماق أن تجعل هذا الكتاب خالصا لوجهك الكريم
وأن تكثر به النفع، إنك سميع الدعاء.

في الثالث من مارس سنة ١٩٦٥
دكتور أحمد شلبي

مقدمة الطبعة الأولى

تكاد المسيحية تكون أكثر الأديان السماوية والوضعية تعقيدا، وقد علمها عيسى عليه السلام دينا بسيطا سهلا، ولكن التعقيد طرأ عليها بعد ذلك، حتى أصبح عسيرا جدا فهم كثير من مبادئها، وحتى أصبح غموضها طبيعة واضحة فيها.

وقد كلفت بتدريس مادة مقارنة الأديان في عدة جامعات بإندونيسيا، وكان طبيعيا أن أختار من الأديان السماوية والوضعية ما يناسب البلاد التي أعلم فيها، ومن ثم كانت المسيحية والبوذية موضوع محاضراتي هناك، وكنت أريدها محاضرات فقط ثم رأيت التبشير بإندونيسيا يقوى وينتشر، فاستلزم ذلك طبع هذه المحاضرات ونشرها بأكثر من لغة، وبخاصة اللغة الإندونيسية، فعدت لقراءة هذه المحاضرات وإعدادها إعدادا يناسب الطبع والنشر. وكانت محاضراتي عن المسيحية في إندونيسيا تلقى إقبالا كبيرا من الطلاب، وكان بعض المشتغلين بالدراسات الدينية يتبعون هذه المحاضرات بعناية، ثم حدث أن تلقيت خطابا من جامعة مسيحية للتخصص في الدراسات اللاهوتية مقرها Tjijurug على بعد حوالي مائة كيلومتر من جاكرتا عاصمة إندونيسيا، وكان هذا الخطاب دعوة من أساتذة هذه الجامعة إلى مناظرة علمية عن الأديان وبخاصة عن الدين الإسلامي، فقبلت الدعوة على الفور، وحدد الثالث عشر من شهر يونيو سنة ١٩٥٩ موعدا لهذه المناظرة، فذهبت في الموعد المحدد إلى مقر هذه الجامعة حيث تجمع الأساتذة وكلهم غربيون، وحضر بعض الطلاب الإندونيسيين وبعض المشتغلين بهذه الدراسات، وجمهور كبير من الناس وقد استغرقت هذه المناظرة عدة ساعات، تلقيت خلالها عددا من

الأسئلة عن الدين الإسلامي، ويمكن القول بقوة إن التوفيق حالفني إلى أبعد حد، فانتزعت إعجاب الحاضرين، لا بشخصي، ولكن بالدين الإسلامي وبدعوته الرشيدة.

على أنني لم أترك هذا المقام دون أن أعرج في ردودي على الدين المسيحي فأثير بعض نقاط كانت الإجابة عنها من المسيحيين متهافئة أو قل لم تكن هناك إجابة علمية على الإطلاق.

وطلب مني بعض الحاضرين من المسلمين أن أكتب موجز هذه المناظرة وأذيعها، ولكنني فضلت أن تكون الكتب التي أنشرها شاملة، لا خاصة بأسئلة المناظرة واتجاهاتها، فأعددت ضمن سلسلة مقارنة الأديان كتابين أحدهما عن الإسلام نشرته من قبل، ويسرني اليوم أن أقدم هذا الكتاب عن المسيحية. وهذا الكتاب هدية للمسلمين والمسيحيين على السواء، إنه أبحاث علمية لا دينية، أبعدتها بقدر الطاقة عن محيط العاطفة، ولعلي قد نجحت في ذلك، وأرجو أن يكون - مع أمثاله من الأبحاث - نورا يهدي السبيل.

وأحب أن أقرر أن المراجع المسيحية التي بين يدي تتعرض كثيرا بالغمز بل بأكثر من الغمز أحيانا لديننا الحنيف، وبعضها يهاجم القرآن الكريم ويهاجم محمدا صلوات الله عليه، وقد طبع بعض هذه الكتب في القاهرة، ولكنني مع هذا لم أرد أن أجعل من كتابي هذا وسيلة للرد على هؤلاء وتفنيدي آرائهم، بل سرت في دراستي سيرا مستقيما علميا لا عاطفيا، فعرضت المسيحية من مراجعها الأصلية عرضا أعتقد أنه إلى الكمال أقرب.

وقد عنيت عناية خاصة بالمراجع التي كتبها مسيحيون ليكون حديثي عن المسيحية أقرب بقدر الإمكان إلى اعتقاد المسيحيين، ومن أهم المراجع التي اعتمدت عليها (الكتاب المقدس) أي العهد القديم والعهد الجديد، وقد قدم الكتاب المقدس مادة ضافية لهذه الدراسة، وكان عمادا كبير الشأن أقمنا عليه صرح هذا الحديث، ويحى بعد الكتاب المقدس كتاب باللغة الإندونيسية

أصدرته الكنيسة الكاثوليكية وتقوم بتوزيعه، وعنوانه:

Pengadgaran Geredga Katolik

أي (تعاليم الكنيسة الكاثوليكية) وهو دراسة دقيقة لحالة الكنيسة، والتعاليم التي تتبعها، وتاريخ هذه التعاليم.

ومن الكتب والأبحاث الغربية الهامة التي اعتمدت عليها ما يلي:

Berry : . Religions of the World

Harnack : . What is Christianity

William Patoun : . Great Religions of the World

. Encyclopaedia of Religions and Ethics

. Encyclopaedia Britannica

Wells : . A short History of the World

ومما كتبه المسيحيون الشرقيون:

القس بولس سباط: المشرع.

القس إبراهيم سعيد: تفسير بشارة لوقا.

(بوطر: الأصول والفروع:

حبيب سعيد: أديان العالم الكبرى.

وهناك كتاب اسمه (الإنجيل والصليب) كتبه السيد عبد الأحد

داود، وهو قسيس مسيحي اعتنق الإسلام، ولذلك يكتب عن المسيحية عن

خبرة وعمق، وكان اقتباسي من هذا الكتاب محدودا لأنني أدركت أن مثل

هذا الكتاب قد يحمل على المسيحية، وقد يحاول من طريق أو آخر أن يهجم

عليها لسبب انتقاله من منصبه المقدس إلى عامة المسلمين، ولهذا اقتصر في

الاقتباس منه على الأمور العقلية والأفكار المنطقية الواضحة، ولا شك أنه كان

لي كبير الفائدة.

ومن الأبحاث العلمية التي كتبها باحثون مسلمون (محاضرات في النصرانية)

للأستاذ محمد أبو زهرة، وهو بحث رائع استفدت منه كثيرا في هذه

الدراسة التي أقدمها، كما استفدت من كتاب الأستاذ السيد محمد رشيد رضا (شبهات النصارى وحجج الإسلام) فوائد ذات بال. وهناك مجموعات أخرى كثيرة من الكتب سيجدها القارئ بين طيات هذا البحث، على أنني بطبيعة الحال لم أكن جامعا فقط وإنما كنت كذلك باحثا مفكرا، فكنت أنقد وأقترح وأبسط رأبي تقريبا في جميع النقاط التي شملتها هذه الدراسة.

يا رب حقق بهذا العمل النفع، واجعله خالصا لوجهك الكريم.

المعادي في ٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٠

دكتور أحمد شلبي

أستاذ بجامعة إندونيسيا الحكومية

ومدير المركز الثقافي للجمهورية

العربية المتحدة بجاكرتا

في تقديم الطبعة الثالثة والرابعة

لا شيء يمكن أن أقوله في هذه المناسبة الطيبة إلا:

- الثناء على الله والسجود شكرا له، فهو واهب النعم والتوفيق.

- التحية للقارئ على إقباله وتشجيعه.

- الوعد بالاستمرار في العمل الكادح الذي يخدم الدين والوطن.

- الاتجاه إلى الله أن يمنحنا مزيدا من القوة والرشاد ونحن في هذا الميدان

من النضال.

- أول يونيو سنة ١٩٦٧

- في الثالث من يوليو سنة ١٩٧٣

المؤلف

أشهر الاتجاهات حول المسيح والمسيحية
نبدأ بحثنا عن المسيحية ببيان الاتجاهات المختلفة عن المسيح والمسيحية، لنضع
على بساط البحث أشهر الأقوال المتصلة بتلك الديانة، سواء أكانت هذه الأقوال
من عقيدة المسيحيين أم كانت رأيا لغير المسيحيين في المسيحية، لتجعل
الموضوع بذلك أكثر وضوحا، بالأضواء نلقيها عليه من نواح متعددة:
المسيح والمسيحية في نظر المسلمين
الكلام عن المسيح والمسيحية عند المسلمين يحتاج إلى تقديم سريع، للتعريف
ببضعة أشخاص لهم صلة بحياة المسيح:
زكريا:

كان زكريا أحد أنبياء بني إسرائيل كما كان أحد من يقومون بخدمة
الهيكل المقدس، وقد تقدمت سن زكريا وأصبح كهلا، ولكنه لم يرزق ولدا،
وكان يتمنى أن يرزقه الله ولدا يواصل دعوته من بعده، خوفا على قومه أن
يضلوا، فقد كانت بوادر الضلال تظهر فيهم، ولكن تقدم سنه وإشرافه
على التسعين، قطع أمله في الولد، كما قطع أمله عقم زوجته وتقدمها في السن
أيضا، ولكن زكريا رأى ما يجعله يذكر أن قدرة الله إن اتجهت لشيء تغلبت
على كل العوائق، فقد دخل على مريم وهي حبيسة الهيكل، تقضي فيه ليلها
ونهارها، فوجد عندها طعاما وشرابا، ووجد فاكهة في غير أوانها، فسألها:
(يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير
حساب، هنالك دعا زكريا ربه، قال: رب هب لي من لدنك ذرية طيبة، إنك
سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى
..((١))

(١) سورة آل عمران الآيات ٣٧ - ٢٩.

يحيى:

يحيى بن زكريا حملت به أمه اليصابات وهي عجوز كما سبق، ووضعته، وتربى حتى صار كما وصفه القرآن الكريم (مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين (١))، وقد عرف يحيى بأوصاف التقوى والصلاح منذ صباه، واتجه للعلم ففهم مسائل التوراة، وأحاط بأصولها وفرعها، وأصبح فيها مرجعا هاما، ونبئ يحيى قبل أن يبلغ الثلاثين، ومن أهم ما اشتهر به أنه كان يعمد الناس أي يغسلهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا وللتطهير من الذنوب، ولذلك سماه اليهود (يوحنا المعمدان) وقد عمد المسيح، وكان المسيح يضاويه في العمر تقريبا. وقد ورد في إنجيل لوقا أن حمل عيسى بدأ في الشهر السادس من حمل اليصابات (٢).

وكان يحيى جريئا في الحق، يقول ما يعتقد دون خوف من سطوة حاكم أو طغيان ملك، وقد نقلوا إليه أن هيرودوس ملك اليهود بفلسطين قد وقع في حب هيروديا ابنة أخيه فيليبس، وأنه ينوي الزواج بها، فأعلن يحيى أن ذلك يناقض التوراة، وأنه إن حصل فهو زواج باطل.

وكانت أم هيروديا حريصة على أن تتزوج ابنتها من الملك، ووجدت أن يحيى سيكون عقبة في سبيل هذا الزواج، فزينت ابنتها بأحسن زينة، وأسلمتها لعمها وأوصتها إن طلب منها عمها أن تمنى شيئا، أن تطالب برأس يحيى، وأجادت الفتاة تمثيل الدور، فرقصت لعمها، وعرضت أمامه ألوان فتنها وسحرها حتى وقع في حبالها، وسألها أمنيته، فقالت: رأس ذلك الذي سمع بي وبك وتكلم عنا في كل ناد. ولم تمض إلا دقائق حتى كانت رأس يحيى في طبق أمام هيروديا (٣)، فاستحقت واستحق معها

(١) سورة آل عمران الآية ٣٩.

(٢) الإصحاح الأول العقرتان ٢٦، ٣٦.

(٣) متي ١٤: ٢ وما بعدها ومرقص ٦: ١٧ وما بعدها.

عمها وأعوانه من بني إسرائيل لعنه الله، وفي بعض الروايات أن هذا الحاكم تزوج من بنت أخيه هيروديا وزوجها حي، فأخذ الرسول يحيى يندد بهذه الخطيئة في مجالسه، ووصل هذا التنديد إلى مسامع هيروديا، وفي ليلة من ليالي اللهو رقصت بنت أخيه بين يديه فأعجب بها ووعد أن يمنحها ما تريد، فطلبت - بإيعاز من أمها - أن يأتي لها برأس يوحنا في طبق (١). وقد بدأ المسيح دعوته بعد أن بلغه موت يحيى، ويقال إن زكريا مات في هذه الفتنة التي مات فيها ابنه.

يوسف النجار:

يوسف النجار شاب صالح من شباب اليهود، كانت مريم منخطوبة له قبل أن تحمل بالمسيح، ولما عرف أنها حامل فكر في تركها دون أن يتحدث عنها، ولكنه رأى في منامه من يأمره بعدم تركها لأنها بريئة، ولأنه إن تركها ستصير وحيدة تصارع الأحداث وحدها، فخضع يوسف لهذا، وظل معها. مريم ابنة عمران:

كان عمران أحد عظماء بني إسرائيل، وكانت زوجته عاقرا تقدمت بها السن دون أن ترزق بولد، وتبعا للطبيعة البشرية كانت زوجة عمران تأمل أن تكون أما فاتجهت إلى الله سائلة داعية، ونذرت إن حقق الله رجاءها ورزقها ولدا أن تتركه للهيكل خادما محررا، أي لا عمل له إلا خدمة البيت والعبادة.

واستجاب الله لها فحملت، وسرعان ما أحست بالجنين يتحرك في أحشائها فيحرك في نفسها لذة وسرورا وبهجة، وقبل أن تضع جنينها توفي

(١) دكتور عبد العزيز عبد المجيد: المسيح، ص ١٤٢ من كتاب (هداة الإنسانية).

زوجها، فلم يقدر له أن يرى طفله المنتظر، وأتمت امرأة عمران أشهر الحمل، وولدت بنتا أسمتها مريم، ولذلك خاب أملها في النذر الذي نذرتة، فقد كانت تحسب أن البنت لا تفي بالنذر، ولا تستطيع أن تقوم بالخدمة، ولكنها بناء على رأي سدنة الهيكل نفذت نذرها، ووضعت طفلتها في الهيكل المقدس لخدمته وللعبادة فيه، وقد تنازع سدنة البيت أيهم يكفل مريم الصغيرة، فاقترعوا فيما بينهم فخرجت القرعة لزكريا، فكفلها وعنى بها، وكان زوج خالتها، ولم يكن له في ذلك الوقت أولاد كما قلنا من قبل، فوجد راحة كبيرة في الإشراف على هذه الصغيرة الناسكة، وقد رأى زكريا صورا حار لها تتعلق بهذه الفتاة، هي هذه الأرزاق التي تأتيها، وفاكهة الصيف التي يجدها عندها في الشتاء، وفاكهة الشتاء التي يجدها في الصيف، وراقبها زكريا فما وجد أحدا يدخل عليها، ولا وجدها تخرج من حجرتها، ولذلك سألها كما مر: (أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله). وقد وردت هذه القصة في الآيات الكريمة:

(إذ قالت امرأة عمران: رب إنني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم، فلما وضعتها قالت: رب إنني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى، وإني سميتها مريم، وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبأها نباتا حسنا، وكفلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.....)

ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون) (١).

(١) سورة آل عمران الآيات ٣٤ - ٣٧ و ٤٤.

المسيح في نظر المسلمين
وظلت مريم في الاعتكاف كعادتها، ولكنها فوجئت في يوم من الأيام
برجل يقف أمامها، فارتاعت وتساءلت: من هذا الذي ينغص عليها وحدثها؟
وماذا يريد منها؟ ولكنه نقلها من عجب إلى عجب حين قال لها: (إنما أنا
رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا (١)) وصاحت مريم: (أنى يكون لي
غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغيا (٢)) فأجاب (كذلك، قال ربك هو علي
هين، ولنجعله آية للناس ورحمة منا، وكان أمرا مقضيا) (٣). ورضيت
مريم بمنحة الله، ونفخ الملك في جيب قميصها فبدأ الحمل (والتي أحصنت فرجها
فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) (٤).

-
- (١) سورة مريم الآية ١٩ .
(٢) نفس السورة الآية ٢٠ .
(٣) نفس السورة الآية ٢١ .
(٤) سورة الأنبياء الآية ٩١ . وهناك دراسة عن
الروح ينبغي أن نوردها هنا متصلة بقوله تعالى (فنفخنا فيها من روحنا) وسبب الحاجة لهذه
الدراسة أني سمعت من يقول إن عيسى خلق من روح الله، فهو أفضل الأنبياء، فلنحاول
هنا أن نحق الحق في قضية الروح وقضية عيسى عليه السلام.
وردت (الروح) في القرآن الكريم بمعان ثلاث هي:
١ - بمعنى جبريل، قال تعالى:
- وأيدناه بروح القدس
البقرة ٨٧
- فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا
مريم ١٦
- نزل به الروح الأمين
الشعراء ١٩٣
- تعرج الملائكة والروح إليه
المعارج ٤
- تنزل الملائكة والروح فيها
القدر ٤
٣ - بمعنى الوحي بوجه عام أو القرآن بوجه خاص، قال تعالى:
- ينزل الملائكة بالروح من أمره
النحل ٣
- يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده
المؤمنون ١٥
- وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا
الشورى ٥٢
٣ - بمعنى القوة التي تحدث الحياة في الكائنات الحية، قال تعالى:
- يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي

الإسراء ٧٥.

والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا

الأنبياء ٩١

- ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا

التحريم ١٢

والمعنى في الآيتين الأخيرتين الخاصتين بعيسى أن الله سبحانه نفخ في مريم روحا خلقها (الله) بدون توسط أب، ومعنى النفخ تحصيل آثار الروح في الجسم، والمقصود: خلقناه بدون الطريق الطبيعي للخلق، ومثل ذلك قوله تعالى: فنفخت فيه من روحي (الحجر ١٥) أي أعطيته الروح التي هي ملكي والتي لا يعرف كنهها سواي. ويلتقي الأزواج بالزوجات ولا يتم حمل إلا إذا شاء الله، فالحمل مرتبط بالمشيئة الإلهية أكثر من ارتباطه باللقاء بين الزوج وزوجته، وفي حالة عيسى تمت المشيئة دون لقاء. وعلى هذا فخلق عيسى عليه السلام على هذا النحو لا يمنحه فضلا على سواه من الأنبياء. وهذا غير الروح (ولا تياسوا من روح الله) (يوسف ٨٧) فمعناها الرحمة.

ولكن: كيف سيكون موقفها من الناس الذين لا يعلمون ما تعلم؟. وبدأ الجنين يدب في رحم العذراء، وكثرت أوهامها وأفكارها عما سيقوله الناس عنها، وخرجت من الهيكل إلى قريتها الناصرة، وأقامت في بيت صغير اعتزلت فيه الناس، ثم خرجت مع يوسف النجار إلى بيت لحم، فلما أوشكت على الوضع وأحست ألم المخاض خرجت من القرية، فأجاءها المخاض إلى جذع نخلة يابسة، وحيدة فريدة، حيث وضعت السيد المسيح، ونظرت لطفلها البرئ الذي سيصبح في نظر القوم دليل جريمة، وقالت: (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) (١) ثم فكرت في طعامها وشرابها ليكون ذلك وسيلة لدر اللبن إلى ابنها، فسمعت صوت الملاك يناديها (ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرى (جدول ماء) وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا، فكلتي، واشربي، وقرى عينا (٢)).

وإذا كانت مسألة الطعام والشراب قد انحلت فكيف بمشكلة العار؟ وماذا عسى أن تقول للمتهمين والمتهكمين والذين سيصيحون فيها قائلين (يا مريم لقد جئت شيئا فريا، يا أخت هارون ما كان أبوك امرء سوء وما كانت أمك بغيا (٣)) ولكن الملاك علمها الرد على هذا الاتهام، وهو

(١) سورة مريم الآية ٢٣.

(٢) نفس السورة الآيات ٢٤ - ٢٦.

(٣) سورة مريم الآيات ٢٧ - ٢٨. وأخت هارون معناها أنها من نسل هارون أخي موسى، والعرب يقولون للتميمي يا أخت تميم وللقرشي يا أخت قريش.

أن تسكت وتدع الرد للطفل الصغير ففي كلامه الرائع معجزة وأية معجزة،
(فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم
إنسيا (١)).

فلما تجمع القوم وسألوها عن فعلتها أمسكت عن الكلام وأشارت إليهم
ليكلموا الصبي (قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا؟ قال: إني عبد الله
آتاني الكتاب وجعلني نبيا، وجعلني مباركا أينما كنت، وأوصاني بالصلاة
والزكاة ما دمت حيا، وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا، والسلام علي
يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) (٣). وصدق قليلون، ورآه
الباقون سحرا، وظلت أغلبية بني إسرائيل الساحقة في طغيانهم يعمهون،
فكانوا يسمونه ابن البغية. وكانوا يقولون علي مريم بهتانا عظيما (٣).
هل هناك حكمة في أن عيسى ولد من غير أب؟

يرى الأستاذ أبو زهرة أن ذلك كان لحكمة رائعة، فاليهود كانوا قوما
ماديين ربطوا الأسباب بمسبباتها، وسادت عندهم الفلسفة التي تقول إن
خلق الكون كان من مصدره الأول كالعلة من معلولها، فأراد الله سبحانه
أن يوضح لهم أن قدرته هي التي ربطت الأسباب بمسبباتها، وأنها تستطيع
أن تتجاوز هذا القانون فيوجد المسبب دون أن يوجد السبب، فخلق الله
عيسى من غير أب لهذا.. ومن مادية اليهود أيضا إنكارهم الروح واعتقادهم
أن الإنسان مادة خلقت من مادة فأراد الله أن يخلق إنسانا دون أن تكون
المادة أساسا له (٤).

(١) سورة مريم الآية ٢٦.

(٢) تفسير السورة الآيات ٢٩ - ٣٣.

(٣) مما يرتبط بعيسى في هذه المرحلة ما رواه متي من أن مريم خرجت بعيسى ومعها
يوسف النجار إلى مصر هربا من ملك اليهود، وسنذكر ذلك عند الكلام عن (المسيح في
نظر المسيحيين).

(٤) محاضرات في النصرانية ص ١٥.

نشأة عيسى:

ليس عندنا كثير من المعلومات عن نشأة عيسى، ويقول القس بولس سباط أن الأناجيل قد أوجزت الكلام عن حياة عيسى من مولده إلى دعوته، فلم تذكر منها إلا نزرا يسيرا، ولا كتب الإنجيليون سوى أنه كان يزاول التجارة (١) وقد نشأ - فيما يبدو - كما ينشأ الصبيان في عهده، وكان ينتقل مع أمه بين الناصرة وبيت المقدس، وامتاز بذكاء وعمق يكن يهتم بمظاهر الأشياء بل كان يغوص في أعماقها، وكان يسمع المدرسين والحكماء فلا يسلم بما يقولون به، بل يناقشهم كما رأى في كلامهم غموضا أو ألغازا مما تعود سواه أن يقبلها دون تفكير أو نقاش، وقد ألم بالتوراة ونال من العلم قسطا كبيرا، وساءه ما آلت إليه حالة قومه من بني إسرائيل من ضلال وعمى، وما خضعوا له من ترهات وأكاذيب سنلم ببعضها فيما يلي:

بنو إسرائيل قبل نبوة عيسى:

حرف بنو إسرائيل شريعة موسى وجعلوا همهم جمع المال. وامتد هذا التفكير المادي إلى العلماء والرهبان فأخذوا يحرضون العامة على تقديم القرابين والندور للهيكل رجاء أن يحصلوا على الغفران، وربطوا الغفران برضا الرهبان ودعائهم.

وتعمقوا في المادية وبعثوا عن الروحية، فأنكر فريق منهم القيامة والحشر، ومن ثم أنكروا الحساب والعقاب، فانغمس الكثيرون منهم في متاع الحياة الدنيا غير خائفين من عاقبة، ولا متوقعين حسابا، وفي كلمة

(١) أنظر المشرع ص ٩٢ ومتي ١٣: ٥٥.

واحدة لقد فسدت العقيدة وفسدت الأخلاق، ولم يكن بد من منقذ يحاول أن يردهم عن طغيانهم الذين كانوا فيه يعمهون (١).
نبوة عيسى ومعجزاته.

بعث المسيح وهو في حوالي الثلاثين من عمره، وكان لب دعوته التبشير بالروح وهجر الملاذ الضالة، وأيده الله بمعجزات خارقة هامة ذكرها القرآن الكريم في الآيات الآتية: (ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم، أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم (٢)) فهذه معجزات أربعة:

١ - خلق طير من الطين.

٢ - إبراء الأكمه والأبرص.

٣ - إحياء الموتى.

٤ - الإنباء بما هو مجهول من طعامهم ومدخراتهم.

وأما المعجزة الخامسة فهي إنزال المائدة التي طلبها الحواريون (إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين، قال عيسى بن مريم: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين، قال الله إنني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين (٣)).

(١) أنظر طه الدور: بين الديانات والحضارات ص ٢٨ والقس بولس سباط ٥٤.

(٢) سورة آل عمران الآية ٤٩.

(٣) سورة المائدة الآيات ١١٢ - ١١٥.

ولست أدري كيف يتشكك الحواريون في رسالة عيسى مع براهينه الماضية وهم الذين اتبعوه من دون بني إسرائيل؟ وإذا كان هذا شأن الحواريين فكيف يكون شأن العامة؟ ثم لماذا كانت المائدة هي الوسيلة الوحيدة ليصدقوا مع أنها ليست أقوى من إحياء الموتى ولا إبراء الأكمه والأبرص؟ وقبل أن نترك معجزات المسيح نقرر أن المسلمين مع إقرارهم بهذه المعجزات لا يؤيدون ما تذكره الأناجيل عن استعمال هذه المعجزات في الحياة العملية، فالذي يقرأ هذه الأناجيل يلاحظ ملاحظتين هامتين:

١ - تذكر هذه الأناجيل عددا ضخما أحياهم المسيح بعد الموت، أو شفاهم من البرص، أو جعلهم يبصرون بعد العمى، وطبيعة المعجزة غير ذلك، إنها دليل لإثبات النبوة، ومعنى ذلك أنها تستعمل بضع مرات لتحدي البشر حتى يصدقوا، ولكن الذي تذكره هذه الأناجيل غير هذا، إنه أشبه بالتمثيل، يميت الله ويحيي عيسى من أماته الله دائما، ويقضي الله بالعمى فيهب عيسى الإبصار لكل العميان.

٢ - من أين هذا العدد الكبير من المرضى والموتى والعميان الذين ذكرت الأناجيل أن معجزات المسيح مستهم؟ حتى ليوشك أن يفوق هذا العدد سكان فلسطين جميعا في ذلك الوقت، وكأن كل السكان مسهم البرص أو العمى. اتجاه معجزات عيسى:

لماذا اتجهت معجزات المسيح اتجاهها طيبا في الغالب؟ أكثر معجزات الرسل تأتي من نوع ما اشتهر من الفكر في عهد كل منهم، وتكون في مستوى أعلى مما يستطيعه الناس، فالسحر كان معجزة موسى، والبلاغة كانت من معجزات محمد، لانتشار السحر في عهد موسى،

وانتشار البلاغة في عهد محمد، ولكن، هل معنى هذا هو انتشار الطب بين بني إسرائيل في عهد عيسى؟ لا، فإن الثابت أن معرفة بني إسرائيل بالطب كانت قليلة حينذاك وقبل ذلك، حتى لقد كان انتشار الوباء بينهم من أسباب إخراجهم من مصر (١)، والحقيقة أن معجزات عيسى في صميمها تتسق مع مولده، فمعجزاته من نوع مولده ترمي إلى إحياء الناحية الروحية وإقامة الدليل على وجود الروح، تلك التي أنكرها أكثر بني إسرائيل، فخلق شكل طير من الطين لا حراك فيه، ثم النفخ فيه فيتحرك ويطير مع أن مادته لم يزد عليها شيء، معناه أن زيادة جديدة طرأت، وهذه الزيادة ليست مادية قط، فلا بد أن تكون روحية، وجسم الميت الذي لا يتحرك ولا يعي، يصبح بعد محاولة عيسى حيا واعيا دون زيادة مادية عليه، فمعنى ذلك وجود الروح. وتتصل بمعجزات عيسى عليه السلام خرافة كان جديرا بنا أن نغضي عنها الطرف، ولكن لا بأس من إيرادها للترويح، فقد ذكر الأب بولس إلياس (٢) في مجال الفخر بعيسى ومعجزاته ما يلي:

(ومن مزيته التي لا يفاضله فيها نبي ولا رسول أنه أفضى بالقدرة على إتيان المعجزات إلى تلاميذه، ثم جدد منحها لهم بعد قيامه من الموت وصعوده إلى السماء، وأورث كنيسته تلك القدرة أيضا).

ولو استطاع البابا الآن أن يحيي الموتى أو يبرئ الأكمه والأبرص كما كان عيسى يفعل، لو استطاع ذلك لتوقف الخلاف بين الأديان ولاتبعه كافة البشر، ولكن هيهات أن يكون ذلك، فليس البابا إلا إنسانا يمرض ولا يعرف الطريق إلى علاج نفسه، فما بالك بعلاج سواه، وقد رأينا حديثا أحد البابوات

(١) اقرأ كتاب (اليهودية) للمؤلف.

(٢) المشرع ص ٨٩ مشيرا في هامشه إلى متي ١: ١٠ ولوقا ٢٠ - ٩ ويوحنا: ١٤: ١٢.

يمرض، ويطول عليه المرض، وتقوم الصلوات في الكنائس للتخفيف عنه وشفائه دون جدوى، فمن أين جاء بولس إلياس وأمثاله بهذه الخرافة؟ اليهودية ودعوة المسيح:

كانت دعوة المسيح تحارب اتجاهين تأصلا عند اليهود وهما:

- ١ - شغفهم بالمادة وإهمالهم الناحية الروحية فيهم.
 - ٢ - ادعائهم أنهم شعب مختار، وادعاء أحبارهم أنهم الصلة بين الله والناس، وبدونهم لا تتم الصلة بين الخالق والمخلوق.
- ولشد ما كان ارتياح اليهود وغضبهم عندما شهدوا يسوع يكتسح أمامه كل ما يعتزون به من ضمانات، إذ يعلم الناس أن الله ليس من المساومين وأن ليس هناك شعب مختار، وأن لا أحظياء في مملكة السماء، وأن الله هو الأب المحب لكل الأحياء، وأنه لا يستطيع اختصاص البعض بالرعايات عدم استطاعة الشمس ذلك سواء بسواء (١).

وبسبب هذا الموقف تعرض عيسى إلى عداة بني إسرائيل وسخطهم، ولم يؤمن به إلا قليلون منهم، فقد انتظروه مسيحا يسطر سلطان إسرائيل على العالم أجمع، ولكن خابت آمالهم فيه (٢)، ثم إنهم عندما رأوا أن بعض الضعفاء اتبعوه، خافوا أن تنتشر مبادئه، فأغروا به الحاكم الروماني، ولكن الرومانيين لم يكونوا على استعداد للدخول في الخلافات الدينية بين اليهود، ولم تكن دعوة المسيح التي أعلنها إلا إصلاحا خلقيا ودينيا فلم تتصل دعوته بالسياسة، ولم تمس الحكومة من قريب أو من بعيد، ولذلك لم يستحق غضب الرومان، ولكن اليهود تتبعوا عيسى لعلمهم يجدون منه سقطة تثير عليه غضب الرومان، فلما لم يجدوا تقولوا عليه وكذبوا، فأغضبوا الحاكم

(١). ٦٨٤ . ٣ Outline of History vol Wells : .

(٢) الأب بولس إلياس: يسوع المسيح ص ٣٧.

الروماني على عيسى، فأصدر أمره بالقبض عليه، وحكم عليه بالإعدام صلباً. وكان الكهنة وغوغاء أورشليم المتمسكون بعقيدتهم السلفية أكبر المتهمين ليسوع (١).

نهاية المسيح على الأرض:

أخذ جنود الرومان يبحثون عن عيسى لتنفيذ الحكم عليه، وأخيراً عرفوا مكانه فأحاطوا به ليقبضوا عليه، وكان من أصحابه رجل منافق يشي به، فألقى الله عليه شبه عيسى وصوته، فقبض عليه الجنود وأرتج عليه أو أسكته الله فنفذ فيه حكم الصلب (٢)، أما المسيح فقد كتب الله له النجاة من هذه المؤامرة، وانسل من بين المجتمعين فلم يحس به أحد، وترك بني إسرائيل بعد أن يئس من دعوتهم وبعد أن حكموا بإعدامه.

وليس موضع خلاف على الإطلاق عند المسلمين أن عيسى نجا من الصلب فالآية الكريمة (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) (٣) واضحة الدلالة على ذلك، ولكن:

ماذا كانت نهاية عيسى بعد النجاة من الصلب؟

هل رفع إلى السماء حياً بجسمه وروحه؟

هل استوفى أجله على الأرض وهو مختف، ثم مات حيث شاء الله ودفن جسمه ورفعت روحه إلى بارئها (٤)؟

(١). Outline of History vol: Wells - ٣ p . ٦٩٣ .

(٢) أنظر تفسير البيضاوي ج ١ ص ٦٤، ١٠٤ وإنجيل برنابا الإصحاح ١١٢:

١٣ - ١٥ ولم تحدد المراجع الإسلامية الدقيقة شخص هذا الواشي (أنظر البيضاوي ج ١ ص ١٠٤) وربما تأثرت بعض هذه المراجع بالمراجع المسيحية فذكرت أن هذا الخائن هو يهوذا الإسخريوطي. بيد أن المراجع المسيحية تقرر أن يهوذا كان حياً بعد صلب عيسى، وأنه ندم ورد إلى كهنة اليهود ما كان قد أخذه منهم من فضة نظير وشايتة بعيسى، ومضى فخنق نفسه (متي ٢٧: ٣ - ٥)

(٣) سورة النساء الآية ١٥٨.

(٤) من الواضح - على هذا الرأي - أننا لا نعلم علم اليقين أين مات عيسى، لأن التاريخ لم يتبعه بعد أن انتهت رسالته، فالتاريخ لا يتتبع كل فرد، على أن هناك قولا يرى أن المسيح مات ببلاد الهند في لاهور، وله هنالك قبر، ويدعي الأحمدية أن روح عيسى انتقلت إلى زعيمهم (!!) وهو كلام لا أصل له.

في الطبعة الأولى والثانية لهذا الكتاب ذكرت الرأي الأخير وحده وهو أن عيسى استوفى أجله على الأرض وهو مختف، ثم مات حيث شاء الله، ورفعت روحه إلى بارئها، فذلك الرأي هو الذي أدين به وأعتقد بناء على المراجع والآراء الدقيقة التي بين يدي والتي سأسوقها فيما بعد، ثم أتيح لي أن أذهب إلى السودان أستاذًا بجامعة أم درمان الإسلامية، وكان علم مقارنة الأديان ضمن العلوم التي قمت بتدريسها، وشاع هذا الرأي عني، وجرى نقاش حول هذه المسألة بيني وبين بعض الأساتذة الفضلاء والطلاب، وقيل لي إن السودانيين أو أكثرهم يرون أن عيسى رفع بجسمه وروحه، وأجبت بأن السودان جزء من العالم الإسلامي، والفكر العلمي لا وطن له، وينبغي أن ندرس المسألة دراسة موضوعية لا إقليمية، ومن أجل هذا رأيت في الطبعة الثالثة أن أذكر الرأيين وحجة كل منهما، مع أن الرأي الذي يقول برفع عيسى بجسمه وروحه رأي ضعيف متهافت لا يستحق الذكر.

وبادئ ذي بدء أذكر أن ندوة كبيرة أقامتها مجلة لواء الإسلام في أبريل سنة ١٩٦٣ عن هذا الموضوع، اشترك فيها مجموعة من العلماء الأفذاذ، وفي هذه الندوة اتجه بعض الحاضرين إلى هذا الرأي واتجه آخرون إلى ذلك، ولست الآن أقتبس من هذه الآراء أو أحاول ترجيح بعضها، ولكنني أقتبس الخلاصة التي اتفق عليها الجميع وهي:

ليس في القرآن الكريم نص يلزم باعتقاد أن المسيح عليه السلام قد رفع بجسمه إلى السماء (فالمسألة خلافية).

٢ - عودة عيسى عليه السلام جاءت بها أحاديث صحاح، وردت في

صحاح السنة، ولكنها أحاديث آحاد، وأحاديث الآحاد توجب العمل ولا توجب الاعتقاد (والمسألة هنا اعتقادية فلا تثبت بهذه الأحاديث) (١). وأضيف الآن في هذه الطبعة الرابعة أن فكر أكثر المسلمين قد وصل إلى الصواب، ولم يعد هناك من يتحمس للخطأ الذي ذاع حيناً بأن عيسى رفع بجسمه وروحه، وأصبح هذا الاتجاه في حكم المنتهى بعد ما قدمنا من شروح في الطبقات السابقة لهذا الكتاب، وفي المحاضرات والمناقشات، والحمد لله أن استجاب أكثر المسلمين لي ولسواي من الباحثين، فعلت كلمة الحق، وانقشع الباطل الذي خلق في الظلام، والذي قصد به إثبات أفضلية عيسى على محمد، فالحي أولى من الميت كما يقولون، أو قصد به أحياناً القول بعدم ضرورة بعثة محمد ما دام عيسى لا يزال حياً. وفي ضوء هذا التقديم ندرس الموضوع من المراجع الأصيلة للفكر الإسلامي. يرى قلة من العلماء أن عيسى رفع إلى السماء بجسمه وروحه وحججهم على ذلك هي:

– قوله تعالى: (وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه (٢)) ويعلق المرحوم الأستاذ الشيخ عبد اللطيف السبكي على هذه الآية بقوله: لا يسع عاقلاً أن يتردد في الإيمان بأن عيسى لم يقتل، وإنما رفع حياً (٣).
– ما ورد في البخاري ومسلم من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حاكماً عادلاً مقسطاً، يكسر الصليب ويقتل الخنزير...)

(١) عدد ذي الحجة سنة ١٣٨٢ (أبريل ١٩٦٣) ص ٢٦٣.

(٢) سورة النساء الآية ١٥٨.

(٣) المجلة المذكورة آنفاً ص ٢٤٩ ويتجه السيوطي في كتاب (الفتاوى) هذا الاتجاه، ولنا تعليق خفيف على عبارة فضيلة الأستاذ الشيخ السبكي، فقد كنا نتمنى ألا يتعرض لمثل الآخرين، وأن يكتفي بأن يذكر أنه يرى هذا الرأي، وخاصة أن كثيرين ممن كانوا معه في نفس الندوة رأوا غير رأيه.

- ما ورد في مسلم من أن عيسى سينزل في آخر الزمان فيقتل المسيح الدجال. ويرى جمهور المفكرين المسلمين أن عيسى بعد أن نجا من اليهود عاش زمنا حتى استوفى أجله، ثم مات ميتة عادية ورفعت روحه إلى السماء مع أرواح النبيين والصديقين والشهداء، وقد ورد النص برفع عيسى - مع أن روحه سترفع بطبيعة الحال لأنه نبي - تكريما لمكانته بعد التحدي الذي واجهه من اليهود، فذكر الله نجاته، ثم مكانته التي استلزمت رفع روحه. وقبل أن نورد أسماء هؤلاء العلماء وأدلتهم يجدر بنا أن نسوق ردودهم على أدلة الفوج الأول من العلماء الذين يرون أن عيسى رفع بجسمه وروحه. فعن الآية الكريمة (بل رفعه الله إليه) يرى هؤلاء العلماء أنها تحقيق للوعد الذي تضمنه قوله تعالى (إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا (١)). فإذا كان قوله تعالى (بل رفعه الله إليه) خلا من ذكر الوفاة والتطهير واقتصر على ذكر الرفع فإنه يجب أن يلاحظ فيها ما ذكر في قوله (إني متوفيك...) جمعا بين الآيتين.

ويرى هؤلاء العلماء أن الرفع معناه رفع المكانة وقد جاء الرفع في القرآن بهذا المعنى، قال تعالى:

- في بيوت أذن الله أن ترفع (٢).

- نرفع درجات من نشاء (٣).

- ورفعنا لك ذكرك (٤).

- ورفعناه مكانا عليا (٥).

- يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات (٦).

(١) سورة آل عمران الآية ٥٥.

(٢) سورة النور الآية ٣٦.

(٣) سورة الأنعام الآية ٨٣.

(٤) سورة الانشراح الآية الرابعة.

(٥) سورة مريم الآية ٧٥.

(٦) سورة المجادلة الآية ١١.

وإذن فالتعبير بقوله (ورافعك إلي) وقوله (بل رفعه الله إليه) كالتعبير في قولهم: لحق فلان بالرفيق الأعلى، وفي (إن الله معنا) (١) وفي (عند مليك مقتدر) (٢)، وكلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ والدخول في الكنف المقدس (٣).

وهناك آية كريمة أقوى دلالة من آيات الرفع، ولكنها مع هذا لا تعني سوى خلود الروح لا الجسم وهي قوله تعالى: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) (٤).

فمع أن الآية قررت أنهم أحياء فليس معنى هذا حياة الجسم، فجسم الشهيد قد ووري التراب، ومع أنها قررت أنهم عند ربهم، وأنهم (يرزقون) فليس المقصود هو العندية المكانية، ولا الرزق المادي، وإنما المقصود تكريم الروح بقربها من الله قرب مكانة والاستمتاع باللذائذ استمتاعا روحيا لا جسمانيا.

وعن الحديثين يجيب الباحثون بإجابتين.

أولا - هما من أحاديث الآحاد وهي لا توجب الاعتقاد، والمسألة هنا اعتقادية كما سبق.

ثانيا - الحديثان ليس فيهما كلمة واحدة عن رفع عيسى بجسمه، وقد فهم الرفع من نزول عيسى، فاعتقد هؤلاء العلماء أن نزول عيسى معناه أنه رفع وسينزل، وهكذا قرر هؤلاء أن عيسى رفع لمجرد أن في الحديثين كلمة ينزل، مع أن اللغة العربية لا تجعل الرفع ضرورة للنزول، فإذا قلت نزلت ضيفا على فلان، فليس معنى هذا أنك كنت مرتفعا ونزلت، وإذا رجعنا إلى

(١) سورة التوبة الآية ٣٠.

(٢) سورة القمر الآية ٥٥.

(٣) الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت: الفتاوى ص ٥٦.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٩.

مدلول هذه الكلمة (نزل - وأنزل) في القرآن الكريم، وجدنا أنه لا يتحتم أن يكون معناها النزول من ارتفاع، بل قد يكون معناها: جعل، أو قدر، أو وقع، أو منح، قال تعالى:

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد (١)) أي جعلنا في الحديد قوة وبأسا.

وقال (قل ربي أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين (٢)) أي قدر لي مكانا طيبا.

وقال (فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين (٣)) أي وقع. وقال: (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج (٤)) أي منحكم وأعطاكم.

وهكذا يتبين لنا أن كلمة ينزل في الحديثين - لو صح هذان الحديثان - ليست إلا بمعنى يجرى، ومن الممكن أن يحيي الله عيسى ويرسله على شريعة محمد قبل قيام القيامة، وليس ذلك بمستبعد قط على الله، والاستنتاج الذي قال به هؤلاء خروج بالكلمات عن مدلولها، فالرفع ليس من كلمات الحديث الشريف بل من تفكير قارئ الحديث، وليس من حقهم أن يضيفوا إلى الحديث ما ليس منه وما لا تستدعيه ألفاظه.

وهناك آيتان اختلف المفسرون في تفسيرهما، وجاء في بعض ما قيل عنهما أنهما تدلان على نزول عيسى في آخر الزمان، وهاتان الآيتان هما:

(١) سورة الحديد الآية ٢٥.

(٢) سورة المؤمنون الآية ٢٩.

(٣) سورة الصافات الآية ١٧٢.

(٤) سورة الزمر الآية السادسة.

- وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته (١).
- وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها (٢).
فعن الآية الأولى يرى بعض المفسرين أن الضمير في (به) وفي (موته) عائد على عيسى ويكون المعنى على ذلك عندهم أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل أن يموت عيسى أي سيؤمنون به عند عودته آخر الزمان، ولكن هذا مردود بما ذكره مفسرون آخرون من أن الضمير في (به) لعيسى وفي (موته) لأهل الكتاب، والمعنى أنه ما من أحد من اليهود الذين أنكروا رسالة عيسى إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى، وهناك قراءة (إلا ليؤمنن به قبل موتهم) وهذه القراءة تؤيد هذا الاتجاه، ومعناها ما من أحد من اليهود يدركه الموت حتى تنكشف له الحقيقة عند حشجة الروح، فيرى أن عيسى حق ورسالته حق، فيؤمن به، ولكن حيث لا ينفعه إيمان (٣).
وأما عن الآية الثانية (وإنه لعلم للساعة...) فيرى بعض المفسرين أن الضمير في (إنه)، راجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم أو إلى القرآن، على أنه من الممكن أن يكون راجعا - كما يقول مفسرون آخرون - إلى عيسى لأن الحديث في الآيات السابقة كان عنه، فالمعنى وإن عيسى لعلم للساعة، ولكن ليس معنى هذا أن عيسى سيعود للنزول، بل المعنى أن وجود عيسى في آخر الزمان نسبيًا، دليل على قرب الساعة وشرط من أشراتها، أو أنه بحدوثه بغير أب، أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث (٤).

(١) سورة النساء الآية ١٥٩.

(٢) سورة الزخرف الآية ٦١.

(٣) في ظلال القرآن - الجزء السادس ص ١٤.

(٤) تفسير أبي السعود.

وعلى كل فنزول عيسى آخر الزمان ليس معناه رفعه حيا بجسمه كما سبق القول، ثم إن الدليل إذا تطرق له الاحتمال سقط به الاستدلال كما يقول علماء الأصول، وفي هذه الآية أكثر من الاحتمال.

ونبدأ الآن في إيراد الأدلة التي يذكرها العلماء الذين يرون أن عيسى نجا من اليهود ثم استوفى عمره، ومات ميتة عادية، ودفن في الأرض ثم رفعت روحه إلى السماء، وهذا الفريق من العلماء يعتمد على قوله تعالى: إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين تبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ثم إلي مرجعكم (١).

وهذه الآية تقرر بوضوح ما سبق أن ذكرناه من وفاة عيسى وتطهيره وحمايته من أعدائه، وتجعل عيسى ضمن أتباعه إلى الله مرجعهم. وقوله:

ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد (٢).

وواضح من الآية وفاة عيسى ونهاية رقابته على أتباعه بعد موته وترك الرقابة لله.

وقوله تعالى حكاية عن عيسى: والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا (٣).

(١) سورة آل عمران الآية ٥٥.

(٢) سورة المائدة الآية ١٥٨.

(٣) سورة مريم الآية ٣٣.

والآية واضحة الدلالة على أن عيسى ككل البشر يولد ويموت ويبعث، وكل ما يخالف ذلك تحميل للفظ فوق ما يحتمل. وقد اشترك في هذا الرأي كثير من العلماء في العصور الماضية وفي العصر الحديث، وفيما يلي نسوق بعض تفاسير لهذه الآيات الكريمة كما نسوق نخبة من آراء العلماء الأجلاء.

يقول الإمام الرازي (١) في تفسير الآية الأولى: إني متوفيك أي منهي أجلك، ورافعك أي رافع مرتبتك ورافع روحك إلي، ومطهرك أي مخرجك من بينهم، ومفرق بينك وبينهم، وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه خبر عن معنى التخليص بلفظ التطهير، وكل هذا يدل على المبالغة في إعلاء شأنه وتعظيم منزلته، ويقول في معنى قوله تعالى: (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا) المراد بالفوقية، الفوقية بالحجة والبرهان ثم يقول: واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله: (ورافعك) هو رفع الدرجة والمنقبة لا المكان والجهة، كما أن الفوقية في هذه الآية ليست بالمكان بل بالدرجة والمكانة.

ويقول الآلوسي (٢) إن قوله تعالى: (إني متوفيك) معناها على الأوفق إني مستوف أجلك، ومميتك موتا طبيعيا، لا أسلط عليك من يقتلك، والرفع الذي كان بعد الوفاة هو رفع المكانة لا رفع الجسد خصوصا وقد جاء بجانبه قوله تعالى: (ومطهرك من الذين كفروا) مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم.

(١) تفسير الفخر الرازي.

(٢) أنظر روح المعاني للآلوسي.

ويرى ابن حزم (١) وهو من فقهاء الظاهر إن الوفاة في الآيات تعني الموت الحقيقي، وأن صرف الظاهر عن حقيقته لا معنى له، وأن عيسى بناء على هذا مات ولكنه سيعود قبيل القيامة وعودته إحياء جديد.

ويقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت (٢) إن كلمة (توفى) قد وردت في القرآن كثيرا بمعنى الموت حتى صار هذا المعنى هو الغالب عليها المتبادر منها، ولم تستعمل في غير هذا المعنى إلا وبجانبها ما يصرفها عن هذا المعنى المتبادر، ثم يسوق عددا كبيرا من الآيات استعملت فيه هذه الكلمة بمعنى الموت الحقيقي، ويرى أن المفسرين الذين يلجئون إلى القول بأن الوفاة هي النوم أو أن في قوله تعالى: (متوفيك ورافعك) تقديمًا وتأخيرًا، يرى أن هؤلاء المفسرون يحملون السياق ما لا يحتمل، تأثرا بالآية (بل رفعه الله إليه) وبالآحاديث التي تفيد نزول عيسى، ويرد على ذلك بأنه لا داعي لهذا التفكير، فالرفع رفع مكانة، والآحاديث لا تقرر الرفع بل تقرر النزول آخر الزمان، وهو ما يمكن بحياة جديدة على ما مر شرحه.

وبقول فضيلته إنه إذا استدل البعض بقوله تعالى (وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين (٣)) على أن عيسى رفع إلى محل الملائكة المقربين، أجبناه بأن كلمة (المقربين) وردت في غير موضع من القرآن الكريم دون أن تفيد معنى رفع الجسم، قال تعالى:

- والسابقون السابقون أولئك المقربون (٤).

- فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم (٥).

(١) الفصل في الأهواء والملل والنحل (عند الكلام عن المسيحية).

(٢) الفتاوى ص ٥٢ وما بعدها.

(٣) سورة آل عمران الآية ٤٥.

(٤) سورة الواقعة الآية ١١.

(٥) سورة الواقعة الآية ٨٨.

- عينا يشرب بها المقربون (١).

على أن نزول عيسى وقتله المسيح الدجال... ليست من الأمور المسلم بها على ظاهرها، وقد تعرض الأستاذ الإمام محمد عبده إلى آيات الرفع وأحاديث النزول فقرر الآية على ظاهرها وأن التوفي هو الإمامة العادية وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح، وتعرض الأستاذ الإمام إلى الحديث الذي ينسب للرسول والذي يقول إن المسيح ينزل في آخر الزمان، ويقتل المسيح الدجال، فقال إن هناك تخريجين لهذا الحديث.

١ - أولهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي، لأن المطلوب فيها اليقين وليس في الباب حديث متواتر.

٢ - ثانيهما أن الدجال ليس إلا رمزا للخرافات والدجل، وأن ذلك يزول بشريعة الإسلام الغراء وبالقرآن والسنة التي حلت محل ما اعتقده اليهود في مسيح يأتي ليملا الأرض عدلا ونورا (٣).

أما السيد محمد رشيد رضا، فقد أضاف إلى هذه الدراسة نقطة جديدة هي أن مسألة الرفع بالجسم والروح هي في الحقيقة عقيدة النصراني، وقد استطاعوا بحيلة أو بأخرى دفعها تجاه الفكر الإسلامي، كما استطاعوا إدخال كثير من الإسرائيليات والخرافات، وفيما يلي نص كلام هذا الباحث الكبير: ليس في القرآن نص صريح على أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى

(١) سورة المطففين الآية ٢٨.

(٢) اقرأ تفسير المنار عند الآيات السابقة.

السماء، وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء، وإنما هي عقيدة أكثر النصارى، وقد حاولوا في كل زمان منذ ظهور الإسلام بثها في المسلمين (١). ويضيف هذا الباحث قوله: وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يصلح العالم فمن السهل أن يصلحه على يد أي مصلح ولا ضرورة إطلاقاً لنزول عيسى أو أي واحد من الأنبياء (٢).

ويتفق الأستاذ أمين عز العرب مع اتجاهات الإمام محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا فيقول: أستطيع أن أحكم أن كتاب الله من أوله إلى آخره ليس فيه ما يفيد عن نزول عيسى مرة أخرى (٣). ويشير الأستاذ محمد أبو زهرة نقطة دقيقة حول الأحاديث السابقة فيقرر أنها - بالإضافة إلى أنها أحاديث آحاد ليست متواترة - لم تشتهر قط إلا بعد القرون الثلاثة الأولى (٤)، ويمكن ربط هذا بما ذكره السيد محمد رشيد رضا عن محاولات النصارى، فإنهم في خلال هذه القرون كانوا يحاولون إدخال بعض عقائدهم في الفكر الإسلامي بطريق أو بآخر بدليل أن هذه الأحاديث لم تشتهر في القرون الثلاثة الأولى مع ما وصلت له العقيدة الإسلامية من دقة وعمق في هذه القرون، ويحتم الأستاذ محمد أبو زهرة كلامه بقوله إن نصوص القرآن لا تلزمنا بالاعتقاد بأن المسيح رفع إلى السماء بجسده، وإذا اعتقد البعض أن النصوص تفيد هذا وترجحه فله أن يعتقد في ذات نفسه ولكن له أن يلتزم ولا يلزم (٥).

(١) تفسير المنار ج ١٠ من المجلد الثامن والعشرين.

(٢) تفسير المنار الجزء الثالث.

(٣) لواء الإسلام: العدد السابق ص ٢٧٠.

(٤) المرجع السابق ص ٢٦١.

(٥) المرجع السابق ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

ويقول الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي: ليس في القرآن نص صريح قاطع على أن عيسى عليه السلام رفع بجسمه وروحه وعلى أنه حي الآن بجسمه وروحه، والظاهر من الرفع أنه رفع درجات عند الله، كما قال تعالى في إدريس، (ورفعناه مكانا عليا) فحياة عيسى حياة روحية كحياة الشهداء وحياة غيره من الأنبياء (١).

ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار (٢): إنه لا حجة لمن يقول بأن عيسى رفع إلى السماء، لأنه لا يوجد ذكر للسماء بإزاء قوله تعالى: (ورافعك إلي) وكل ما تدل عليه هذه العبارة أن الله مبعده عنهم إلى مكان لا سلطة لهم فيه، وإنما السلطان فيه ظاهرا وباطنا لله تعالى، فقوله تعالى، (إلي) هو كقول الله في لوط (إني مهاجر إلى ربي) (٣) فليس معناه أني مهاجر إلى السماء بل هو على حد قوله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله...) (٤). وفي كتاب (في ظلال القرآن) (٥) عند تفسير الآية الأولى من الآيات الثلاث السابقة يقول المفسر:

لقد أرادوا قتل عيسى وصلبه، وأراد الله أن يتوفاه وفاة عادية ففعل، ورفع روحه كما رفع أرواح الصالحين من عباده، وطهره من مخالطة الذين كفروا، ومن البقاء بينهم وهم رجس وذنس. ونجى الآن إلى الباحث الأستاذ محمد الغزالي وله في هذا الموضوع دراسة مستفيضة نقتبس منها بعض فقرات بنصوصها:

(١) نقلا عن كتاب الفتاوى للشيخ شلتوت ص ٧٤:

(٢) قصص الأنبياء ص ٥١١.

(٣) سورة العنكبوت الآية ٢٦.

(٤) سورة النساء الآية ٩٩.

(٥) الجزء الثالث ص ٨٧.

- أميل إلى أن عيسى مات، وأنه كسائر الأنبياء مات ورفع بروحه فقط وأن جسمه في مصيره، كأجساد الأنبياء كلها، وتنطبق عليه الآية (إنك ميت وإنهم ميتون (١)) والآية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل (٢)) وبهذا ينتهي أن عيسى مات (٣).

- ومن رأيي أنه خير لنا نحن المسلمين وكتابنا لم يقل قولاً حاسماً أبداً أن عيسى حي بجسده، خير لنا منعتنا للاشتباه من أنه ولد من غير أب، وأنه باق على الدوام مما يروج لفكرة شائبة الألوهية فيه، خير لنا أن نرى الرأي الذي يقول إن عيسى مات وإنه انتهى، وإنه كغيره من الأنبياء لا يحيا إلا بروحه فقط، حياة كرامة وحياة رفعة الدرجة.

- وأنتهي من هذا الكلام إلى أنني أرى من الآيات التي أقرؤها في الكتاب أن عيسى مات، وأن موته حق، وأنه كموت سائر النبيين (٤).

ويشير الأستاذ صلاح أبو إسماعيل نقاطاً دقيقة تتصل بالرفع فيقول: إن الله ليس له مكان حسي محدود حتى يكون الرفع حسياً، وعلى هذا ينبغي تفسير الرفع على أنه رفع القدر وإعلاء المكانة والمنزلة، ثم إن رفع الجسد قد يستلزم أن هذا الجسد يمكن أن يرى الآن وأنه يحتاج إلى ما تحتاج إليه الأجسام من طعام وشراب ومن خواص الأجسام على العموم، وهو ما لا يتناسب في هذا المجال (٥).

وأحب أن أجيب علي من قال إن في مقدور الله أن يوقف خواص الجسم في عيسى، بأن إيقاف خواص الجسم بحيث لا يرى ولا يأكل ولا يشرب ولا يهرم..... معناه العودة إلى الروحانية أو شئ قريب منها، وذلك قريب أو متفق مع الرأي الذي يعارض رفع عيسى بجسمه.

(١) سورة الزمر الآية ٣٠

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

(٣) لواء الإسلام: العدد السابق ص ٢٥٤.

(٤) المرجع السابق ص ٢٥٥.

(٥) المرجع السابق ص ٢٥٨.

وبعض الناس يقولون أن عيسى رفع بجسمه وروحه، فإذا سئلوا: إلى أين؟ وما العمل في خواص الجسم؟ قالوا لا نتعرض لهذا. وهو رد ليس - فيما نرى - شافيا

ونعود إلى الأستاذ صلاح أبو إسماعيل الذي يتساءل قائلا: إذا كان رفع عيسى رفعا حسيا معجزة، فما فائدة وقوعها غير واضحة أمام معاندي المسيح عليه السلام وجاحدي رسالته؟ وأنا أعتقد (الأستاذ صلاح أبو إسماعيل) أن كلمة (متوفيك) تعني وعدا من الله بنجاة عيسى من الصلب ومن القتل كما وعد محمدا عليه الصلاة والسلام بأن يعصمه من الناس (١).

وبعد... لقد أثرت هذه المسألة منذ سنين في فتوى أجاب عنها الأستاذ المراغي والأستاذ شلتوت كما رأينا، وقد قامت ضجة على إثر إذاعة هذه الفتوى، شأن كل جديد يخرج للناس، ومر الزمن ورجحت هذه الفكرة وأصبحت شيئا عاديا يدين بها الغالبية العظمى من المثقفين، وطالما وقف كاتب هذه السطور يرفع صوته بها في قاعات المحاضرات بأعرق جامعة إسلامية في العالم وهي جامعة الأزهر وبغيرها من الجامعات وقاعات المحاضرات، وكان الناس يتقبلون هذه الآراء قبولا حسنا، والذي أرجوه أن يرفق المعارضون في تلقي الآراء الجديدة، وأن يفحصوها بروح هادئة. وأشهد أن الإخوة في السودان وقفوا هذا الموقف، من اتجه هذا الرأي أو اعتنق ذلك، وقد كان من فضلهم أن زدت هذا الموضوع شرحا وإيضاحا. والله يهدينا سواء السبيل.

(١) المرجع السابق ص ٢٥٩.

ونختتم هذا البحث بأن نقرر أن الاعتقاد بأن عيسى رفع بجسمه وروحه اعتقاد متأثر بالاتجاه المادي في الإنسان، ومتأثر كذلك بالفكر المسيحي الذي يرى أن عيسى هو الإله الابن نزل من السماء ثم رفع ليعود للجلوس بجوار أبيه الإله الأب. أما المسلمون الذين يعتقدون أن الله واحد، وأنه في كل مكان، وليس جسما، فكيف يوفقون بين هذا وبين رفع عيسى ليكون مع الله، فالله - مرة أخرى - في كل مكان، ولو بقي عيسى على الأرض لكان مع الله أيضا، وكيف يوفقون بين هذا وبين قوله تعالى: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد (١)).

* * *

وكانت دعوة عيسى - كما يقول الشهرستاني - ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام (٢).

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٤.

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠٩ وانظر (يسوع المسيح) للأب بولس الياس ص ٢٣.

المسيحية في نظر المسلمين
ذلك هو إجمال القول في المسيح عند المسلمين، فما رأي المسلمين في تعاليم
المسيح ورسالته؟

لقد اتضح مما سبق أن المسلمين ينصفون عيسى بن مريم وأن القرآن
الكريم يجله ويجل أمه، ويحكي لنا التاريخ قصة تدل على هذا الاجلال،
واعتراف المسيحيين به، يقول ابن هشام: إن المسلمين الأول لما هاجروا
إلى الحبشة بأمر الرسول محمد صلوات الله عليه، وأرادت قريش استرداد
هؤلاء المسلمين أرسلت الداهية عمرو بن العاص، وكان لم يدخل الإسلام بعد،
فحاول هذا الداهية أن يوقع بين المسلمين وبين النجاشي إمبراطور الحبشة
المسيحي، فقال له إن هؤلاء المسلمين يقولون في مريم وعيسى قولاً
عظيماً (مشيناً) فاستدعاهم النجاشي وسألهم رأي الإسلام في عيسى بن مريم
وأمه، فتلا عليه جعفر بن أبي طالب المتحدث باسم المهاجرين سورة مريم،
فلما سمعها النجاشي بكى حتى اخضلت لحيته وبكى أساقفته، وقال قوله
الشهيرة: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة (١).
وكما ينصف المسلمون عيسى ينصفون تعاليمه ورسالته، ويقولون فيها قولاً
لا يختلف تقريبا عما يقوله المنصفون من المسيحيين الذين لهم ثقافة وفكر،
وأهم معالم المسيحية في نظر المسلمين هي:

١ - يعتقد المسلمون أن المسيحية الصحيحة دين توحيد مطلق، وأنها
تعترف أن الله وحده هو الإله الخالق المقنن، فالتوحيد المطلق الذي لا تشوبه
شائبة هي السمة العامة للأديان السماوية جميعاً، وعيسى هو رسول الله ليس
غير، واعتقاد المسلمين هذا جاءهم من الأدلة القرآنية الآتية:
- وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم (٢).

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢١٣.

(٢) سورة المائدة الآية ٧٢.

- لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد (١).
- ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة، كانا يأكلان الطعام (٢).
- ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم (٣).
- وجاء في مرقص أن أحد الكتبة سأل عيسى: أية وصية هي أول الكل؟ فأجاب عيسى: إن أول كل الوصايا هي: إسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك، وهذه هي الوصية الأولى. وثانية مثلها هي أن تحب قريبك كنفسك. فقال له الكاتب: جيدا يا معلم بالحق قلت لأن الله واحد وليس آخر سواه (٤).
- ويروي لوقا قول المسيح عندما حانت نهايته على الأرض: ينبغي أن أسير اليوم وغدا وما يليه، لأنه لا يمكن أن يهلك نبي خارج أورشليم، يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين (٥).
- وهناك فقرات كثيرة في الأناجيل نثبت كون عيسى نبيا وليس أكثر من نبي (٦)، وسنعود إلى هذا الموضوع عند الكلام عن ألوهية المسيح.
- ٢ - يعتقد المسلمون أن عيسى بن مريم رسول إلى بني إسرائيل خاصة، قال تعالى: (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولا إلى بني إسرائيل (٧)) وتؤيد الأناجيل هذا القول، فقد جاء في متي ما نصه:

(١) سورة المائدة الآية ٧٣.

(٢) سورة المائدة الآية ٧٥.

(٣) سورة المائدة الآية ١١٧.

(٤) مرقص ١٢: ٢٨ - ٣٢.

(٥) لوقا ١٣: ٣٣ - ٣٤.

(٦) اقرأ لوقا ٧: ١٦ ويوحنا ٦: ١٤ وبرنابا الفصل الثالث والتسعين.

(٧) سورة آل عمران الآيتان ٤٨ - ٤٩ وانظر (الإسلام والنصرانية مع العلم

والمدينة) للإمام محمد عبده ص ٥٠.

ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت قائلة: ارحمني يا سيد يا ابن داوود، ابنتي مجنونة جدا. فلم يجبها بكلمة. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها لأنها تصيح وراءنا. فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة (١). وفي متي كذلك أن عيسى عندما حدد الحواريين الاثني عشر أوصاهم قائلا: إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بني إسرائيل الضالة (٢). وذكر متي أيضا أن بطرس أحد الحواريين قال لعيسى: ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا يكون لنا؟ فقال يسوع: متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضا على اثني عشر كرسيًا تدينون أسباط بني إسرائيل الاثني عشر (٣). وهذا واضح الدلالة على أن دنيا عيسى كانت بني إسرائيل. وفي (أعمال الرسل) فقرات كثيرة تدل على تمسك الحواريين بعد عيسى بأن المسيحية دين لبني إسرائيل خاصة، فقد خصم اليهود بطرس لأنه دخل على غير اليهود وتكلم معهم (٤). وورد في عبارات بطرس قوله لغير اليهود: أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودي أن يلتصق بأحد أجنبي أو يأتي إليه (٥). ويروي برنابا قول عيسى: وقد أقامني الله نبيا على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء (٦).

ويؤيد الكتاب المسيحيون هذا الاتجاه أيضا، فقد جاء في دائرة المعارف البريطانية أن أسبق حواربي المسيح ظلوا يوجهون اهتمامهم إلى جعل المسيحية

(١) متي ١٥ : ٢١ - ٢٤

(٢) نفس المراجع ١٠ : ٥ - ٦

(٣) المرجع السابق ١٩ : ٢٨

(٤) أعمال ١١ الفقرة الأولى

(٥) أعمال ١٥ : ٢٨

(٦) إنجيل برنابا ٥٢ : ١٣

دينا لليهود وجعل المسيح أحد أنبياء بني إسرائيل إلى بني إسرائيل (١). وكذلك يرى Bury أن اضطهاد الرومان لأتباع المسيح كان سببه أن الأباطرة لم يعرفوا عن دعوة عيسى إلا أنها امتداد لليهودية التي كانت شديدة التعصب، عميقة الحقد والحسد، فأثارت غضب الرومان مع ما عرف عنهم من التسامح الديني لاتباعهم (٢).

ويقول Dean Inge إن عيسى كان نبيا لمعاصريه من اليهود، ولم يحاول قط أن ينشئ فرعا خاصا به من بين هؤلاء المعاصرين، أو ينشئ له كنيسة خاصة مغايرة لكنائس اليهود أو تعاليمهم (٣).

وسرى عند الكلام عن بولس دوره في نقل المسيحية من دين خاص باليهود إلى دين عالمي.

٣ - يعتقد المسلمون أن طابع المسيحية كان الزهد والرضا بالضميم، وعن الزهد نرى في الأناجيل المعتبرة لدى المسيحيين مجموعة كبيرة من الفقرات توصي به وتحث عليه. ومن ذلك ما ورد في متي عند ذكر الشاب الغني الذي نصحه عيسى بأن يبيع أملاكه ويعطي ثمنها للفقراء ويتبع عيسى فتردد الشاب، فقال عيسى: يعسر أن يدخل غني ملكوت السماوات، وأقول لكم إن مرور جمل في ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني ملكوت الله (٤).
وعن الرضا بالضميم وعدم محاولة الثأر يروي لوقا قول المسيح: من ضربك على خدك الأيمن فاعرض له الآخر، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك (٥) وسيأتي مزيد من الكلام عن هذا الموضوع عند الحديث عن نقد المسيحية.

(١) ٦٣٢. vol ٥. Encyclopaedia Britannica p.

(٢) A History of Freedom of Thought في أمكنة متعددة.

(٣) The Sources of the Chistianity p ١٥.

(٤) متي ١٩: ٣٣ ولوقا ١٨: ٢٠

(٥) لوقا ٦: ٢٨ ومتي ٥: ٣٨ - ٤١

٤ - يعتقد المسلمون أن المسيح دعا للصلة المباشرة بين الله والناس، وتكلم عن ملكوت الله المفتوح لجميع الصالحين (١)، ويوضح Wells (٢) أن المقصود بملكوت الله كان ضربة للولاء العائلي عند بني إسرائيل، ذلك الولاء الذي يجعل منهم وحدة لا تتصل بسواها من وحدات البشر (تجعل منهم شعبا مختارا) فصاح عيسى بهذا الاتجاه بيتغي أن يكتسح طوفان جارف من حب الله كل العواطف العائلية الضيقة المقيدة للحرية، ويفتح السبيل للأخيار الصالحين أن ينتموا لملكوت الله.

فملكوت الله أو مملكة السماء بهذا المعنى هي معارضة واضحة لدعوى اليهود الاختيار والامتياز.

ويقول الأب بولس الياس (٣) في تفسيره (ملكوت الله) ما يلي:
ليس ملكوت الله حزبا سياسيا، أو مؤسسة اجتماعية، إنما هو حالة نفسية، حالة بر تقوم على نبذ الأنانية وعلى الاعتصام بطاعة الله ونواميسه، وعلى العودة إلى البساطة أو الطفولة المسيحية وما فيها من صفاء نيات ونقاء سرائر، وهذا ما ألمح إليه السيد المسيح بقوله (لا يقال إن ملكوت الله هنا أو هناك لأن ملكوت الله في داخلكم (٤)).

وقبل أن ندع الكلام عن ملكوت الله أو مملكة السماء بالمعنى الذي شرحناه وهو أدق معنى في هذا الموضوع، نقرر أن هذه المملكة وجدت قبل المسيحية، وكانت شعارا للكنفوشية في القرن الرابع ق م، ثم كانت شعارا للمسيحية فالإسلام، وكانت بذلك دعوة لإله واحد ووضع حد لتعدد الآلهة. ولكن الإخلاص العام لإرادة واحدة انحرف في الكنفوشية والمسيحية فاتجهتا لتأليه كونفوشوش وعيسى باعتبار أنهما صاحبا هذه

(١) إنجيل متي ٥ . ٤٥ .

(٢) Outline of History Vol .٣ p .٦٨٤ .

(٣) يسوع المسيح ص ١٧١ و ١٧٢ .

(٤) إنجيل لوقا ١٧ ج ٣٠ .

الإرادة التي تدعو للحب العام لأنها تسيطر على الجميع، بيد أن محمداً - وقد أدرك هذا - كرر القول بأنه بشر كغيره من الناس فنجا من أن يؤلّه الناس.

تعالى بنا إلى Wells والى Hirth لنرى هذه الفكرة ونشاهد هذه المقارنة الدقيقة بين الأديان الثلاثة:

كان الكاهن الصيني (موتى) يعيش في القرن الرابع ق م عندما كانت تعاليم كونفوشيوس ولاهوتسي منتشرة في الصين. وقد كتب - فيما كتب - قطعة عن هذا الموضوع، هاك نصها، وإذا تأملتها وجدتها - كما، يقول Wells نصرانية الروح:

إن الاعتداءات المتبادلة بين دولة ودولة، والاعتصابات المتبادلة بين عائلة وأخرى، والسرقات المتبادلة بين الرجل وأخيه، وافتقار الملك إلى الرفق والوزير إلى الولاء، والحاجة إلى الحنان والواجب البنوي بين الوالد وولده - هذه وأمثال هذه أمور ضارة بالإمبراطورية وكل هذا راجع إلى انتفاء الحب المتبادل، فلو أمكن فقط أن نعمم بين الناس تلك الفضيلة الواحدة، فلن يصبح للأمرء وقد أحب أحدهم الآخر أي ميادين للقتال، ولن يحاول رؤساء العائلات أن يأخذوا أي شيء غصباً، ولن يرتكب الرجال أية سرقة، ولا تصف الحكام والوزراء بالسماحة والولاء، ولأصبح الآباء رحماء والأبناء بررة، ولصار الإخوة منسجمين وأمسى التراضي بينهم هينا، ولو أن الناس عامة أحب بعضهم بعضاً: لما انقض قوتهم على ضعيفهم، ولما نهبت كثرتهم قوتهم، ولما أعان غنيهم فقيرهم، ولما أظهر شريفهم قحة مع وضعيهم، ولما غش خبهم بسيطهم (١).

ويعلق Wells على هذه العبارة بقوله:

The Ancient History of China: Hirth (١)

لا شك أن في هذا مشابهة عجيبة لتعاليم عيسى الناصري، وإن صب في قالب سياسي، وهكذا اقتربت أفكار (موتى) من مملكة السماء. ويضيف Wells: وهذا التطابق الجوهرى هو أهم سمة تاريخية تجمع بين أسباب هاتين الديانتين العالميتين. فإن بدايتهما كانت مخالفة تمام المخالفة لنحل الكاهن والمذبح والمعبد، وهي تلك النحل المقامة لعبادة آلهة محدودة المعالم، معروفة الحدود، واللاعبة في مراحل تطور الإنسانية الأولى بين ١٥٠٠ ر ٦٠٠ ق. م دورا عظيما كل العظم، هاما كل الأهمية، أما هذه الديانات العالمية الجديدة، من ٦٠٠ ق. م فصاعدا، فهي بالضرورة ديانات القلب والعالم العلوي الشامل، وهي التي جرفت أمامها كل تلك الأرباب المتنوعة المحدودة وخدمت باتجاهها الجديد حاجة الإنسانية، إذ أن المجتمعات الإنسانية قد اندمجت بعضها في بعض لعاملي الخوف والرجاء. وسرى من فورنا عندما نصل إلى الإسلام أنه حدث للمرة الثالثة أن ظهر ثانية نفس المبدأ الأساسى الجديد، مبدأ الحاجة إلى إخلاص عام من جميع الناس لإرادة واحدة، على أن محمدا تعظ بما مر بالمسيحية من تجاريب، فكان حاسما باتا في إصراره على أنه هو نفسه ليس إلا بشرا كغيره من الناس، وبذا وقى تعاليمه شر كثير من الفساد والتصحيف (١).

٥ - يعتقد المسلمون أن اختفاء إنجيل عيسى كان عملا مقصودا لأن إنجيل عيسى قريب الصلة بالقرآن، كما يعتقدون أن اختفاء هذا الإنجيل مهد للترديد والحذف والتحريف في تعاليم الديانة المسيحية، فانهارت أسسها وضاعت معالمها كديانة سماوية.

٦ - يعتقد المسلمون أن المسيحية بعد المسيح بعدت جدا، أو قل اختلفت كل الاختلاف عن مسيحية المسيح، وبخاصة عندما دخلها بولس أو ادعى دخولها، فحطم اتجاهاتها الصحيحة، وقال فيها بالتثليث، وقال

(١) ٦٩٠. Outline of History Vol ٣ p

بألوهية المسيح، وبهذا بعدت الشقة بينها وبين الأديان السماوية، حتى يمكن القول إن بولس هو واضع الديانة المسيحية المعروفة اليوم وأن المسيح منها براء، وسندرس هذا الموضوع دراسة مؤيدة بالأدلة العلمية عند الكلام عن بولس.

ومن الأشياء الغريبة أيضا على الديانة المسيحية والتي دخلتها بعد المسيح حركة الاضطهادات والقتل والقسوة بين المسيحيين بعضهم والبعض الآخر، وبين المسيحيين وسواهم، فأين هذا مما عرف عن تعاليم المسيح من عدم مقابلة القوة بالقوة، ومن التسامح الذي يصل إلى حد الرضا بالضميم، كما تحدثنا من قبل، وسنخص حركة الاضطهادات في المسيحية بحديث فيما بعد.

٧ - يعتقد المسلمون أن المسيح بشر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي الذكر الحكيم (وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد (١)) كما وردت هذه البشارة صريحة أيضا في إنجيل برنابا في مواضع متعددة (٢).

وقد قدم المسيحي الذي أسلم، السيد عبد الأحد داود بحثا لغويا طويلا استنبط منه أن ميلاد المسيح كان بشارة بميلاد محمد، وأورد من إنجيل لوقا ما يدل على ذلك، فقد جاء في إنجيل لوقا أنه عند مولد المسيح ظهر جمهور من الجنود السماوية للرعاة السوريين وأخذ هؤلاء الأملاك يترنمون بالنشيد التالي:

الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة (٣).

(١) سورة الصف الآية السادسة.

(٢) أنظر الإصحاح ٣٩: ١٤ والإصحاح ١١٢: ١٧.

(٣) لوقا ٢: ١٤.

وهذا هو النص الموجود في الترجمة العربية كثيرة الانتشار، أما النص في الترجمة التي قامت بها The Babe Society فهو:
الحمد لله في الأعالي، على الأرض السلامة، في الناس حسن الرضا.
ويقول السيد عبد الأحد إن هؤلاء الأملاك لم يتكلموا باللغة العربية، ولو تكلموها ما فهمها منهم هؤلاء الرعاة السوريون، ولم يتكلموا كذلك بلغة غير لغة هؤلاء الرعاة، لأن طبيعة الرعاة ألا يعرفوا لغات أجنبية لقلة ثقافتهم، وإذا كانت الأنشودة باللغة السريانية، لغة الرعاة فما كلمات الأنشودة بهذه اللغة وما ترجمتها الحقيقية؟ وبخاصة الكلمتان (السلام أو سلامة، والمسرة أو حسن الرضا)؟

وقبل أن يجيب سيادته على هذا السؤال يؤكد تأكيذا قاطعا أن ترجمة الكلمتين السريانيتين إلى (السلام أو سلامة) و (المسرة أو حسن الرضا) ترجمة خاطئة، ويتساءل ما معنى: على الأرض السلام أو سلامة، وأي سلام شهدته الأرض منذ خلقها الله؟ وقد دنسها أحد ابني آدم حين قتل أخاه في مطلع البشرية، واستمر بعض أولاد آدم يقتلون إخوتهم دون توقف حتى العهد الحاضر، وأصبح طبيعيا للنوع البشري أن يعيش عيشة تكاد تكون مستمرة بين الفجائع الوحشية والاختلافات والحروب التي جبلت عليها الطبيعة البشرية، وما يقال في هذه الجملة يقال كذلك في الجملة الأخرى، (وبالناس المسرة أو في الناس حسن رضا) فأين المسرة التي رآها الناس؟ وما قيمتها إذا قيست بالدموع والعرق والكفاح والآلام التي يعانها الجنس البشري؟ وأين حسن الرضا الذي أظهره؟ والأطماع لا تحد والكفاح لا يني؟ ومما يؤيد بطلان هذه الترجمة أن تولستوي المفكر الروسي الشهير كتب مؤلفا عن الأناجيل الأربعة، ورتب من الأربعة الأناجيل إنجيلا واحدا،

رابطا جمل الآيات المفيدة على زعمه بعضها ببعض، ولم يثبت تولستوي هذه الآية في إنجيله الشامل، زاعما أنها من الآيات المحرفة التافهة ومن لغو القول. وبعد هذا يورد السيد عبد الأحد الكلمتين الأصليتين وهما (ايريني، وأيادوكيا) ويوضح ببحث لغوي طويل أن ايريني معناها الإسلام وأيادوكيا معناها أفعل تفضيل من الحمد أي أكثر الحمد أو أحمد، والمعنى العام كما يراه هو:

الحمد لله في الأعلي، أو شك أن يجيء الإسلام للأرض، يقدمه للناس أحمد. ويؤكد مرة أخرى أنه لو المقصود سلام بمعنى Peace (الأمن وعدم الحرب) لاستعملت كلمة (سلم) السريانية أو (شالوم) العبرانية (١).

(١) أنظر هذا البحث في (الإنجيل والصليب) ص ٣٣ - ٥٣.

الاضطهادات والمسيحية

يبدو أنه من اللازم أن نتحدث هنا - ونحن على ذكر بحركة الاضطهادات في المسيحية - حديثا فيه شيء من التفصيل عن هذه الاضطهادات، ذلك لأن هذه الاضطهادات كانت بعيدة الأثر في توجيه المسيحية، وكانت من أهم الأسباب التي دفعت المسيحية إلى ما هي عليه الآن من الميل للعنف، وسنشير في دراستنا القادمة عدة مرات لهذه الاضطهادات، وسنصفها بالقسوة والوحشية والبربرية، ولذلك كان من الأفضل أن نذكر عنها هنا شيئا يساعد القارئ على فهم جذورها، وعلى فهم الأثر الذي خلفته.

والاضطهادات ذات الصلة بالمسيحيين وذات الأهمية في بحثنا، نوعان:

- ١ - ما نزل بالمسيحيين من أعدائهم في عهود المسيحية الأولى.
- ٢ - ما أنزله المسيحيون بعد قوتهم بمخالفهم في الرأي من المسيحيين وغيرهم ممن أطلق عليهم هراطفة.

وقد اشتط بالمسيحيين عندما كانوا ضعافا مغلوبين على أمرهم، ونزلت بهم آنذاك ألوان من الضيم والخسف والوحشية، فلما آل لهم السلطان، أنزلوا بمخالفهم ألوان العذاب بنفس الوحشية التي عوملوا بها أو بأكثر منها، أما تعاليم الرحمة والغفران، أما هتاف المسيح الذي يقول فيه (أحبوا أعداءكم، باركوا لأعدائكم، أحسنوا إلى مبغضيك، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم (١) فقد بقيت كلمات مسطورة دون أن يكون لها أي أثر أو نتيجة.

(١) متي ٥ : ٤٤

وقد بدأ اضطهاد المسيحيين منذ عهد مبكر، وكان المسيح ضحية هذا الاضطهاد، وقد نزل بأتباعه في عهده وبعده مثل ما نزل به من العسف والظلم وكان اليهود مصدر هذه القسوة، ولكن المسيحية بدأت تنتشر على الرغم من اليهود، وغلبتهم على أمرهم، وحينئذ تقدم أباطرة الرومان لاضطهاد المسيحيين، وذلك لأن هؤلاء الأباطرة كانوا لا يعرفون من أمر الدين الجديد إلا أنه امتداد لليهودية، وكانت هذه موضع كراهية من الوثنيين على غير ما جرى العرف عليه من إباحة الحرية الدينية لسكان الإمبراطورية، ذلك لأن اليهودية أثارت بتعصبها الحقد في القلوب، وكان الأباطرة قبل المسيح يقومون بحماية السكان من ضراوة هذا الحقد، حتى إذا أحسوا بأنها ستبدو في ثوب جديد هو (المسيحية)، وتجذب كثرة من الأنصار الجدد، يشيعون تعصبها، ويشيرون حقد الناس عليها، أخذوا في مقاومة تعاليمها واضطهاد أتباعها. ومما أثار حقد الرومان أيضا على المسيحية أنها أخذت من اليهود تعصبها، فأعلنت حتى في عهد ضعفها أنها تناصب العقائد الأخرى العدا، وأنها ستعمل على إبادة المذاهب الفكرية الأخرى، وتحطيم الحضارة الرومانية عندما تنهيا لها الفرصة (١). وهذا التحول الذي أعلنته المسيحية، من التسامح والرضا بالضميم، إلى الحقد والثأر، يمثل التحول من أفكار عيسى إلى أفكار بولس كما سيحيى فيما بعد.

وأبشع حركات الاضطهاد التي عاناها المسيحيون في القرن الأول تلك التي أنزلها بهم نيرون الطاغية (٦٨ م) فقد ألقى بعضهم للوحوش الضارية تنهش أجسامهم، وأمر فطليت أجسام بعضهم بالقار وأشعلت لتكون مصاييح بعض الاحتفالات التي يقيمها نيرون في حدائق قصره (٢).

(٣) دكتور توفيق الطويل: الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ص ٣٣ و ٤٢.

(٢) زكي شنودة: تاريخ الأقباط ج ١ ص ١٠١.

وفي القرن الثاني كان المسيحيون يعتبرون أنجاسا لا يسمح لهم بدخول الحمامات والمحال العامة، وكانوا - كما حصل في عهد نيرون - يلقون للوحوش الضارية تفرسهم في مدرج عام يضم خصومهم الذين يحضرون للتلهي بمشاهدة هذه المظاهر (١).

وسجل القرن الثالث صوراً أخرى من أبشع ألوان التعذيب والاضطهاد للمسيحيين، وذلك في عهد الإمبراطور دقلديانوس، فقد أمر بهدم كنائس المسيحية وإعدام كتبها المقدسة وآثار آبائها، وقرر اعتبار المسيحيين مدنيين، سقطت حقوقهم المدنية، وأمر بإلقاء القبض على الكهان وسائر رجال الدين، وتجريعهم العذاب ألواناً، ونفذت هذه التعليمات في جميع المناطق، فامتألت السجون بالمسيحيين، واستشهد الكثيرون بعد أن مزقت أجسامهم بالسياط والمخالب الحديدية، أو أحرقت بالنار، أو قطعت إرباً، أو طرحت للوحوش الضارية، أو غير هذا من وجوه التعذيب، وقد سمي عصره (٢٨٤ - ٣٠٥ م) عصر الشهداء (٢).

وفي مطلع القرن الرابع تغيرت الأحوال، فقد أصدر الإمبراطور قسطنطين مراسيم التسامح سنة ٣١١ و ٣١٣ ثم دخل المسيحية بعد ذلك بعشر سنوات، وسرعان ما قويت المسيحية ورجحت كفتها وشالت كفة أعدائها، فانقضت على أعدائها تفتك وتفني، فتأسست الجمعيات الثورية باسم الدين، وكان أشهرها جمعية (الصليب المقدس) في (تورينو) التي أخذت على عاتقها استئصال شأفة الملحدين من بقايا الرومان الوثنيين، وحدث بعد ذلك ولا حرج عن الدماء التي سفكت والأرواح التي أزهقت، وقد وصف هارتمان هذه الحركة بأنها أفزع المجازر البشرية التي سجلها التاريخ (٣).

(١) الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ص ٣٥.
(٢) المرجع السابق ص ٤٠ وتاريخ الأقباط لزكي شنودة ج ١ ص ١٠٨ - ١١٠.
(٣) طه للدور: بين الديانات والحضارات ص ٣٤.

على أن اضطهاد المسيحيين لم يكن موجهًا ضد الوثنيين فحسب، بل اتجه كذلك ضد المسيحيين أيضًا، فإن المسيحية التي ظهرت وأصبحت ذات سلطان لم تكن مسيحية عيسى، بل مسيحية بولس ومسيحية الفلسفة الإغريقية، ولكنها كانت ولا تزال تسمى المسيحية على كل حال، ولما كانت هذه المسيحية قد ابتدعت أشياء لا يرضى بها المسيحيون الأصليون كألوهية المسيح والتثليث وغيرهما، فقد بدأ صراع جديد اعتبر فيه المسيحيون الأصليون متمردين، وأوقعت بهم المسيحية الإغريقية أو مسيحية بولس ألوانًا من العنت والاضطهاد، واستمرت الكنيسة في خلق البدع وفي ابتكار الخرافات كالعشاء الرباني وغفران الذنوب، ووجد من المسيحيين من يعارض هذه الخرافات، فكان نصيبه أن لاقى القسوة والوحشية، وسنلم هنا بصور قليلة من هذا العنت الذي أنزله المسيحيون بالمسيحيين:

في القرن الرابع عارض أريوس (٣٣٦ م) القول بألوهية المسيح كما سيأتي، مما دعا إلى عقد مجمع نيقية، وسيأتي الحديث عنه، وقد قرر هذا المجمع إدانة أريوس، وإحراق كتاباته، وتحريم اقتنائها، وخلع أنصاره من وظائفهم، ونفيهم، والحكم بإعدام كل من أخفى شيئًا من كتابات أريوس وأتباعه (١). وفي عهد تيودوسيوس (٣٩٥) ظهرت لأول مرة (محكمة التفتيش) وتم تنظيمها فيما بعد في القرن الثاني عشر، وكان أعضاؤها من الرهبان، وكانت وظيفتهم اكتشاف المخالفين في العقيدة، ولهم سلطان كبير ولا يسألون عما يفعلون، وتاريخ محكمة التفتيش هو تاريخ الاضطهاد الديني في أقسى صورته، وقتل حرية الفكر بأبشع أداة، ومن أقدر سبلها أنها حتمت أن ينهى كل إنسان في غير تباطؤ ما يصل إلى سمعه بشأن الملحدين، وهددت من يتوالى بعقوبات صارمة في الدنيا والآخرة، فانتشر بسببها نظام التجسس حتى بين أفراد الأسرة الواحدة (٢).

(١) زكي شنودة: تاريخ الأقباط ص ١٤٩ - ١٥٢.

(٢) أنظر الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، للإمام محمد عبده ص ٤٠.

وفي القرون التالية كثر صرعى هذا النظام، وتعرض للشنق والحرق والإعدام جماعات كثيرة لأنهم في نظر الكنيسة هراطقة، وكثيرا ما كانت الكنيسة تلجأ للإعدام البطيء مبالغة في التنكيل، فتسلط الشموع على جسم الضحية، وتخلع أسنانه كما فعل بينيامين كبير أساقفة مصر، لأنه رفض الخضوع لقرار مجمع خلقدونية الذي يرى أن للمسيح طبيعتين إلهية وإنسانية. وكان الإعدام يسبق بصور بشعة من التعذيب، كالكي بالنار والضرب، لعل المتهم يعترف بجرمه، فإن لم يعترف قتل، لأنه لم يكن يعتبر بريئا حتى تثبت إدانته، بل مجرما حتى تثبت براءته، وهيهات أن تثبت، وإذا اعترف المتهم بجرميته استمر تعذيبه قبل القضاء عليه لعله يكشف عن أنصاره وشركائه. وكانت تقضي القوانين أن يحمل الأبناء والأحفاد تبعة الجرم الذي يدان به الآباء، فيسلبون حقهم في مباشرة الكثير من الوظائف ومزاولة الكثير من المهن (١).

أما الجماعات التي أعدمته فأكثر من أن يحصيتها عد، ففي إسبانيا فقط قدمت محكمة التفتيش للنار أكثر من واحد وثلاثين ألف نسمة، وحكمت على أكثر من مائتين وتسعين ألفا بعقوبات أخرى تلي الإعدام (٢). وفي عام ١٥٦٨ أصدر الديوان حكمه بإدانة جميع سكان الأراضي الواطئة والحكم عليهم بالإعدام، واستثنى من الحكم بضعة أفراد نص القرار على أسمائهم، وبعد عشرة أيام من صدور الحكم دفع للمقصلة ملايين الرجال والنساء والأطفال (٣).

ولما ظهر البروتستانت اتجهت الكنيسة لهم بالاضطهاد العنيف وكثرت المذابح، ومن أهمها مذبحه باريس في ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ التي سطا فيها

(١) الدكتور الطويل: الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ص ٧٦.

(٢) المرجع السابق ص ٧٩.

(٣) المرجع السابق ص ٨٠.

الكاثوليك على ضيوفهم من البروتستانت، هؤلاء الذين دعوا لباريس لعمل تسوية تقرب بين وجهات النظر، ثم قتلوا خيانة وهم نيام، فلما أصبحت باريس، كانت شوارعها تجري بدماء هؤلاء الضحايا، وانهالت التهاني على تشارلس التاسع من البابا ومن ملوك الكاثوليك وعظمائهم على هذا العمل الدنيء (١).

والعجيب أن البروتستانت لما قويت شوكتهم مثلوا نفس دور القسوة مع الكاثوليك ولم يكونوا أقل وحشية في معاملة خصومهم من أعدائهم السابقين، ولولا أن عصر النور أطل لرأينا صور أكثر وأكثر، من اضطهاد البروتستانت للكاثوليك.

وهكذا دون تاريخ المسيحية: بحار من الدماء، وأكداس من رماد الذين أحرقوا، ويتم ودموع وأنين، ووحشية، وبربرية طال عمرها وأتيح لها السلطان فكانت نقمة وشرًا. ولو ضمنا إلى هذا ما فعله المسيحيون بالمسلمون في الحروب الصليبية، وبإسبانيا بعد سقوط غرناطة (٢)، وما فعله الاستعمار المسيحي بأقطار المسلمين، لتبين لنا أن المسيحية التي هي دين الرحمة كانت تستغل بابا من العذاب، وجحيما من التنكيل، وحشدا من الغل والكراهية والحقد، كانت جرحا أليما أصاب الإنسانية، وكان للبشرية مصدر قلق وآلام وشجون.

(١) الدكتور توفيق الطويل: الاضطهاد الديني ص ٩٠.

(٢) أنظر:

١ - الجزء الرابع من موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للمؤلف.

ب - الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٤٥.

المسيح والمسيحية عند اليهود
انتهينا من الكلام عن المسيح والمسيحية عند المسلمين، فلنتكلم الآن كلمة
عن المسيح والمسيحية عند اليهود:
وينبغي أن يكون حديثنا هنا، لا عن المسيح والمسيحية، ولكن عن
عيسى بن مريم وعن الدين الذي جاء به، أما الكلام عن مسيح اليهود
فسيأتي فيما بعد.

والحديث عن عيسى بن مريم عند اليهود موجز للغاية، فإنه لا يوجد في
تاريخ اليهود الديني ولا في كتبهم أي ذكر لعيسى بن مريم، ولا لدعوته،
ولا لأحداث القبض عليه وصلبه، فالذي يقرأ كتب اليهود لا يجد لعيسى
ذكرًا، وهذا هو الذي حدا ببعض الغربيين إلى اعتبار عيسى شخصية خرافية
فرضية ليست حقيقة واقعة.

وإذا تكلم اليهود عن عيسى وقتله، فليس لأنه مثبت في تواريخهم المأثورة
عن آبائهم ومشايخهم، ولكن لأنهم يسمعون ما يقوله المسيحيون عن المسيح
فيروون عنهم أحيانًا، وإلا فكتبهم خالية من ذلك.
لماذا أهمل اليهود شأن عيسى وذكره في كتبهم؟

الجواب هو أن عيسى عندهم - إن صح وجوده - رجل عادي كفر
بدعوتهم فقتلوه، وهم لا يجمعون في كتبهم أخبار كل فرد من الدولة، فهذا
رجل انشق فعاقبوه بالقتل، ولا يستحق بعد ذلك أي ذكر.

ويقول الدكتور إسرائيل ولفنسون إن مسألة قتل المسيح كانت موجودة
في التلمود ولكن اليهود أخرجوها حتى لا يعثر عليها أحد من الأمم المسيحية
التي كان يقيم بها اليهود (١).

(١) أنظر قصص القرآن لعبد الوهاب النجار ص ٤٣٠.

هذا عن عيسى بن مريم، أما كلمة (المسيح) فقد وردت في التوراة، ولا يزال اليهود ينتظرونه، ويرونه ملكا عظيما سيأتي ليجعل لهم السلطان على الأرض ويجعل كلمتهم هي العليا، وجنسهم هو الجنس الأعظم بين أجناس البشر، وقد جاءهم عيسى بن مريم، ولكنه دعاهم إلى الأخلاق الفاضلة، وأراد أن يوجههم وجهة روحية، وأن يقلل تكاليفهم على المال، ومثل هذه الدعوة لا تجد قلبا سميعا ولا تلاقي تأييدا من اليهود، فلم يعتبروه المسيح الموعود به، وثاروا عليه وتآمروا على قتله... كما ذكرنا، ولا يزالون إلى اليوم - كما قلنا - ينتظرون مسيحهم الذي يملكهم الأرض ويجعلهم سادة العالم. وليس عيسى بن مريم عندهم إلا رجلا عاديا ثار فلقى جزاء ثورته، ولا يستحق رجل عادي كهذا أن يدخل التاريخ، ولذلك أهملوه كما سبق القول.

المسيح والمسيحية في نظر المفكرين الغربيين
يمكن القول دون تردد إن أغلب المفكرين الغربيين لا يدينون بالمسيحية
كما يدين بها عامة المسيحيين، وكما تعلمها الكنيسة والقسس، ويمكن القول
كذلك إن الثورات التي أشعلها المفكرون المسيحيون في الماضي ضد المسيحية
التي تعلمها الكنيسة، لا يزال المفكرون المحدثون يرفعون لواءها، وكل
ما هناك من فرق أن الكنيسة في الماضي عدت أولئك متمردين وحرابتهم
حربا قاسية سقط فيها آلاف الضحايا، أما الكنيسة اليوم فلم يعد في يدها
سلطان، فاكتفت بأن حرمت على أتباعها المخلصين أن يقرءوا ما يكتبه هؤلاء
المفكرون مما اعتبرته الكنيسة ضلالات وإحادا (١)، وهذه الحقيقة يدركها
كل الذين يقرءون عن المسيحية كتابات المفكرين الغربيين من غير رجال
الكنيسة، وسيرد في هذا الكتاب اقتباسات تؤيد هذا مما كتبه عدد من هؤلاء
وهو Berry, Gerald L في كتابه Religions of the World (٢) ولن
أحذف من ترجمة ما كتبه Berry إلا تفاصيل قليلة لا تمس جوهر الموضوع.
وقبل أن أبدأ ذلك أسجل حقيقة هامة تختلف فيها المسيحية عن الإسلام
اختلافا يكاد يكون تاما، وتلك الحقيقة هي أن مبادئ الإسلام واحدة عند
جميع المسلمين عامتهم ومفكريهم، فوحدانية الله، وكون محمد عبده ورسوله،
والقرآن الكريم، ونظام المواريث والزواج والطلاق، وغيرها من أمور الدين

(١) بناء على قرار الفاتيكان الصادر ١٩٢٩ والذي لا يزال معمولا به حتى كتابة
هذه السطور، تصل الكتب المحظورة قراءتها على الكاثوليك إلى خمسة آلاف كتاب،
منها جميع مؤلفات ميترلنك، وإميل زولا، ومنها أكثر مؤلفات رينان وجان جاك روسو
وديملس الأب وديماس الابن وديكارت ولامينية وفيكتور هوجو، ومنها انحلال الإمبراطورية
الرومانية وسقوطها لجيبون وتاريخ الأدب الإنجليزي لتين وأفكار ورسائل إقليمية لباسكال
وغيرها.

(٢) من ص ٦٨ إلى ص ٧٦.

والدنيا لا تختلف عند المسلمين عالمهم وجاهلهم، أما المسيحية فيمكن القول إن هناك نوعين منها، يتبع المفكرون نوعا، وتتبع الكنيسة وعامة الناس نوعا آخر بعيدا جدا عن النوع الأول.

وهناك حقيقة أخرى تترتب على تلك التي سبق إيرادها، وهي أن المسلم يزيد حبه للإسلام وتقديره له كلما زاد تعمقا في دراسته وتفكيره في مبادئه وفلسفته وحضارته وآدابه، أما المسيحي فعلى العكس من ذلك لأنه كلما زاد تعمقا في دراسة المسيحية ظهر له ما بها من تعقيد واستحالة، فيبعد عن مسيحية الكنيسة ويتخذ له مسيحية أخرى، أو ربما بعد عن المسيحية كلها واعتنق ديناً آخر، أو لجأ إلى اللادينية وإن بقي اسماً في عداد المسيحيين، ويذكر الأستاذ العقاد بعض هؤلاء المفكرين في كتابه (عقائد المفكرين في القرن العشرين (١)) فيقول:

إن الأوربيين الذين خرجوا على سلطان الكنيسة الرومانية، ظهر منهم أناس يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بالكتب، ولا بالشعائر الكنسية، وتسمت منهم طائفة بالربانيين (Diests) من كلمة ديوس بمعنى الرب أو الإله، وسموا دينهم بدين الطبيعة تمييزاً له من دين الكنيسة، واشتهر من هؤلاء في البلاد الإنجليزية لورد هربرت شربري Cherbury المتوفى قبيل منتصف القرن السابع عشر، فدعا إلى دين طبيعي يقوم على أركان خمسة: هي الإيمان بالله والعباد والفضيلة والتوبة واليوم الآخر، ثم تلاه انتوني كولنس Collins الذي يعتبره الكثيرون أستاذاً لفولتير وبنيامين فرنكلين في حرية الفكر، ويحسبون كتابه (محاضرة في الحرية الفكرية) Discourse on Freethinking إنجيل هذه النحلة، ثم تلاه تندال Tindal فألف كتابه الذي جعل عنوانه (المسيحية قديمة كقدم الخليقة) ليثبت به أن الإيمان سابق للكنائس والمذاهب.

(١) ص ٦٣.

والآن هيا بنا إلى أحد المفكرين الغربيين الذي يبين لنا في المسيحية اتجاهها
يكاد يكون عاما لهؤلاء المفكرين:
يقول Berry:

في رأي الكنيسة أن المسيح الإله انقلب فأصبح إنسانا وعاش مع الناس
كواحد منهم ليعلمهم مثلي للعيش، وقتل هذا الإله بمؤامرة دبرها أعداؤه
ودفن ثم خرج من قبره وصعد للسماء وقد احتمل هذه الآلام لينقذ المؤمنين به
من الخطيئة... فالذي يدرس هذه المسيحية يجدها اقتباسات من الوثنية واليهودية
والحياة الشرقية والرومانية ويجد بها عناصر أجنبية كثيرة بارزة بها كاملة أو
محرفة. فمن الأفكار الفلسفية الإغريقية التي اقتبستها المسيحية (الكلمة) وهي
ترادف (الإله) عند الإغريق لأن الكلمات لا تفنى بالاستعمال كما لا يفنى
الإله... ومن اليهودية اقتبست المسيحية فكرة الأبوة بين الله والناس أي
فكرة أبوة الإله للخلق، وفكرة الإخوة بين الناس، كما اقتبست المثالية التي
تكلمت عنها اليهودية (وإن لم يتبعها اليهود) وهي الحب والرحمة والعدالة،
ومن الحياة الشرقية اقتبست المسيحية الفنون والرسوم التي ازدانت بها الكنائس،
كما اقتبست استعمال الفسيفساء والصور والبخور والأنغام، أما الحياة الرومانية
فقد اقتبست الكنيسة منها النظم التي اتبعتها لتوزيع السلطان. وسيأتي مزيد
من التفاصيل عن هذه الاقتباسات.

وليس من المقطوع به أن عيسى شخص تاريخي، بل إن ذلك مجرد احتمال.
ولم يبدأ التاريخ الميلادي من ميلاد المسيح كما يظن، بل إنه ولد في عهد
أوغسطوس أي في العام الرابع قبل التاريخ الميلادي في بلدة الناصرة بفلسطين،
وأمضى الثلاثين السنة الأولى من حياته في حانوت التجارة الذي كان يملكه
أبوه يوسف النجار، ويؤيد علم الآثار القديمة بعض التأييد الرأي القائل بأنه

(١) أمضى وقتا طويلا في الطواف بالشرق وأوروبا حتى وصل بريطانيا.

وفي سن الثلاثين كان تصور فكرة أبوة الله وأخوة الناس قد اكتمل في نفسه، وصادف في ذلك الوقت أن ألقى القبض على (يوحنا المعمدان) (يحيى)، فخلا له الجو، فأعلن دعوته، وكان ذلك في عهد (تيربريوس)، وكان لليهود طريقان يقابلون بهما عسف الدولة الرومانية الحاكمة، وهذان الطريقان هما المقاومة، وقوة العقيدة، وقد اختار المسيح الطريق الثاني. وقد بنى عيسى تعاليمه على الثقافات اليهودية القديمة والمعاصرة له، والحديد الذي جاء به هو أنه كان يتكلم كإنسان في يده نفوذ أكثر من أن يقنع بأن يكون مفسرا وشارحا، واستطاع بفصاحته أن يجذب له كثيرا من الأتباع، ولم يدع عيسى قط أنه المسيح الذي ينتظره اليهود، ولكن كثيرين من أتباعه (الذين هم في الأصل يهود ينتظرون المسيح) منحوه هذا اللقب. وقد نادى عيسى - كما ينادي المصلحون المحدثون - بعالم جديد خال من البؤس والحاجة والشقاء، بل وخال من الموت. ولم يخضع عيسى للعادات ولا للقانون، فأثار غضب الطبقات العليا من اليهود، وبهذا قدم للمحاكمة بتهمة ملفقة عن خيانة سياسية، وكانت المحاكمة أمام بونتيوس بيلاطس (Pontius Pilates) ولكن هذا لم يجد أدلة كافية ضد عيسى، بيد أن الطبقات العليا من اليهود صاحت تريد قتله فأدين وصلب، وبعد صلبه ذاب أتباعه، وفي خلال السنوات التالية لم يعد أحد يسمع بعيسى ولا بأتباعه (١).

وكان عيسى يدعو الناس ليتبعوا مشيئة الله وأن يحسنوا علاقاتهم بإخوانهم وأن يكونوا شفقين رحماء، ولأن عيسى اتبع طريقة العظة اليهودية القديمة نجد دعوته تجد استجابة كبيرة لدى طبقات العامة، لأنه جعل لهذه الطبقات

(١) ومثل هذا ما يقوله Wells في هذا الموضوع وعبارته هي: وبعد صلب عيسى انهارت دعوته انهيارا تاما، وتخلي عن فكرته أتباعه عن بكرة أبيهم، ولما أتهم بطرس بأنه واحد منهم قال (لا أعرف هذا الرجل). (٩٣٣. P Outline of History Vol ٣)

مكانة وقيمة، وتعرض لمشكلات الناس اليومية بطريقة ودية سهلة، وكان ذكيا جدا، فيسرت له كل هذه الأمور أن يحصل على الأتباع والمريدين، ومن مواعظه قوله:

- تعالوا لي أيها الضعفاء والمثقلون بالذنوب:

- أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

-... فليرجعها منكم من لم يرتكب خطيئة.

وهكذا كانت المسيحية تتجه لتربية الروح والأخلاق، ولم تعط عناية

تذكر للجسم والمادة، بل حققت من شأنهما في كثير من الأحيان.

هذا هو عيسى وتلك هي دعوته التي أوشكت أن تفنى بعد موته كما سبق

القول، ومر الزمن وجاء شاءول، (Saul) وهو يهودي روماني من الفريسيين

أحد طبقات اليهود العليا، لم ير عيسى ولا سمعه يبشر الناس، وقد لعب شاءول

هذا دورا أنقذ به المسيحية بعد أن أوشكت أن تدخل عالم النسيان الذي ضم

كثيرا من أمثال هذه الحركات، وقد كان شاءول هذا في أول عهده أكبر

أعداء المسيحين، فأنزل بهم ألوانا من الاضطهاد والقتل والتعذيب لكنه فجأة

تحول إلى المسيحية، واستخدم تجاربه ومكانته، لينفع المسيحية وينتفع بها.

وكان عيسى يهوديا وقد ظل كذلك أبدا، ولكن شاءول كون المسيحية

عن حساب عيسى، فشاءول - الذي سمي فيما بعد بولس - هو في الحقيقة

مؤسس المسيحية (١)، وكان شاءول يمتاز بأنه صاحب دراية في السياسة

والابتكار، في حين كان عيسى صاحب أوهام وأحلام، وقد أدخل

بولس على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب له أتباعا من اليهود، فبدأ

(١) ومثل هذا ما يقوله ما يقوله Wells ونص عبارته: إن (يسوع الناصري هو نواة المسيحية أكثر منه مؤسس) (٦٧٩. P The Outline of History Vol ٣)

يذيع أن عيسى منقذ ومخلص وسيد (Lord) استطاع الجنس البشري بواسطته أن ينال النجاة، وهذه الاصطلاحات التي قال بها بولس كانت شهيرة عند كثير من الفرق وبخاصة في (Mithras) و (Cybele) فانحاز أتباع هذه الفرق إلى ديانة بولس، وعمد بولس كذلك - ليرضي المثقفين اليونان - فاستعار من فلاسفة اليونان وبخاصة الفيلسوف Philo فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق (الكلمة) (The Logos) أو ابن الإله (The Son of God) أو الروح القدس (The Holy Ghost) وبدأ بولس ديانته في أنطاكية (Antioch) حيث نشأ لأول مرة التعبير الشهير (Christian) (١)، وبدأت تنتشر هذه الديانة في المدن حيث تكثر الحاجة والفقير، ثم انتشرت في بقاع أخرى بعد ذلك، ورسائل بولس إلى هذه الجماعات التي استجابت لدعوته تمدنا بالجزء الأعظم من المادة التي تكون منها العهد الجديد.

وبالإضافة إلى رسائل بولس يتكون العهد الجديد من الأناجيل الأربعة التي تنسب إلى أربعة من الحواريين (؟) وإن كانت هذه الأناجيل في الحقيقة ليست من إنتاج هؤلاء الحواريين، ولا شك أن تاريخ حياة المسيح ودعوته كانت قد كتبت بلغته الآرامية ولكن هذا الأصل قد فقد، ولعل هذه الأناجيل قد أخذت عنه. وقد كتبت هذه الأناجيل الأربعة باليونانية بعد وفاة عيسى بجيل أو جيلين، وأقدمها عهدا هو إنجيل مرقص (Mark) (٦٥ م) وآخرها إنجيل يوحنا (١٠٠ م).

(١) لم يسمح عيسى خلال حياته لاتباعه أن ينسبوا أنفسهم له، فكلمة مسيحي أي نصراني أو ما شبهها كانت ممنوعة لأن عيسى كان يعد نفسه حلقة من حلقات أنبياء بني إسرائيل، وكانت شريعة موسى هي شريعته، ولم تظهر كلمة Christian (مسيحي) إلا في القرن الثالث في المجلس الذي عقد بمدينة نيس. أنظر: The Sources of Christianity P. ١٥.

وبولس هو المؤسس الحقيقي للديانة المسيحية، وقد طور فكرة المسيح من الناحية اللاهوتية والناحية الإنسانية وجعلها تتناسب مع فكرة الإنقاذ القديمة، فقدم آدابا مستحدثة في طابع قديم مألوف، وبهذا فصل دعوة عيسى عن اليهودية، ولم ينفرد بولس من الطقوس الوثنية، بل على العكس اقتبس كثيرا من هذه الطقوس ليضمن نشر ديانته بين الوثنيين دون أن ينفروا منها، وليبعد ديانته بذلك أيضا عن أن تذوب في اليهودية، ومن الصور التي حقق بها هذا الغرض أن جعل عطلة الأسبوع يوم الأحد متبعا في ذلك تقاليد Mithras وأهمل يوم السبت وهو اليوم المقدس عند اليهود (١)، واتبع بولس هؤلاء أيضا في اقتباس أعياد رأس السنة وعيد القيامة وعيد الغطاس وأطلق عليها مسميات جديدة، فعيد الربيع عند Ostara أصبح عيدا لخروج عيسى من القبر (Easter)، وطقوس السر المقدس أخذت مكان معبد التضحية عند اليهود، وعيسى أصبح (ابن الله) حملت به أمه العذراء حملا غير طبيعي، واحتلت صورة العذراء والمسيح مكانا مقدسا احتلته قديما صورتا حوروس وأوزيريس (Horus and Osiris) ووضعنا في كل الكنائس، وأما المعابد ذوات الأعمدة الكثيرة فكانت تذكرا للأحراش والغابات ذوات الأشجار الكثيفة التي كانت مكانا للعبادة لدى الأمم القديمة.

تلك أمثلة مما اقتبسته المسيحية من الوثنية، ولكن يجب ألا ننسى أنه على الرغم من كثرة ما أخذت المسيحية من الوثنية لم تصر المسيحية وثنية في روحها بل ظلت متمسكة بتحفظها الديني الذي ورثته من اليهودية، كما حافظت على ابتعادها عن الناحية الجسمانية الشهوانية، وقد ظلت المسيحية كذلك طالما كانت مضطهدة، تحارب لتعيش، فلما أصبحت أقوى من أعدائها تغيرت

(١) خروج ٣٣: ١٢ وثنائية ٥: ٣

الأحوال فقل صفاؤها وضعف، وظهرت بها الفرق والأحزاب التي استقلت كل منها بتنظيم نفسها، وأصبح رؤساؤها رجال سياسة وقادة دينيين في نفس الوقت. وعند نهاية القرن الثاني كان أتباع المسيحية أكثر من أتباع أي دين آخر، وكان الرومان مع تسامحهم تجاه كل الأديان يضطهدون المسيحيين لأسباب ثلاثة:

١ - اعتبرهم الرومان غير مخلصين للوطن لتنبؤهم بسقوط الإمبراطورية ولأنهم امتنعوا عن الخدمة العسكرية وعن شغل الوظائف.

٢ - اعتبرهم الرومان غير متجاوبين مع الاتجاه الاجتماعي في الإمبراطورية لأنهم لم يشتركوا في الأعياد العامة.

٣ - اعتبرهم الرومان أميل للفجور وسوء الأدب لأن أغلب الأسر التي تنصرت كان مصيرها الفرقة والانحلال.

وفي ابتداء القرن الرابع بدأ الأباطرة أمثال Constantine و Galerius

يقدمون التأييد الضخم الذي يمكن أن يحصلوا عليه من المسيحيين ليسندوا بذلك الجمهورية التي كانت تهتز وتتهاوى، ففي سنة ٣١٣ صدر منشور

(فرمان) يعترف بالمسيحية ويساويها بالأديان الأخرى، ثم جاء

الإمبراطور قسطنطين الذي بذل جهدا خاصا ليكسب تأييد المسيحيين، فأعفى القسس من الضرائب، وبنى الكنائس على حساب الدولة، وترك للكنيسة

شؤونها القضائية، وجعل يوم الأحد إجازة رسمية، واستمرت محاباة

المسيحية بعد ذلك حتى أحمدت الوثنية نهائيا بقانون ثيودوس الذي صدر

سنة ٤٣٨ م وبمقتضاه أصبح على جميع المواطنين أن يصيروا أعضاء بالكنيسة الأرثوذكسية، وانتشرت الديانة الجديدة كذلك بسرعة بين برايرة الجرمان

على حدود الإمبراطورية فعظمت بذلك الكنيسة الكاثوليكية، ولكن انتصار

الكنيسة نشأ معه شئ حاد هو عقوبة المخالفين عقوبات قاسية تصل إلى الموت. وازدانت الكنيسة بألوان الثقافات والفنون الإغريقية، ويرجع الفضل في ذلك إلى رجال مثل أوجستين وقسطنطين وجريجوري الأول (Augustine Constantine and Gregory I). وقد أثر الفن المعماري بالكنائس على الفن المعماري بالقصور الرومانية، فظهرت الأعمدة الكثيرة التي تحمل السقف (وهي في الحقيقة منحدره من الغابات حيث ديانات الوثنيين كما سبق القول) وأصبحت الكنيسة تزدان كذلك بالنقوش والفسيفساء والصور والزجاج الملون، وكثرت بها الآنية المرصعة بالأحجار الكريمة، وهذه المظاهر الخلابه جذبت للمسيحية أتباعا جددا، كما أن ادعاء الكنيسة أن النجاة تتوقف عليها جعل كثيرين من الناس يتدفقون على دخول المسيحية، وأعلنت الكنيسة أن التعميد يغسل الماضي ويزيل الذنوب الأساسية، وأن مداومة الاتصال بالكنيسة تمحو ما يجد من سيئات، وأذاعت الكنيسة معجزات نسبتها إلى القديسين لتثبت بذلك حقها اللاهوتي وقوتها السامية الإلهية، واشتغل الرهبان بجمع المخطوطات ونسخها وتقديم نسخ منها إلى المكتبات التي تطلبها، وبذلك حفظت الكنيسة كثيرا من التراث العلمي اليوناني واللاتيني الذي كان على وشك أن يضيع في ظلام العصور الوسطى.

وقد قلنا من قبل إن الكنيسة استعارت من الرومان أوضاع رجال الدين وتوزيع السلطات (System of Organisation) ونعود إلى ذلك بشئ من الايضاح فنقول إنه في خلال القرون الأولى للمسيحية كانت هناك تنظيمات قليلة في الكنيسة لأن المسيحيين كانوا ينتظرون عودة المسيح ليقود حياتهم، ومن هنا كانت كل كنيسة لها رئيس مؤقت كان يلاحظ فيه كبر السن واسمه مستعار من الإغريقية وهو (Presbye) أي الرجل الشيخ (The Old Man)

فلما لم يعد عيسى وكانت الكنيسة قد عظمت وكثر أتباعها بدأ المسيحيون يعملون نظماً أكثر دقة ودواماً وهي:

١ - أصبح للكنيسة رجال منقطعون لها ولا عمل لهم سواها، وكل منهم يسمى Priest أي قسيس أو رجل دين.

٢ - أطلق على هؤلاء Clergy أي رجال الدين للتمييز بينهم وبين العلمانيين وهم غير المنقطعين لخدمة الدين.

٣ - كبير القسس في كل مدينة أطلق عليه Bishop أي أسقف أو مطران.

٤ - الأساقفة في المدن الرئيسية أطلق على كل منهم اسم Archbishop أي رئيس الأساقفة في دائرته.

٥ - من بين رؤساء الأساقفة ارتفع خمسة إلى مكانة أسمى وأصبح لهم نفوذ كبير، وأخذ كل منهم لقب Patriarch أي بطريك أو بطريق

وهؤلاء هم رؤساء الأساقفة في المدن التالية: أنطاكية (Antioch) وبيت المقدس (Jerusalem) والإسكندرية (Alexandria) والقسطنطينية

(Constantinople) وروما (Rome) ومن الملاحظ أن أربعة من هؤلاء في الشرق وواحد فقط في الغرب. ويلاحظ كذلك أن أسقفاً واحداً غربياً

كان قويا وكان صاحب نفوذ وهو أسقف (Carthage) أما باقي الأساقفة الأقباء فكانوا شرقيين.

٦ - قبل القرن الحادي عشر كان كل من الأساقفة ورؤساء الأساقفة

يطلق عليه لقب (Pope) ولكن في القرن الحادي عشر في عهد جريجوري السابع (Gregory VII) اختص بهذا اللقب رئيس أساقفة روما.

ذلك هو التنظيم الديني للكنيسة وهو يتبع مراحل التنظيم الإداري للدولة الرومانية.

وقد استطاع رئيس الأساقفة في روما أن ينال نفوذا أكبر لعدة عوامل،
فروما كانت العاصمة وكان رئيس الأساقفة بها يطمع في نفوذ يعادل مكانة
البلدة التي يشغل منصبه بها، كما كان هناك اعتقاد أن كنيسة روما قد أسسها
Peter. St بتفويض من عيسى نفسه، ثم إن الذين تولوا هذا المنصب في العصور
الأولى كانوا أقوياء ورجال سياسة مبرزين فوجهوا أنظار الناس لهم. وأخيرا
كان لروما أثر واضح في الدعوة للمسيحية، وفي سنة ٤٤٥ أصدر الإمبراطور
قرارا يجعل رئيس أساقفة روما رئيسا عاما للكنائس المسيحية، (وبعد ذلك
بعدة سنوات أخذ رئيس كنيسة القسطنطينية رئاسة الكنائس الشرقية)،
وكان ذلك في عهد جريجوري العظيم (Gregory the Great) رئيس أساقفة
روما من سنة ٤٤٠ إلى سنة ٤٦١ فأصبح هذا بمقتضى القرار السابق رئيسا
للكنائس المسيحية كلها، وفي عهد هذا الرجل حدث حادث عظيم هو استيلاء
هذا البابا على السلطة السياسية في روما وظل السلطان السياسي في يد البابوات
اثني عشر قرنا.

وقد تم استيلاء هذا البابا على السلطان السياسي عندما بدأت الإمبراطورية
الرومانية تنشط، فبادرت كنيسة روما فعزلت نفسها من السلطة السياسية
للإمبراطورية، ثم استولت على الأمور السياسية بالإضافة إلى الروحانية،
وكونت الكنيسة بذلك دولة، وكانت الكنيسة غنية قوية، فساعدتها ذلك على
ادعاء أن لها الحق في أن يمتد حكمها فيشمل جميع المسيحيين في كل البقاع،
وأذاعت

أن مكانتها أسمى من مكانة الملوك والأباطرة، وأن البابا له السيادة العليا في
القضاء والإدارة، وأنه المشرع، والمفسر النهائي للكتاب المقدس، وأنه
مالك مفتاح الرحمة وباب السماء، وجبت الكنيسة الضرائب، وسيطرت
على القضاء، واستعملت حق الحرمان كأكبر عقوبة تنزلها بمخالفاتها،
واستصدرت قانونا جديدا عكف على إعداده عدد كبير من القسس،

وأصبح يعاقب بمقتضاه القسس إذا أخطئوا كما يعاقب بمقتضاه جميع المذنبين في حق الكنيسة كالمنشقين والمارقين والفساق والذين يمسون الأشياء المقدسة بدنس. وأصبحت الكنيسة تمثل الغنى والترف، وكان غناها من إيراد الممتلكات الواسعة التي كانت تمتلكها، ومن جمع الزكاة، ومن الوصايا التي طالما كان يوصي بها الناس للكنيسة قبل موتهم لتضمن لهم نعيما في الحياة الآخرة، وبالتالي أصبحت الكنيسة مركز نشاط اجتماعي وثقافي، فأشرفت على المدارس والمستشفيات ووزعت الصدقات وسيطرت على الجامعات ودور النشر. واجتمع في يد الكنيسة جميع شؤون الأسرة كالزواج والطلاق وتقييد المواليد والوراثة والوصايا، وأصبح للكنيسة سعاة يجمعون لها الأخبار ويبلغون عنها التعليمات، وعد رجال الكنيسة أنفسهم ممثلين لله، فأخذوا حق قيادة أفكار الناس وأعمالهم، وأعلنت الكنيسة بقوة أنها تسيطر على باب الله، وأنها منفذ الرحمة، وبهذا أبرزت خطر الحرمان الذي هو حاجز بين المحروم وباب السماء.

وجذبت هذه المكانة التي استمتع بها رجال الدين كثيرين من الناس ليدخلوا الكنائس ولينضموا إلى رجالها لينعموا بهذا النفوذ، وقد استطاع كثير من هؤلاء أن يحققوا أملهم وأن يصيروا من رجال الكنيسة، وتسبب عن ذلك أن أصبح هناك عدد كبير من الجهلة ورجال الأطماع وعبدة الدنيا محسوبيين في عداد رجال الدين.

ولما ازدادت قوة الكنيسة وأهميتها زادت طقوسها المقدسة عددا، وتنوعت هذه الطقوس، وامتدت لها يد الحبك والزخرفة، وتدخلت هذه الطقوس وهذه الأسرار في كل شئ في حياة الإنسان وبعد موته، ثم أنقصت الكنيسة الطقوس إلى سبعة أهمها:

- ١ - تعميد الأطفال عقب ولادتهم لتمحي عنهم آثار الخطيئة الأصلية،
وليعطى الطفل شيئاً من الحرية والمقدرة لعمل الخير.
- ٢ - العشاء الرباني، وهو يكون بالماء أو الخمر ومعه الخبز الجاف، وقد ارتبط هذا القداس بخبز إعجازي، هو تحول هذا الماء أو الخمر إلى دم عيسى وتحول الخبز إلى عظامه، ويجرى هذا القداس مرتبطاً بالأنوار والعطور والزهور.
- ٣ - الاعتراف، ويتبع الاعتراف الغفران، وكان الاعتراف يتكرر عدة مرات مدى الحياة، ولكن منذ سنة ١٢١٥ أصبح لازماً مرة واحدة على الأقل.
- ٤ - حضور القسيس عند الزواج ليقدم وحدة بين الرجل والمرأة.
- ٥ - حضور القسيس عند الموت ليمسح المريض المشرف على الموت بالزيت، وبخاصة أعضاء الحواس والصلب والأقدام.
(انتهى ما كتبه Berry)

المسيح والمسيحية في نظر المسيحيين
ليس من السهل في الحقيقة أن نتحدث عن المسيح والمسيحية في نظر
المسيحيين كما تحدثنا عن المسيح والمسيحية في نظر غيرهم، وسبب ذلك أن فرق
المسيحيين متعددة، وأن عقائد المسيحية مختلفة، ثم إن المسيحيين كانوا يعتقدون
اعتقاداً ثم مر الزمن فتغير ذلك الاعتقاد أو زيد عليه، ومعنى هذا أن الفكرة
عن المسيح والمسيحية اختلفت باختلاف الجماعات واختلاف الأزمان، ومع هذا
فسنحاول أن نجعل هذه الدراسة شاملة لأبرز هذه التطورات والاختلافات،
بيد أنا هنا نبدأ في بيان المعالم العامة الشهيرة للمسيح والمسيحية كما تعتقدها
الكنائس اليوم وتعلمها، وكما يتبعها جماهير المسيحيين وعامتهم (١)، ونسارع
فنشير هنا إلى ما سيأتي تفصيله فيما بعد من أن الكنائس من كاثوليكية
وأرثوذكسية وبروتستانتية وغيرها تختلف في الفروع، أما الأصول كألوهية
المسيح والتثليث فليست موضع خلاف، فإذا اعتمدنا في بيان الأصول على
مصدر كاثوليكي هام مثل Pengadjaran Geredja Katolic فإنه لا يعطينا
فقط فكرة الكاثوليك في هذه الأصول، وإنما يعطينا فكرة الجميع، وسنعمد
في دراستنا هذه كذلك على الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى المسيحيين، وعلى
مصادر أخرى أكثرها أو كلها مسيحية كتبها مسيحيون شرقيون أو غربيون
لنعرض أفكار المسيحيين كما يعتقدونها دون تحريف، وليس لنا على ما سنورده
من هذه المصادر المسيحية إلا التعليق الذي هو طبيعة الكاتب وروحه، والذي
لا غنى لمؤلف عنه.

المسيح في نظر المسيحيين:

ليس المسيح في نظر المسيحيين إنساناً ولد على الطريقة التي ذكرناها

(١) واعتقاد الكنيسة وعامة المسيحيين يختلف عن اعتقاد المسيحيين المثقفين كما أشرنا
من قبل.

من قبل، بل هو تكوين آخر، إنه ابن الله الأزلي، وهو كالأب أزلي أيضا، فليس بينه وبين الله فرق في الزمن، والله الأب غضب على الجنس البشري بسبب خطاياهم وبخاصة خطيئة أبيهم آدم التي أخرجته من الجنة، ولكن مع غضب الله على الجنس البشري فهو رحيم، يريد أن يمحو هذا الذنب ويعيد رضاه عن الناس، فأرسل ابنه ووحيده إلى الأرض حيث دخل رحم مريم العذراء البتول، وولد كما يولد الأطفال، وتربى كالأطفال حتى بدا إنسانا كالإنسان، ثم صلب ظلما على الصليب، لا لأنه ارتكب خطأ في حق الرومان أو اليهود، بل ليكفر عن إثم آدم الذي أصبح المسيح كأنه أحد أبنائه، فكأنه احتمل بعض مسؤولية عصيان أبيه آدم (١)، وسيجيء فيما بعد مزيد من التفصيل لهذا الموضوع.

ويرى المسيحيون أن وفود الملائكة بدأت تظهر في الجو مسبحة في الحقول المجاورة لبيت لحم عقب مولد المسيح، وأن نجما لاح في السماء يشير بمولد المخلص، وأن جماعات المجوس تبعوا ذلك النجم الذي هداهم إلى مكان ولادته فرأوا الطفل وسجدوا له (٢)، وأن هيرودوس ملك اليهود لما علم بذلك خاف على ملكه من المولود الجديد فأصدر أمره بقتل كل مواليد بيت لحم، ولكن الله أوحى إلى يوسف النجار أن يأخذ الطفل وأمه ويذهب إلى مصر (٣) فأخذهما وحل بهما في دير المحرق بجبل قسقام بمحافظة أسيوط، حيث أقاموا بضعة أشهر، حتى جاء الوحي مرة أخرى ينبئ يوسف بأن ملك اليهود هذا قد هلك، ويأمره بالعودة إلى فلسطين (٤)، فقاموا ومروا في طريقهم بالمطرية واستظلوا فترة بشجرة سميت منذ ذاك بشجرة العذراء. ولم يتفق المؤرخون

(١) باختصار. ٦٩ - ٦٥ - ٥٢ - ٤٧. Pangdjaran Geredja Katolik PP.

(٢) متي ٢: ١ - ٩.

(٣) متي ٢: ١٣ - ١٤.

(٤) متي ٢: ١٩ - ٢٢.

على المدة التي استغرقتها هذه الرحلة، وتتراوح أقوالهم بين سنة وأربع سنوات (١).

ولما عاد المسيح إلى فلسطين أقام مع أمه بالناصرة، وكانت مريم ويوسف وعيسى يذهبون كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح ثم يعودون بعد أيام، وحدث مرة أن الطفل اختفى منهم في أورشليم، فلما بحثوا عنه وجدوه جالسا في الهيكل يناقش العلماء، وكانت سنه آنذاك اثنتي عشرة سنة (٢). ولما بلغ الثلاثين من عمره بدأ يبشر في مدينة الجليل، كما أنه أخذ يعظ الناس في كثير من الأحوال بمدينة كفر ناحوم وما حولها. يعظهم هناك في البيعة اليهودية، ثم هبط إلى أورشليم.

وكان دخوله أورشليم نصرا سلميا، إذ اجتمع حوله في الجليل عدد عظيم من الأتباع، حتى كان يضطر في بعض الأحيان أن يعظ الناس من زورق في بحيرة الجليل بسبب تراحم الجمهور على الشاطئ، وتسامع الناس به وسبقته شهرته إلى العاصمة، فخرجت جماهير غفيرة لتحيته عند قدومه إلى العاصمة، وواضح أنهم لم يفهموا منحي تعاليمه، وأنهم جميعا كانوا يشتركون في اقتناعهم العام بأنه سيقرب النظام القائم بضرب من سحر البر والصلاح، وقد دخل المدينة راكبا جحشا استعاره من تلاميذه، والجمهور يرافقه رافعا صوته بالتهليل والتكبير هاتفا بكلمة (أوصانا!! Hosanna) وهي لفظة تعبر عن الفرح.

وذهب توا إلى الهيكل. وكانت أفنيته الخارجية غاصة بمناضد الصيارف وبخوانات أولئك الذين يبيعون اليمام لكي يحرره زوار المعبد الأتقياء!!!

(١) زكي شنودة: تاريخ الأقباط ص ٤٤.

(٢) لوقا ٢: ٤١ - ٤٧.

وانبعث هو وأتباعه يطردون هؤلاء المتجرين على حساب الدين وقلبوا لهم
مناضدهم. وتكاد هذه أن تكون فعلته الإيجابية الوحيدة (١).
وقد حاول الشيطان أن يخدعه ولكن المسيح طرده، واختار من أتباعه
اثني عشر مريدا لقبوا بالحواريين، وقد لازمه هؤلاء مدة دعوته، ثم اختار
من أتباعه من أرسلهم إلى القرى للتبشير، وأيده الله بالمعجزات العظيمة،
فكان يحيي الموتى، ويشفي المرضى، ويفتح أعين العميان، ويخرج الأرواح
النجسة، وينهر الرياح إذا ثارت فتهداً، والبحر إذا أصحب فيخضع (٢).
ولما رأى اليهود أن شأن المسيح سيرتفع جن جنونهم، فاجتمع رؤساء
الكهنة والفريسيون، بالحبر الأكبر كايافاس (Caiaphas) وراحوا يتآمرون
ويتشاورون، فقال رئيس الكهنة: (إنه خير لنا أن يموت واحد ولا تهلك
أمة كلها) وقرروا قتله، وأخذوا يشيرون عليه بيلاطس حاكم فلسطين من
قبل الرومان، ولما رأوا أن هذا لا يريد أن يتدخل في الشؤون الدينية لليهود،
تقدموا إليه مدعين أن عيسى أخذ يفسد الأمة وأنه يمنع أن تعطى جزية
لقصير (٣)، ويدعي أنه مسيح ملك (٤)، بل توعدوا بيلاطس أن يرفعوا
الأمر لقيصر إن هو قصر في إنزال العقوبة بعيسى، ولما رأوا تردده وخوفه
على نفسه من دم عيسى صاحوا به: دمه علينا وعلى أولادنا.
وهكذا أثار اليهود في بيلاطس فأمر بالقبض على عيسى، وأحس عيسى
بذلك فاختفى مع حواريه في حديقة جثيماني Gethaemane، ولكن يهوذا
الإسخريوطي أحد هؤلاء الحواريين تقدم للكهنة وسأومهم على تسليمه للرومان
نظير ثلاثين من الفضة، وقاد يهوذا جنود الرومان حيث قبضوا على عيسى، ودفع

(١) Outline of History vol: Wells .٣ P .٦٩٢ .(١)

(٢) وردت هذه المعجزات في عدة أمكنة من الأناجيل الأربعة.

(٣) كان القيصر آنذاك هو (طيربوس).

(٤) لوقا: الإصحاح ٢٣ الفقرة الأولى وما بعدها.

اليهود بيلاطس فحكم عليه بالموت صلبا (١)، ونكل به الجنود الرومان ثم صلب حتى مات ودفن، وبعد ثلاثة أيام أمضاها في القبر قام في الفصح، ومكث أربعين يوما مع تلاميذه خاصة، ثم ارتفع إلى السماء أمامهم بعد أن أوصاهم بالجد في نشر دعوته باسم الأب والابن وروح القدس (٢).

وهذا الموضوع الأخير وهو ارتفاع عيسى إلى السماء وتلاميذه يرونه، يدعو إلى التفكير، فالآراء المسيحية مجمعة كما سيأتي على أن عيسى تجمع فيه اللاهوت والانسوت، وأن الجانب الذي كان يرى ويأكل ويتكلم ويمشي ويتألم هو جانب الناسوت في عيسى، وإذا صح هذا الكلام فلماذا يصعد هذا الجانب أو هذا الجسم إلى الطبقات العليا؟ كان من الطبيعي أن الناسوت انتهت مهمته فحق عليه الفناء بالصلب كما يفنى كل الناس، وأن الذي يعود إلى العليين هو جانب اللاهوت في عيسى وهو جانب لا يرى وليست به صفات البشر. ***

والذي رسم للمسيح هذه الصورة هو بولس الذي سنتكلم عنه فيما بعد، وهي صورة قلبت الفكر الذي ينسب للمسيح، وبين أيدينا كتاب هام ألفه رائد مسيحي وقس متبحر، ولكنه يصدق القول عندما يقول إن المسيح الذي نتكلم عنه الآن هو (مسيح بولس) وفيما يلي عبارة هذا المؤلف: لقد ترك لنا بولس الرسول عن المسيح رسما واضحا القسما وإن اختلف ظاهرا عن رسم مسيح الأناجيل، فمسيح بولس هو مسيح الإيمان أكثر منه مسيح التاريخ، ولا عجب فبولس الفيلسوف واللاهوتي لم ير

(١) الأناجيل الأربعة وتاريخ الأقباط للأستاذ زكي شنودة ص ٥٦. والمشرع للقس بولس سباط ص ٩٤ - ٩٥.

(٢) أنظر قصة محاكمة المسيح وصلبه في متي الإصحاح ٣٧ وانظر المشرع ص ١٠٥. وتاريخ الأقباط للأستاذ زكي شنودة ص ٦٥ - ٦٧.

المسيح في الجسد ولا رافقه كباقي الرسل، فمسيحه هو ابن الله (روما ٨: ٣ و ٢٣ - غلاطية ٤: ٤) له طبيعتان إلهية وإنسانية، تجسد واتخذ صورة عبد (فيلبي ٢: ٧) وتحد من ذرية إبراهيم حسب الجسد (غلاطية ٣: ١٥) ومات مصلوبا وقبر وقام من بين الأموات (كورنثس الأول ١: ٢٤ - ٢٧ وفيلبي ١٥) (١).

نعم ذلك هو مسيح بولس وليس عيسى بن مريم عليه السلام. وهناك وصف آخر دقيق لشخص عيسى في وضعيه الحقيقي والمزعوم، وهذا الوصف يقدمه Wells، ويجدر بنا أن نورد هنا، يقول Wells: إن شخصية جوتاما بوذا قد شوهدت وانطلمست وراء تلك الصور الجامدة الوثنية المترتبة التي تمثل شخصية بوذا في البوذية المتأخرة ١، فكذلك يشعر المرء أن شخص عيسى النحيل المكدود قد أضر به كثيرا ذلك الجو الوهمي وتلك الروح التقليدية اللذان فرضهما على صورته في الفن المسيحي الحديث تبجيل خاطئ أجوف، لقد كان عيسى معلما ذا خصاصة، يتجول في (أرض يهودية) المترتبة اللافحة الشمس، ويعيش على هبات عرضية من الطعام، ومع ذلك فإنه يصور على الدوام نظيفا ممشط الشعر مرمله صقيل الإهاب نقي الثياب مستقيم العود، ومن حوله سكون لا يريم كأنما هو منزلق في الهواء. وهذا وحده قد جعله وهما لا يؤمن به الكثير من الناس الذين لا يستطيعون أن يميزوا بين لباب القصة وبين زخرف استطرادات التحسين والتحلية غير الموفقة التي يضيفها بعض المتبتلين الأغبياء (٢).

(١) الأب بولس إلياس: يسوع المسيح ص ١٧ - ١٨.
(٢) Outline of History vol P. ٦٢١ ٣

المسيحية الحالية وواضعها
سيكون حديثنا هنا - كما قلنا آنفا - عن مسيحية اليوم، مسيحية
الكنائس، ولكن حديثا كهذا يستلزم أن نترجم لمنشئ هذه المسيحية وواضح
أسسها ومدون قوانينها، ذلك هو شاءول الذي سمي فيما بعد بولس والذي
يقول عنه (Berry) فيما أوردناه سابقا (إنه هو في الحقيقة مؤسس المسيحية)
ويقول عنه Wells: إن كثيرا من الثقات العصريين يعدونه المؤسس
الحقيقي للمسيحية (١)، وستكون ترجمتنا لبولس ومبادئه مأخوذة من رسائله
المعتبرة لدى الكنائس، وستضع هذه الترجمة في أيدينا مفتاحا نفهم به هذه
الديانة فهما أقرب إلى الصواب، فلنرجئ - إلى حين - حديثنا عن
المسيحية في نظر المسيحيين لتتكلم عن مؤسس هذه الديانة، عن
(بولس الرسول).

شاءول (بولس):

أول ما نذكره عن شاءول هو مقتطفات مما كتبه هو عن نفسه أو كتبها
عنه تلميذه لوقا نسق بها تعريفا به، قال بولس:

- أنا يهودي فريسي بن فريسي على رجاء قيامة الأموات (٢).
- سمعتم بسيرتي قبلا في الديانة اليهودية، أني كنت أضطهد كنيسة الله
بإفراط وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي
في جنسي إذ كنت أوفر غيرة في تقليدات آبائي (٣).
ويقول لوقا عنه في أعمال الرسل: وكان شاول راضيا بقتل المسيحيين،
وكان يسطو على الكنيسة، ويدخل البيوت، ويجر رجالا ونساء ويسلمهم

Outline of History vol ٣ P .٦٩٥ (١)

(٢) أعمال الرسل ٦: ٦٣

(٣) غلاطية ١٣١ - ١٤.

إلى السجن (١)، ولم يزل ينفث تهديدا وقتلا على تلاميذ الرب، فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق، إلى الجماعات حتى إذا وجد أناسا في الطريق رجالا أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم (٢).

وعن دخوله المسيحية يقول لوقا: (وعند ما كان بولس قريبا من دمشق، فبغته أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض، وسمع صوتا قائلا له: شاول شاول لماذا تضطهذي؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي تضطهده. فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له قم وكرز بالمسيحية. ويقول لوقا في ختام هذه القصة جملة ذات بال غيرت وجه التاريخ هي: (وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله (٣)) ولم تكن هذه الفكرة قد عرفت من قبل، فأصبحت نقطة التحول في الدراسات المسيحية، وقد حدث هذا التطور لشاول أو حدث في تفكير شاول وهو في الطريق من أورشليم إلى دمشق، وكان ذلك حوالي سنة ٣٨ م، وسنعود فيما بعد لحديث أوسع يتصل بالتعاليم التي نادى بها شاول وأسسها. وقد دخل بولس المسيحية وأصبح معلما لها، وتم ذلك بهذا النسق الذي يصدقه قوم ويراها آخرون قصة مخترعة لم يجد حبكها، ولكن هذا ينقلنا إلى سؤال آخر دقيق هو: كيف تعلم شاول المسيحية؟ أو من هم أساتذة شاول في المسيحية.

إن شاول قد أعد لهذا السؤال إجابة شبيهة بقضية دخوله المسيحية، فهي إما أن تقبل وإما أن ترفض ولكنها على كل حال لا تناقش، قال: وأعرفكم أيها الإخوة، الإنجيل الذي بشرت به أنه ليس بحسب إنسان لأنني لم أقبله من عند إنسان ولا علمته، بل بإعلان يسوع المسيح (٤).

(١) أعمال ٧: ٦٠، ٨: ٣

(٢) أعمال ٩: ١ - ٧

(٣) أعمال ٩: ٣ - ٢٠.

(٤) غلاطية ١: ١١ - ١٢

وهكذا أخذ شاول - الذي أصبح يدعى بولس بعد دخوله المسيحية - الزمام في يده، فهو لم ير المسيح قط ولا سمعه يتكلم، ولكنه قال بصلة مباشرة بينه وبين المسيح، صلة أدخلته المسيحية وسكبت في نفسه تعاليمها، وبهذه الدعوى لم يصر لأحد حق في أن يناضله فيما ينشره من تعاليم، ما دام يقول إن هذه التعاليم تلقاها مباشرة من السيد المسيح. وعلى هذا لم يكن لبولس أساتذة تلقى عنهم المسيحية، فهل كان له زملاء؟ وهل كان له تلاميذ؟

نعم كان له زملاء وكان له تلاميذ، ففي وسط المحنة التي كان يمر بها المسيحيون استخف الطرب المسيحيين عندما رأوا بولس أكبر أعدائهم ينضم إليهم، وقد تشكك بعضهم في أمره ولكن برنابا دافع عنه وأحسن تقديمه إلى هؤلاء (١) وسرى فيما بعد كيف ولماذا انفض من حوله أتراه وتلاميذه، ولكن كان هناك من أخلص له الود وظل حواريا له، ذلك هو تلميذه لوقا، ويقول عنه بولس (إنه الطبيب الحبيب (٢)) وآمن لوقا برسالة بولس وأخلص لها ولم يعرف من المسيحية سواها، فخدم أستاذه وأحله محلا رفيعا لا يقل عن مقام عيسى نفسه، وكتب لوقا رسالة أعمال الرسل، ولكنها في الحقيقة قصة حياة بولس فهي لبولس كإنجيل متي ومرقص للمسيح، كلها وصف لأعماله وإشادة بمعجزاته، وكتب لوقا إنجيله فأفرغ فيه أفكار أستاذه، وهكذا تبادل بولس ولوقا المدح والمنفعة فأصبح لوقا في الصف الأول إذ أصبح من كتبة الأناجيل مع أنه هو وأستاذه لم يريا عيسى قط، وأصبح (الطبيب الحبيب)، وكافأ لوقا أستاذه على احتفائه به فأصبح خير داعية لأفكار بولس، يقول القديس ترتليانوس أسقف قرطاجنة: إن إنجيل لوقا ينسب كله إلى بولس (٣).

(١) أعمال ٩ : ٢٦ - ٢٧.

(٢) كولوسي ٤ : ١٤.

(٣) الأب بولس إلياس: يسوع المسيح ص ٢١.

وقد سبق أن تكلمنا عن الاضطهادات التي واجهت المسيحية منذ عهدنا الأول، تلك الاضطهادات التي كان عيسى نفسه ضحيتها، وقد استمرت الاضطهادات بعد عيسى فأحقت بحوارييه وأتباعه، وكان من أسباب ذلك أن فنيت المسيحية أو أوشكت، ويقول Berry: وبعد صلب المسيح ذاب أتباعه واختفت دعوته ولم يعد أحد يسمع شيئاً عن هذه الدعوة (١). في خلال هذا الظلام الحالك دخل بولس المسيحية، وأحاط نفسه بالضمانات التي سبق أن أوردناها، فلم يقيد نفسه بما تلقاه سواه عن عيسى، بل راح يقول في صراحة إنه الوحيد الذي أوّتمن على المسيحية الصحيحة (٢) وعلى إنجيل مجد الله المبارك (٣)، وأن كل ما يخالف ما يقول به من تعاليم، كلام باطل دنس، مخالف للعلم، كاذب الاسم، يتظاهر به قوم زاغوا عن الإيمان، ولهذا يجب الإعراض عن مثل هذا الكلام (٤). وراح بولس يعلن ديانة استمد لها عناصر من الثقافات الأجنبية التي كان بولس على علم واسع بها، يقول Wells (وقد أوتي بولس قوة عقلية عظيمة، كما كان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية، فتراه على علم عظيم باليهودية والميتراسية وديانة ذلك الزمان التي تعتنقها الإسكندرية، فنقل إلى المسيحية كثيراً من أفكارهم ومصطلح تعبيرهم، ولم يهتم بتوسيع فكرة عيسى الأصلية وتنميتها، وهي فكرة (ملكوت السماوات) ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب، بل إنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيراً عن خطيئة البشر، فموته كان تضحية مثل ممات الضحايا القديمة من الآلهة في أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشرية (٥)).

(١) * (P. Religions of the World .٨٩)

(٢) تيطس ١: ٣

(٣) نيموثاوس الأول ١: ١١.

(٤) تيموثاوس الأولى ٦: ٢٠ - ٢١.

(٥) A Short History of the Worlds PP .١٧٨ - ١٧٩

ويقول Wells في مكان آخر (١):
من الراجح جدا أن بولس تأثر بالمشراطية. إذ هو يستعمل عبارات قريبة
الشبه بالعبارات المثرائية، ويتضح لكل من يقرأ (رسائله) المتنوعة جنبا إلى
جنب مع الأناجيل، أن ذهنه كان مشبعا بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية فيما
نسب لعيسى من أقوال وتعليم، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذي
يقدم قربانا لله كفارة عن الخطيئة. فما بشر به عيسى كان ميلادا جديدا للروح
الإنسانية، أما ما بشر به بولس فكان الديانة القديمة، ديانة الكاهن والمذبح
وسفك الدماء طلبا لاسترضاء الآلهة. كان عيسى في نظره حمل عيد الفصح،
تلك الضحية البشرية المأثورة المبرأة من الدنس أو الخطيئة.
ولا زلنا على ذكر بما نقلناه من قبل عن Berry الذي يكرر عدة مرات
أن المسيحية الحالية مسيحية بولس، وأنها ديانة وهو منشئها، ولعل من الخير
أن نعيد هنا عدة سطور مما سبق أن أوردناه، ليكون موضوعنا أكثر وضوحا،
يقول Berry: (وكان عيسى يهوديا وقد ظل كذلك أبدا، ولكن شاءول
كون المسيحية على حساب عيسى، فشاءول هو في الحقيقة مؤسس المسيحية،
وقد أدخل بولس على ديانته بعض تعاليم اليهود ليحذب له العامة من اليهود،
كما أدخل صورا من فلسفة الإغريق ليحذب أتباعا له من اليونان، فبدأ يذيع
أن عيسى منقذ ومخلص وسيد (Lord) استطاع الجنس البشري بواسطته أن ينال
النجاة، وهذه الاصطلاحات التي قال بها بولس كانت شهيرة عند كثير من
الفرق وبخاصة في Mithras و Cybele فانحاز أتباع هذه الفرق إلى ديانة بولس،
وعمد كذلك - ليرضي المثقفين اليونان - فاستعار من فلاسفة اليونان وبخاصة
الفيلسوف (Philo) فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة (the Loges) أو
ابن الإله (The Son of God) أو الروح القدس (The Holly Ghost) (٢)

Outline of History vol .٣ P .٦٩٦ - ١
Religions of the World P .٧٠ .(٢)

ونبرز هنا بإيجاز نقاطا كبيرة الأهمية كانت عماد ديانة بولس بسطنا القول في بعضها من قل وسنعود إلى سواها بالشرح والتفصيل فيما بعد، وهذه النقاط هي:

١ - أن المسيحية ليست دينا لليهود بل هي دين عالمي.

٢ - التثليث ويتبع ذلك ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس.

٣ - كون عيسى ابن الله ونزوله ليضحي بنفسه تكفيرا عن خطيئة البشر.

٤ - قيامة عيسى من الأموات وصعوده ليجلس على يمين أبيه كما كان من قبل ليحكم ويدين البشر.

ولعل الموضوع الأول وهو كون المسيحية دينا عالميا كان نقطة التحول في تاريخ هذه الديانة، ولا شك أن بولس هو أول من قال بعالمية المسيحية، وأفاض في شرحها في رسائله (١) وأكد (أن هذه النعمة أعطيت له وهو أصغر القديسين دونهم جميعا ليشرح بين الأمم ولينير الجميع في ما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور (٢)) ويعترف الكتاب المسيحيون أن الحواريين وتلاميذ المسيح الأول لم يفهموا هذه الحقيقة حتى اكتشفتها عبقرية بولس، يقول William Patoun ما نصه (ولم يفقه التلاميذ الأولون في بادئ الأمر أن الحدود اليهودية الضيقة قد زالت، ولكن عبقرية الرسول بولس قد فطنت إلى تضاعيف الرسالة من هذه الناحية وعرف أنها لليهودي والأممي والبربري واليوناني والذكر والأنثى على السواء دون تفریق أو تمييز (٣) ومن الواضح للذي يقرأ رسائل بولس أن بولس لم يورد دليلا واحدا ولا كلمة واحدة تنسب إلى عيسى عن عالمية المسيحية، وإنما كان تدليله على

(١) أنظر رومية ١: ٥، ١٤ - ١٦ و ٢: ٢٥ - ٢٩ وكورنثوس الأولى:

١٣ وغلطية ٣: ٢٦ - ٢٩ وإفسس ٢: ١٢ وما بعدها و ٣: ٨ وكولوسي ٣: ١١

(٢) إفسس ٣: ٨ - ٩.

(٣) Christianity ضمن كتاب (أديان العالم الكبرى) ترجمة حبيب سعيد ص ١١٧

هذه العالمية من كلامه هو ومن بنات أفكاره، شأنه في ذلك شأن التبدليل على عدم ضرورة الختان وعلى كثير من التعاليم (١).
وقد قلنا آنفا إن عالمية المسيحية كانت نقطة التحول في تاريخ هذه الديانة، وذلك لأن فتح باب هذه الديانة لجميع العناصر ألزم بولس أن يدخل على دياناته تعليمات أخرى تزيل الهوة بين ديانات بني إسرائيل وأفكار الأمم المختلفة الذين فتح لهم باب المسيحية، وبخاصة الوثنيون الأوربيون واليونانيون، وأتباع ديانة متراس وغيرهم، ولهذا قال بولس بالثالث، وبنزول عيسى ليكفر بنفسه عن خطيئة البشر، وبعدم ضرورة الختان، وغير ذلك من العقائد والشعائر التي لها صلة بديانات هذه الأمم واتجاهاتها، فتدفق الغربيون لذلك على دين بولس بينما نفر الشرقيون، وكان هذا سببا في نقل المسيحية من دين شرقي إلى دين غربي تقريبا.
وعمدت مهارة بولس إلى إرضاء طبقة السادة والطبقة الحاكمة فجعل طاعتهم دينا كإطاعة المسيح، قال للعبيد (أيها العبید أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عالمين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس (٣)). ويقول في رسالة أخرى (جميع الذين هم عبيد تحت نير فليحسبوا سادتهم مستحقين كل إكرام لئلا يفترى على اسم الله وتعليمه (٣) ويكتب إلى تلميذه تيطس (ذكرهم أن يخضعوا للرياسات والسلطين ويطيعوا (٤)).
وعلى هذا شهد العقد الرابع والخامس من الميلاد المسيحي دين عيسى وهو يذبل، وتفنى بعض مراجعه ويختفي البعض الآخر، ويتشتت أتباعه

(١) أنظر رسالة بولس إلى أهل رومية ٥ : ١٢ وما بعدها و ٩ : ٧ وما بعدها.

(٢) إفسس ٦ : ٥ - ٧.

(٣) نيموثاوس الأولى ٦ : ١.

(٤) تيطس ٣ : ١.

ويحبو ربحه، كما شهد هذان العقدان دين بولس وهو ينبثق باسم المسيحية، وتوضع له المراجع في صورة أناجيل ورسائل، وتحدد قواعده وأركانه، وتنهال عليه الجماهير، ويبدو أن أتباع بولس وجدوا أحيانا لونا من التسامح وبخاصة من الطبقة الحاكمة التي لم تجد في اتجاه بولس ما وجدته في اتجاه عيسى من حث على عدم شغل الوظائف وعدم الخدمة العسكرية وغيرها مما يثير الحكام، فقل اضطهاد الحكام لهم من أجل ذلك.

وهنا نعود إلى السؤال الذي سبق أن أوردناه، وهو الحديث عن زملاء بولس وتلاميذه فنتساءل مرة أخرى: ما موقف الحواريين وأتباع عيسى الحقيقيين من أفكار بولس؟

الجواب على ذلك أن صراعا ضخما قام بين بولس وأنصاره وبين المسيحيين الحقيقيين، وقد طال مدى هذا الصراع، وامتد قرونا بعد وفاة بولس، ونتائج هذا الصراع كانت مطابقة للمنطق والعقل، ففي جانب بولس كانت قلة محدودة جدا من المثقفين المسيحيين، وكثرة ساحقة من الجماهير، وكان جانب المسيحيين الحقيقيين بالعكس أي كان معهم جماهير المثقفين وقلة قليلة من العامة، أما الطبقة الحاكمة فقد كانت ميولها (its Sympathy) في جانب بولس وأتباعه، وابتداء من مطلع القرن الرابع برزت هذه الميول وأصبحت تأييدا صريحا لاتجاهات بولس، وإلزاما للناس باتباعها كما سيأتي إيضاحه فيما بعد. ذلك موجز هذا الصراع ولكن لدينا إيضاحات ذات بال عن هذا الصراع وعن دور بولس نفسه فيه، وتلك الإيضاحات مأخوذة من كلام بولس، فالذي يطالع رسائل بولس إلى الفيلبيين والكولوسييين والغلاطيين ورسالته إلى تيموتاوس ورسالته إلى تيطس يجد من ذلك الشيء الكثير، ويجد شيئا آخرها ما هو سلوك بولس مع مخالفيه في الرأي وتحقيره لهم وإغراؤه بهم، ونحن هنا سننقل صورة سريعة لهذا الصراع من هذه الأقوال.

لقد أشرنا آنفا إلى أن أفكار بولس انتشرت في الغرب بين الوثنيين واليونان أكثر من انتشارها في الشرق الذي هو مشرق النبوات السماوية التي كانت الوحداية في قمة تعاليمها، وقد وضح بولس نفور الشرق من تعاليمه بكلمات صريحة حيث قال في رسالته إلى تلميذه تيموثاوس (أنت تعلم أن جميع الذين في آسيا ارتدوا عني) (١).

وانفض أكثر أنصار بولس عنه، وهو يكتب بهذا إلى تلميذه تيموثاوس في نفس الرسالة السابقة فيقول: (بادر أن تجئ إلي سريعا لأن ديماس قد تركني إذ أحب العالم الحاضر وذهب إلى تسالونيكي، وكريسكيس إلى غلاطية وتيطس إلى دلماطية. لوقا وحده معي. إسكندر النحاس أظهر لي شرورا كثيرة ليحازه الرب حسب أعماله، فاحتفظ منه أنت أيضا لأنه قاوم أقوالنا جدا. في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي بل الجميع تركوني (٢)). وقد ذكرنا من قبل أن برنابا هو الذي أيد بولس وقدمه للمسيحيين حينما نفر هؤلاء منه في أول عهده بادعاء المسيحية، ولكن برنابا عاد فتخلى عن بولس بعد أن ظهرت اتجاهاته، وفي ذلك يقول بولس: (حتى إن برنابا أيضا انقاد إلى رياء الآخرين) (٣).

وهكذا انفضت آسيا وانفض الحواريون والمثقفون المسيحيون من حول بولس وتركوه وحده أو مع قلة قليلة ممن لم يعرفوا من المسيحية إلا آراءه مثل مريده لوقا وقليلين من أمثاله. فماذا كان موقف بولس من هؤلاء الذين ارتدوا عنه؟

والجواب على ذلك عجيب للغاية، فقد كان بولس قاسيا عليهم، حقوقا، محقرا شأنهم مغريا بهم، وهاك رسالتيه إلى تيموثاوس، كلتاهما هجوم وحقد وإغراء وتحقير، ونحن نفتبس منهما ومن غيرهما من الرسائل نماذج تصور لنا موقف بولس من المسيحيين الآخرين.

(١) تيموثاوس الثانية ١: ١٥.

(٢) تيموثاوس الثانية ٤: ٩ - ١٦.

(٣) غلاطية ٢: ١٣.

كتب إلى مريده تيموثاوس يقول:
طلبت إليك أن تمكث في إفسس إذ كنت أنا ذاهبا إلى مكدونية لكي توصي
قوما ألا يعلموا تعليما آخر، ولا يصيخوا إلى خرافات وأنساب لا حد لها تسبب
مباحثات دون بنیان الله الذي في الإيمان، وأما غاية الوصية فهي المحبة من
قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء، الأمور التي إذ زاغ قوم عنها انحرفوا
إلى كلام باطل يريدون أن يكونوا معلمي الناموس وهم لا يفهمون ما يقولون
ولا ما يقررونه (١).

ويقول له في موضع آخر:
إن كان أحد يعلم تعليما آخر فقد تصلف وهو لا يفهم شيئا، بل هو متعلل
مباحثات ومماحكات الكلام التي منها يحصل الحسد والخصام والافتراء والظنون
الردية، ومنازعات أناس فاسدي الذهن وعادمي الحق يظنون أن التقوى
تجارة تجنب مثل هؤلاء (٢).
ويختتم بولس هذه الرسالة بقوله:

ياتيموثاوس، احفظ الوديعه معرضا عن الكلام الباطل الدنس ومخالفات
العلم الكاذب الاسم، الذي إذ تظاهر به قوم زاغوا من جهة الإيمان (٣).
وفي رسالته الثانية لتيموثاوس يقول له:
والمباحثات الغبية والسخيفة أجتنبها عالما أنها تولد خصومات (٤).

وفي رسالته إلى الفلبينيين يقول:
أرجو في الرب يسوع أن أرسل لكم سريعا تيموثاوس لكي تطيب نفسي
إذا عرفت أحوالكم، لأن ليس لي أحد آخر نظير نفسي يهتم بأحوالكم

(١) تيموثاوس الأولى ١: ٣ - ٧.

(٢) تيموثاوس الأولى ٦: ٣ - ٥.

(٣) المرجع السابق ٦: ٢٠ - ٣٤ -.

(٤) ٢ - ٢٣.

بإخلاص، إذ الجميع يطلبون ما هو لأنفسهم لا ما هو ليسوع المسيح (١).
وفي رسالته إلى تيطس يقول:

يجب أن يكون الأسقف ملازماً للكلمة الصادقة التي بحسب التعليم لكي
يكون قادراً أن يعظ بالتعليم الصحيح ويوبخ المناقضين، فإنه يوجد كثيرون
متمردين يتكلمون بالباطل ويدعون العقول ولا سيما الذين يقولون بالختان
الذين يجب سد أفواههم، فإنهم يقبلون بيوتا بجملتها، معلمين ما لا يجب من
أجل الربح القبيح (٢).

وفي رسالته إلى الكولوسييين يقول:

يسلم عليكم أرسترخس ومرقس ويسوع المدعو يسطس الذين هم من
الختان. هؤلاء هم وحدهم العاملون معي لملكوت الله (٣).

وقد انضم إلى بولس في هذا الهجوم تلميذه الحبيب لوقا، وقد سبق
الحديث عنه، وهناك رسائل ثلاثة تنسب إلى يوحنا وفيها هجوم مماثل على
مخالفتي بولس الذين قاوموا أفكاره، وأغلب الظن أن هذه الرسائل وضعت
باسم يوحنا ولم يكتب يوحنا منها حرفاً واحداً، وربما ارتفع هذا الظن إلى
اليقين لو تعمقنا في دراسة أسلوب هذه الرسائل وأفكارها وقارناها بأسلوب
بولس وأفكاره، وهذه الدراسة تقودني للقول بأن رسائل بولس والرسائل
المنسوبة إلى يوحنا صدرت من معين واحد، وأنا أدعو القارئ لمطالعة هذه
الرسائل بأناة، وأغلب الظن أنه سيصل إلى نفس النتيجة.

وعلى كل حال فإن صح هذا التقدير أمكن ضم هذه الرسائل إلى رسائل
بولس، وإن لم يصح فيوحنا كان مثل لوقا سار على نهج بولس وتفكيره،
تعال بنا نقتبس من هذه الرسائل نماذج من هجومها على مخالفتي بولس.

(١) رسالة إلى فيلبي ٢: ١٩ - ٣١.

(٢) رسالة إلى تيطس ١: ٩ - ١١.

(٣) رسالة إلى الكولوسييين ٤: ١٠ - ١١.

فمن رسالته الأولى:
سمعتم أن ضد المسيح يأتي، قد صار الآن أضداد للمسيح، منا خرجوا
لكنهم لم يكونوا منا، لأنهم لو كانوا منا لبقوا معنا... من هو الكذاب
إلا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح، هذا هو ضد المسيح الذي ينكر الأب
والابن، كل من ينكر الابن ليس له الأب أيضا، ومن يعترف بالابن فله
الأب أيضا، احذروا الذين يضلونكم (١).

ومن رسالته الثانية:

قد دخل إلى العالم مضلون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتيا في
الجسد، هذا هو المضل والضد للمسيح، انظروا إلى أنفسكم لئلا نضيع ما عملناه،
كل من تعدى ولم يثبت في تعليم المسيح فليس له الله، ومن يثبت في تعليم المسيح
فهذا له الأب والابن جميعا، إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم فلا
تقبلوه في البيت، ولا تقولوا له سلام، لأن من يسلم عليه يشترك في أعماله
الشريرة (٢).

ومن رسالته الثالثة:

كتبت إلى الكنيسة ولكن ديوتريفس لا يقبلنا، ومن أجل ذلك
إذا جئت فسأذكره بأعماله التي يعملها هاذرا علينا بأقوال خبيثة، وإذ هو غير
مكتف بهذه الأقوال لا يقبل أتباعنا ويمنعهم ويطردهم من الكنيسة (٣).
وبعد، نريد أن نتقل إلى موضوع هام جدا، هو:
ماذا عمل الحواريون؟

ما هو موقف المسيحيين الحقيقيين؟

ما هو هذا التعليم الذي حذر منه بولس ويوحنا؟

(١) يوحنا الأولى ٦: ١٨ وما بعدها.

(٢) يوحنا الثانية ٧ - ١١.

(٣) يوحنا الثالثة ٩ - ١٠.

ماذا كتب هؤلاء الذين قال عنهم يوحنا إنهم ينكرون الابن ولا يعترفون
بألوهيته؟
هل يمكن أن هؤلاء جميعا لم يكتبوا شيئا؟ ولم يشرحوا آراءهم ولم يدافعوا
عن اعتقاداتهم؟
الإجابة التي هي يقين لا يحتمل شكاً، وعلم لا يحتمل ظناً، أن هؤلاء
كتبوا وتكلموا وناضلوا، وهذا واضح تمام الوضوح من كلام بولس ويوحنا.
ولكن أين ما كتبوه؟ وأين أحاديثهم وشروحهم ودفاعهم عن آرائهم؟
الجواب أنه ليس في أيدينا شيء، فلا بد أن يكون قد ضاع ودمرته
يد الطغيان والغوغاء في العصور المظلمة كما دمرت إنجيل عيسى، أو قل إن بعض
ما كتبه هؤلاء ربما استطاع أن ينجو من التدمير، وأخفاه ذووه وتوارثه
الأبناء والأحفاد حتى ظهر مجمع نيقية حيث تقرر أن يختار الكتاب المقدس
للمسيحيين فقدمه أصحابه للمجتمعين، ولكن القائلين بالتوحيد وهم الأغلبية
الساحقة بهذا المجمع غلبوا على أمرهم، وانعقد المجمع بدونهم في أقلية تقول بألوهية
المسيح واتخذت قراراً بذلك كما سنرى فيما بعد، وهؤلاء الذين قالوا بألوهية المسيح
هم الذين اختاروا من بين الأناجيل والرسائل الموجودة ما لا يعارض هذا القرار
وقضوا على سواها بالفناء كما سنرى عند الكلام عن الكتاب المقدس، ولم
يظهر لنا من الثروة التي قضى عليها بالدمار إلا إنجيل برنابا، وقد كشف في القرن
الثامن عشر، وذكر برنابا أنه ألف إنجيله ليرد على الضلالات التي يذيعها بعض
الناس ومنهم بولس، وسيأتي حديث خاص عن برنابا وإنجيله فيما بعد.
ومرت حقبة من الزمن انهزمت فيها مبادئ عيسى وفني حوار يوه، وضاع
التراث الفكري الذي خلفوه أو اختفى، وتم النصر لأفكار بولس أو رجح
النصر، وبخاصة عندما أيدت القوة الرومانية في مطلع القرن الرابع هذا الاتجاه

وحاربت ما سواه كما سيأتي شرحه، ولكن الحق كله لم يختف، بل ظل من حين إلى آخر يبرق فتعشى العيون التي تكره النور، وأغلب الظن أن الحق سيكون له النصر في النهاية، وسيكون له الفوز في آخر المطاف.

بولس ومصادر المسيحية:

سيأتي الحديث فيما بعد عن مصادر المسيحية، ولكننا هنا نتحدث عن علاقتها ببولس، وهذه المصادر قسمان قسم يعرف بالأسفار التاريخية وذلك يشمل الأناجيل الأربعة التي وصفت حياة عيسى وتحديثت عن معجزاته وعظاته كما يشمل كذلك رسالة أعمال الرسل، وقسم يعرف بالأسفار التعليمية وهو يشمل الرسائل الأخرى التي توضح تعاليم المسيحية ومبادئها وشعائرها وقوانينها. وهناك رأي هام سنوضحه عند الحديث عن هذه المصادر، وإجماله هنا أن هذه المصادر بقسميها من عمل بولس أو من عمل أتباعه وليست الأسماء الموضوعة عليها إلا أسماء مستعارة غير حقيقية (١).

وأحب هنا أن أتجه بدراستي اتجاهها هو إلى العلم أقرب منه إلى الظن، وعناصر هذا الاتجاه هي:

١ - الأناجيل والأبحاث التي تعارض اتجاه بولس فنيت إلى الأبد، وفي قمتها إنجيل المسيح ثم ما كتبه الحواريون كما أشرنا سابقا.

٢ - ما لم تظهر فيه معارضة لأفكار بولس كإنجيل متي وإنجيل مرقس حفظ من أن يسلم إلى الفناء وليس مستبعدا أنه دخله بعض التغيير من أنصار بولس بالحذف أو الزيادة وبخاصة عند ترجمته من الآرامية إلى لغات الأمم التي دعاها بولس للمسيحية.

(١) دائرة المعارف الفرنسية ج ٥ ص ١١٧.

٣ - أما إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا والرسائل فهي بولسية كلها أي منسوبة إلى بولس وأتباعه بلا شك، وإذا تذكرنا ما أوردناه آنفا من التعاون الكامل بين بولس ولوقا ويوحنا أدركنا أن الجمهرة الساحقة من هذه المصادر من عمل بولس وتلاميذه، فهناك إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا وهناك أربع عشرة رسالة من عمل بولس وثلاث من عمل يوحنا وهناك رؤيا يوحنا ورسالة أعمال الرسل وهي من وضع لوقا ونتيجة ذلك أن الجزء الأكبر - إن لم يكن الكل - من مصادر المسيحية ذو صلة كبيرة بقلم بولس وجنانه، ومن وضعه أو من وضع مريديه.

بقي من المصادر رسالة هامة كتبها يعقوب، وهي طراز وحدها، وعجيب أن أفلتت من التدمير واستطاعت أن تأخذ مكانها في العهد الجديد، والذي يقرأ هذه الرسالة يدرك أنه أمام أسلوب جديد وأفكار جديدة، ليس بها حديث عن ألوهية المسيح ولا عن أنه نزل ليقدّم نفسه فداءً لخطيئة البشر، ولا أنه قام من الأموات وجلس على يمين أبيه، ولا طعن في غيره من المسيحيين وإيعاز بهم، بل عظة هادئة، وأمثال سهلة التناول دون صناعة أو زخرفة أو ثورة. ومن قول يعقوب نقتبس السطور التالية:

- لا يذم بعضكم بعضاً أيها الإخوة. الذي يذم أخاه ويدين أخاه يذم الناموس ويدين الناموس، واحد هو واضع الناموس القادر أن يخلص ويهلك، فمن أنت يا من تدين غيرك؟

- علم الآن أيها القائلون نذهب اليوم أو غداً إلى هذه المدينة أو تلك وهناك نصرف سنة واحدة ونتجر ونربح، أنتم الذين لا تعرفون أمر الغد. لأنه ما هي حياتكم؟ بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل، عوض أن تقولوا إن شاء الرب وعشنا نفعل هذا أو ذاك، وأما الآن فإنكم

تفتخرون في تعظمكم. كل افتخار مثل هذا رديء، فمن يعرف أن يعمل حسنا ولا يعمل فذلك خطية له (١)).

تلك رسالة فريدة بين رسائل وأناجيل العهد الجديد، وربما كان في أصولها الأولى معارضة واضحة لآراء بولس، ولكن ذلك الشيء اختفى وبقي قائما جانب الوعظ السلبي الهادئ.

والخلاصة الواضحة أن مصادر المسيحية الموجودة الآن هي أو أكثريتها الساحقة من عمل بولس أو من عمل مردييه، وما سوى ذلك فقليل، ويبدو أن يدا لعبت بذلك القليل فتركته لا يؤيد ولا يعارض كما رأينا في رسالة يعقوب وفي إنجيل متي.

بولس والتشريع في المسيحية:

قلنا أنفا إن الرسائل تسمى (الأسفار التعليمية) وقد كتب بولس وحده أربع عشرة رسالة وهي وحدها تمثل في حجمها خمسة أسداس الرسائل جميعا، ويمكن القول دون تردد إن رسائل بولس هي وحدها مصدر التشريع في المسيحية، وإن التشريعات التي وردت في الرسائل الأخرى كانت تكرارا وصدى لآراء بولس وتشريعاته.

وعلى هذا لم يكتف بولس بأن يضع مبادئ المسيحية وشعائرها بل شرع قوانين للمسيحيين يتبعونها في حياتهم العامة، فهو الذي أوصى بما نراه اليوم في الكنائس من التسايح والأغاني الروحية والمزامير والتراتيل (٢)، وهو الذي يقول بعدم وجوب الختان ويدلل على ذلك بقوله (دعي أحد وهو مختون فلا يصير أغلف، ودعي أحد في الغرلة فلا يختن، ليس الختان شيئا وليست الغرلة شيئا بل حفظ وصايا الله (٣)). ويجيز بولس

(١) رسالة يعقوب ٤: ١١ - ١٧.

(٢) إفسس ٥: ١٩.

(٣) كورنثوس الأولى ٧: ١٢ - ١٩.

الزواج للأساقفة بقوله: (يجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعل امرأة واحدة، وليكن الشمامسة كل بعل امرأة واحدة (١) (ويتكلم بولس عن العلاقة بين الزوج والزوجة وعن واجب الزوجة، ويقرر بوضوح أن الرجل أفضل من المرأة وأنها خلقت من أجله، وفيما يلي بعض فقرات من رسائله عن هذا الموضوع:

- أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح، وأما رأس المرأة فهو الرجل، ورأس المسيح هو الله... الرجل لا ينبغي أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده، وأما المرأة فتغطي رأسها لأنها مجد الرجل، والرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل، لأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل (٢)).

- أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب، لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضا هو رأس الكنيسة، أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها (٣)).

- لتصمت نساءكم في الكنائس لأنه ليس مأذونا لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضا، ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئا فليساألن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالمرأة أن تتكلم في الكنيسة (٤)).
ينهى بولس عن السرقة والزنا والكذب والسب والسفاهة والطمع والهزل وعبادة الأوثان (٥).

وقبل أن نترك موقف بولس من التشريع نوضح أنه أحيانا كان ينسب آراءه إلى عيسى، وكان أحيانا يعترف بأنه يشرع من عنده هو

(١) تيموثاوس الأولى: الإصحاح الثالث.

(٢) كورنثوس الأولى ١١: ٣ - ١٠

(٣) إفسس ٥: ٢٢ - ٢٤.

(٤) كورنثوس الأولى ١٤: ٣٤ - ٣٥

(٥) اقرأ رسالته إلى الإفسسيين ٤: ٢٥ - ٢٩ و ٥: ٣ - ٥.

وبرأيه هو، وفي ذلك يقول: (أما المتزوجون فأوصيهم لا أنا بل الرب ألا تفارق المرأة زوجها..... وأما الباقون فأقول لهم أنا لا الرب...: وأما العذارى فليس عندي أمر من الرب فيهن ولكني أعطي رأيا... (١)).
بولس والمسيحية:

وبعد هذه الدراسة الموجزة الشاملة نسأل أنفسنا سؤالاً خطيراً هو: ماذا أراد بولس بالمسيحية؟ لقد أحدث بولس في المسيحية أحداثاً خطيرة، نقلها من ديانة إلى بني إسرائيل إلى ديانة عالمية، نقلها من التوحيد إلى التثليث، قال بألوهية المسيح وألوهية الروح القدس، اخترع قصة الفداء للتكفير عن خطيئة البشر، ألغى المعالم التي نادى بها عيسى نفسه كالختان وعدم أكل لحم الخنزير. وفي كلمة واحدة خلق دينا جديدا كما سبق القول وسلب له كلمة المسيحية فوضعها عليه، وطمس بذلك الديانة المسيحية الحقيقية. لماذا كل هذا؟ وماذا أراد بولس بالمسيحية؟ يرى كثير من الباحثين أن عداوة بولس للمسيحية هي التي دفعته ليتظاهر بالدخول فيها ليستمر في حربها بسلاح جديد، سلاح التهديد من الداخل بإفساد معالمها وطمس مظاهرها ومسحها، فهو قد دخلها في الظاهر ليأخذ من اعتناقه الظاهري لها سلاحاً يطعن بها، ومثل هذا كثير في تاريخ الأديان، وفي الإسلام كثيرون من هذا النوع من أشهرهم عبد الله بن سبأ اليهودي الذي تظاهر بالإسلام وأشعل فيه من الثورات ونشر من المبادئ الفاسدة ما كان يعجز عن عمل جزء قليل منه لو ظل يعلن يهوديته،

(١) كورنثوس الأولى الإصحاح السابع الفقرات ١٠، ١٢، ٢٥.

ولكن أفكار عبد الله بن سبأ لم تستطع أن تعيش وتنمو كما عاشت ونمت أفكار بولس، ذلك لأن القرآن كان محفوظا ومكتوبا وهو خير حارس للإسلام، أما إنجيل عيسى فضاغ بين طيات الأحداث، فلم يكن للمسيحية عماد يحميها من هذه الصدمات العنيفة التي أنزلها بها أعداء من الداخل وأعداء من الخارج، فخرت مسيحية عيسى وقامت على أنقاضها مسيحية بولس.

المسيحية في نظر المسيحيين
بعد هذا البيان الشامل الذي أوردناه عن بولس نستطيع أن نعود إلى
أسس العقيدة المسيحية اليوم وهي:

١ - التثليث.

٢ - تجسد الابن وظهوره بمظهر البشر ليصلب تكفيرا للخطيئة التي
ارتكبها أبو البشر.

٣ - أن الإله الأب (١) ترك للإله الابن حساب الناس على خطاياهم،
فالإله الابن - لأنه حينما ظهر بمظهر الإنسان - أقرب لفهم بني الإنسان.
وهناك عبارة دقيقة للمؤرخ الشهير Wells تستنكر كل هذه المبادئ
وما سيأتي ذكره من شعائر، وترى أنها جميعا موضوعة ولا سند لها من
الأناجيل، ويجدر بنا أن نورد عبارة Wells هنا لأنها مرتبطة بكل المبادئ
والشعائر، ولنذكرها إجمالا قبل أن نتحدث عن كل من هذه المبادئ على
حدة، يقول Wells: من العسير أن تجد أية كلمة تنسب فعلا إلى عيسى
فسر فيها مبادئ الكفارة، والفداء، أو حض فيها أتباعه على تقديم القرابين
أو اصطناع عشاء رباني (٢).

وسنعطي بعض التفاصيل عن أسس هذه العقيدة:

١ - التثليث في المسيحية:

نستميح القارئ العفو إذا صدرنا حديثنا عن التثليث بخرافة نقلها من

(١) الآب بمد الهمزة في اللغة السريانية معناه الله ولكن النصارى عندما ترجموا العهد
الجديد للغة العربية أبقوا المدة مع أن مقصودهم ما يقابل الابن، لتصحيحها أن تكتب من
غير مد (اقرأ الإنجيل والصليب لعبد الأحد داود ص ٨ بالهامش).

(٢) .٦٨٢ . P. Outline of History vol I

مسيحي واسع الاطلاع، مفروض فيه عمق الفكر ودقة التعبير، ولكنها موضوعات المسيحية يزل فيها كل مسيحي يريد أن يتمسك بها ويعلل لها، والاقْتباس الذي ننقله فيما يلي هو حديث عن (سر الثالوث) وهاك نصه:
(من الناس من يقولون: لم يا ترى إله واحد في ثلاثة أقانيم؟ أوليس في تعدد الأقانيم انتقاص لقدر الله؟ أوليس من الأفضل أن يقال: الله أحد وحسب؟

(لكننا إذا اطلعنا على كنه الله لا يسعنا إلا القول بالتثليث، وكنه الله محبة (يوحنا الأولى ٤ : ١٦) ولا يمكن إلا أن يكون محبة، ليكون سعيدا، فالمحبة هي مصدر سعادة الله، ومن طبع المحبة أن تفيض وتنتشر على شخص آخر فيضان الماء وانتشار النور، فهي إذن تفترض شخصين على الأقل يتحابان، وتفترض مع ذلك وحدة تامة بينهما. فليكون الله سعيدا - ولا معنى لإله غير سعيد وإلا انتفت عنه الألوهية - كان عليه أن يهب ذاته شخصا آخر يجد فيه سعادته ومنتهى رغباته، ويكون بالتالي صورة ناطقة له، ولهذا ولد الله الابن منذ الأزل نتيجة لحبه إياه، ووهبه ذاته، ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته، وبادل الابن الأب هذه المحبة ووجد فيه هو أيضا سعادته ومنتهى رغباته. وثمره هذه المحبة المتبادلة بين الأب والابن كانت الروح القدس. هو الحب إذا يجعل الله ثلوثا وواحدا معا.

(ولا يصح أن يكون هذا الكائن الذي حبس الله الأب محبته عليه إلا الابن، ولو كان غير الابن، ولو كان خليقة محدودة، بشرا أو ملاكا، لكان الله بحاجة إلى من دونه كمالا، وعد ذلك نقصا في الله، والله منزه عن النقص، فتحتم إذا على الله والحالة هذه أن يحبس محبته على ذاته فيجد

فيها سعادته لهذا يقول بولس الرسول: إن الابن هو صورة الله الغير المنظور وبكر كل خلق (كولوس ١ : ١٥).
(ليس الله إذا كائنا تائها في الفضاء، منعزلا في السماء، لكنه أسرة مؤلفة من أقانيم ثلاثة تسودها المحبة وتفيض منها على الكون براءته، وهكذا يمكننا أن نقول إن كنه الله يفرض هذا التثليث (٢)) ٥١.
مرة أخرى ليس هذا القول إلا خرافة لا تستحق التعليق.
وهل يقول المسيحيون بالتثليث أو يقولون بالوحدانية؟ سؤال يصعب الجواب عليه، إنهم يقولون: تثليث في وحدانية، ووحدانية في تثليث. ما معنى هذا؟ وما دوافع هذا التعقيد؟ سنعود إلى ذلك فيما بعد بالإيضاح، ولكننا هنا نثبت أن هناك موضوعين مختلفين وإن ظهرا قبل التعمق أنهما موضوع واحد، وهذان الموضوعان هما:

(١) التثليث.

(ب) ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس.
والموضوع الأول أقدم وجودا، أي أن الاعتقاد بالتثليث ظهر قبل القول بألوهية المسيح وقبل القول بألوهية الروح القدس.
قد يكون العكس هو الطبيعي، أي أن تثبت لدى المسيحيين ألوهية المسيح فينتقلوا من الوحدانية إلى الثنوية، ثم تثبت لهم ألوهية الروح القدس فينتقلوا من الثنوية إلى التثليث، أو تثبت لهم ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس دفعة واحدة فينتقلوا من الوحدانية للتثليث دفعة واحدة. قد يكون ذلك هو الطبيعي، ولكن الواقع غير ذلك، الواقع أن التثليث كجملة ظهر أولا عند المسيحيين، أخذوه من الثقافات المحيطة بهم، تلك الثقافات التي أثرت على مسيحية بولس ونقلتها - كما سيأتي - إلى عبادة ثالوث مقدس، فأصبحت هذه الحقيقة

(١) الأب بولس إلياس اليسوعي: يسوع المسيح ص ٧٦ - ٧٧.

مسلمًا بها، وأصبح الاتجاه العام وبخاصة بين الجماهير هو الإيمان بثالوث مقدس قريب الشبه بالثالوث الذي كانوا يؤمنون به قبل أن يدخلوا المسيحية. ولكن الإيمان بهذا الثالوث خلق لهم مشكلة، تلك هي محاولة التوفيق بين الوحدانية التي هي سمة الأديان السماوية، والتي قالت بها التوراة بصراحة، وبين القول بعبادة الثالوث، وحينئذ جد جدهم، وجندوا جنودهم، وأعملوا عقولهم وقالوا كلامًا يوفقون به بين الوحدانية والتثليث، ولكنهم عندما قالوا ذلك لم يكونوا يقنعون به، وصرحوا بعدم اقتناعهم أحيانًا كما سيأتي، ولكن على كل حال لم يكن بد من الاستمرار في القول بالتثليث وافق العقل أو لم يوافق. وعندما ثبت القول بالتثليث بدأت المرحلة الثانية، مرحلة البحث عن أفراد هذا الثالوث. وكان من اللازم - في البحث عن هذا الثالوث - أن يكون الله جل جلاله أول هذا الثالوث، ذلك لأن المسيحية ديانة سماوية الأصل، وهي وليدة اليهودية، والتوراة كتاب مقدس عند المسيحيين وهي تقول بالوحدانية، وقد أشاد عيسى بالله وأفاض في الشناء عليه، وكل هذا جعل من اللازم الاعتراف بالله، وبدأ المسيحيون بعد هذا يبحثون عن الإلهين الآخرين، فقالوا بألوهية المسيح فأصبح ثاني الآلهة، ثم قالوا بألوهية الروح القدس، لأنهم كانوا يريدون أن يدعوا الصلة بالله وتلقي العلم منه فقالوا بألوهية الروح القدس وأنه ينزل عليهم ويمتلئون به ويعرفون بواسطته ما لا يعرف البشر، فأصبح الروح القدس بذلك ثالث الآلهة، وتم بذلك الثالوث الذي يريدون.

وستتبع في دراستنا نفس الخطوات التاريخية التي مر بها المسيحيون للأخذ بهذه العقيدة، فتكلم أولاً عن عقيدة التثليث ومحاولتهم إثباتها، ثم نتبعهم وهم يبحثون عن أفراد هذا الثالوث، فيحاولون إثبات ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس.

تعدد الآلهة وعقيدة التثليث:

أما موضوع تعدد الآلهة فموضوع يكاد يكون عاما في جميع الثقافات القديمة، قال به المصريون القدماء، وقال به الآشوريون والبابليون والفرس والهنود والصينيون واليونان على اختلاف في عدد الآلهة ومكانتهم، واختلاف في تصور صلة الآلهة بعضهم ببعض، أوصلتهم بالبشر (١).

أما التثليث فلعله كان تحديدا لهذا التعدد الذي بولغ فيه أحيانا، ويمكن القول بأن تحديد الآلهة بثلاثة عمل له صلة بعبادة الأبطال، تلك العبادة التي بدأت منذ فجر التاريخ والتي لا يزال لها بقايا في عالمنا الحاضر (٢)، وارتباط التثليث بعبادة الأبطال مرجعه أن الجماهير كانت تعبد البطل لعمل رائع قام به، ثم يتخذ البطل له زوجة فتحتل معه مكان الألوهية، وتسجد لهما الجماهير، وينجب الزوجان، ويعين البطل أحد أبنائه ليتولى مكانه فيما بعد، فتسجد له الجماهير أيضا، ويتم بذلك الثالث.

تلك هي الفكرة الأولى للتثليث، ثم انطلق التثليث فلم يعد يتقيد بهذه الفكرة، وأصبح الثالث معبودا معروفا لكثير من الأمم.

ولعل البابليين هم أول من قال بالثالث وذلك في الألف الرابع قبل الميلاد، فقد كان البابليون يدينون بتعدد الآلهة، ولكنهم نظموا هؤلاء الآلهة أثلاثا أي جعلوها مجموعات متميزة المكانة والقدرة، كل مجموعة ثلاثة، فكانت المجموعة الأولى على رأس الآلهة وتتكون هذه المجموعة

(١) أنظر تاريخ الفلسفة للدكتور إبراهيم مذكور ص ٦ - ١٩.
(٢) أنظر الأبطال وعبادة البطولة لكارليل في أمكنة متعددة.

من إله السماء، وإله الأرض، وإله البحر، أما المجموعة الثانية فإله القمر وإله الشمس وإله العدالة والتشريع (١).

وبينما كان البابليون يقولون بالتثليث كان المصريون والإسرائيليون - والطائفتان أعرق في الحضارة الدينية من البابليين - يقولون بالتوحيد (٢). ومن نشيد آمون: (الإله الجليل سيد الآلهة أجمعين، الإله الأكبر الذي يحيا بالحق، الواحد الفرد الذي صنع كل ما هو موجود).

ووقفت حضارات أخرى أقدم جدا من المسيحية بين بين، بين التعدد الذي قال به البابليون وبين التوحيد الذي قال به المصريون والإسرائيليون، فظهرت بدعة التعدد في وحدة والوحدة في تعدد، وقد قال بها الهنود قبل المسيح بأكثر من ألف عام، فقد كان عندهم (براهما) و (فشنو) و (سيفا) وكانوا يعبدونها ثلاثة جوانب لإله واحد أو كانوا يعبدون (براهما) واحدا له ثلاثة أقانيم، فهو (براهما) من حيث هو موجود، وهو (فشنو) من حيث هو حافظ، وهو (سيفا) من حيث هو مهلك (٣).

واتجهت مدرسة الإسكندرية نفس الاتجاه، يقول Wells: وبعد الفتح الإغريقي أصبحت مدينة الإسكندرية الجديدة مركزا لحياة مصر الدينية، بل أصبحت في الحق مركز الحياة الدينية للعالم الهليني كافة، فأقام بطليموس الأول معبدا عظيما هو معبد السرايوم كان يعبد فيه نوع ما من ثلوث الأرباب مكون من سيرابيس وإيزيس وحورس، ولم يكن الناس يعبدونها أربابا منفصلة بل هيئات ثلاثا لإله واحد (٤).

(١) الدكتور مدكور: تاريخ الفلسفة ص ٦.

(٢) القول بالتوحيد هنا لا يتناقض مع ما ذكرناه عن المصريين من قبل من القول بتعدد الآلهة. إذ أن هناك تعددا ولكن هناك كبير الآلهة.

(٣) أديان الهند الكبرى للمؤلف ص ٤٨.

(٤) A Bhort History of the World P . ١٦٦ .

عودة إلى التثليث في المسيحية:
لقد سرنا مع عقيدة التثليث منذ العهد البدائي، منذ عبادة الأبطال حتى مدرسة الإسكندرية التي قامت عقب إنشاء مدينة الإسكندرية سنة ٣٣١ ق م وورثت حضارات مختلفة وقام بها علماء مصريون وساميون ويونان، ورومان، وعرفت اليهودية طريقها إليها كما انسابت إليها أفكار وثنية كثيرة، وقد استمرت هذه المدرسة تباشر مكانتها الثقافية حتى ميلاد المسيح وبعد ميلاد المسيح، ومن أشهر علمائها (أفلوطين ٢٠٥ - ٢٧٠ م) وعلى يده كان تجديد مذهب أفلاطون حتى عرف مذهب أفلاطون بالأفلاطونية الحديثة، وخلاصة مذهب أفلوطين أن في قمة الوجود، يوجد (الواحد) أو (الأول) وهو جوهر كامل فياض، وفيضه يحدث شيئاً غيره هو (العقل) وهو شبيه به، وهو كذلك مبدأ الوجود، وهو يفيض بدوره فيحدث صورة منه هي (النفس) وتفيض النفس فتصدر عنها الكواكب والبشر (١). أو بعبارة سهلة موجزة ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة: (الواحد - العقل - النفس).
كيف انتقلت هذه الأفكار إلى المسيحية؟
الجواب على ذلك سهل يسير، فقد مرت بالمسيحية عهود ضعف واضطهاد تحدثنا عنها فيما سبق، وطبيعة هذه الهزائم أضعفت المقاومة، وقضت أن يستتر المسيحيون، أو على الأقل يكتموا تدينهم بين أضلاعهم فلا يعرفه أحد، وامتد الاضطهاد إلى إنجيل عيسى فالتهمه وقضى عليه، وهكذا فقدت المسيحية كثيراً من رجالها في قمتهم المسيح نفسه، وفقدت أكثر مراجعها الأصلية، فأصبح مصدر المسيحية واهنا أو معدوماً.
ودخل بولس المسيحية كما سبق وكان عارفاً بالفلسفة الإغريقية التي

(١) الدكتور المذكور ص ٦٥.

تمثلها مدرسة الإسكندرية ووجد بولس الميدان خالياً، واستخف الطرب بعض المسيحيين لأن بولس عدو المسيحية اللدود قد انتسب إليها، وبدأ بولس يضع البذور التي نقل بها المسيحية من الوجدانية إلى التثليث (١)، ووافقت فكرة التثليث الجماهير، وكانت الجماهير قد نفرت من اليهودية لتعصبها، ومن الوثنية لبدائيتها، فوجدت في الدين الجديد ملجأ لها وبخاصة أنه أصبح غير بعيد عن معارفهم السابقة التي ألفوها وورثوها عن آبائهم وأجدادهم. ولم يقفل هذا الباب بعد بولس بل ظل مفتوحاً، واستطاع بعض أتباع بولس أن يصيروا من آباء الكنيسة وذوي الرأي فيها، وتم امتزاج تقريبا بين آراء مدرسة الإسكندرية وبين المسيحية الجديدة، ويقول ليون جوتيه (Gauthier): (إن المسيحية تشربت كثيرا من الآراء والأفكار الفلسفية اليونانية، فاللاهوت المسيحي مقتبس من نفس المعين الذي صبت فيه الأفلاطونية الحديثة، ولذا نجد بينهما مشابهاً كثيرة) (٢).

والآن بعد القول بالثالوث بقي على المسيحيين أن يجدوا حلاً للأمر الآتية:

- ١ - ما الطريق للتوفيق بين التوراة التي تقول بالوجدانية والتي يقدسها المسيحيون، وبين التثليث الذي اعتنقه المسيحيون؟
- ٢ - ما وظيفة كل من أفراد هذا الثالوث؟
- ٣ - كيف يتم فهم (وحدة في تثليث، وتثليث في وحدة)؟
- ٤ - يقولون الابن مولود غير مخلوق، والابن ليس أحدث من الأب. فما معنى هذا؟

(١) أنظر أعمال الرسل. الإصحاح التاسع.
(٢) المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص ٩٣.

لقد حاولت جهدي أن أصل إلى جواب لهذه الأسئلة عن طريق القراءة أو المحادثة مع المسيحيين، ولكنني أقرر أنني لم أستطع فهم إجاباتهم، بل صرح كثير منهم - كما سيرد في كتاباتهم - أن هذه المسائل مسائل اعتقاد لا فهم. فاعترضت بأنها مسائل أساسية، وهي المدخل للدين فكيف لا تفهم؟ ولكنني لم أتلق جواباً على اعتراضي. واتبع بعضهم التعبيرات الإنشائية التي لا توضح مقصوداً، كقول بعضهم (المحبة السرية التي بين المسيح والله) وقول الآخر (كل ثروات الولاء والتعبد اختزنت في فكر يسوع المسيح عوناً على فهم حقيقة الله...) وغير ذلك مما سيرد فيما بعد، ولذلك فمن الخير أن أنقل للقارئ هذه الأقوال كاملة ليرى فيها رأيه.

١ - يقول الدكتور يوسف بوست في قاموس الكتاب المقدس (١): طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس، فالإب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير، غير أن الثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء.

٢ - ويقول William Patoun، إذا رمنا أن نفهم طبيعة الله في المسيحية، فهناك نراه: الله الذي عاش معه يسوع في صلة وثيقة لا تنفصم عراها، صلة الابن بالأب، وكل ثروات الولاء والتعبد التي خلفها كتاب العهد القديم، كلها اختزنت في فكر يسوع المسيح عوناً لنا على فهم حقيقة الله، فهو الإله الذي تفوق قداسته كل تصورات الإنسان، عيناه أطهرا من أن تريا الشر، هو خالق البشر والمسيطر على العالم، هو الأب، ويحمل هذا اللقب كل معاني العطف والمودة والحنان.

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ١٦.

ويسوع يعلن الأب لا في كلمات ينطق بها فقط، بل في حياته وشخصه،
وبينه وبين الأب علاقة سرية متينة الأواصر لم يستطع تلاميذه أن يتقصوا إلى
مكوناتها (أنا في الأب والأب في) (ومن رأني فقد رأى الأب) فإن
رمننا أن نعرف طبيعة الله، على قدر ما يستطيع الإنسان أن يعرف، فلا ندحة
عن الرجوع إلى شخص يسوع (١).

٣ - ويقول القس بولس سباط في ذلك ما يلي: يرى النصارى أن الباري
تعالى جوهر واحد، موصوف بصفات الكمال، وله ثلاث خواص ذاتية، كشف
المسيح عنها القناع وهي الأب والابن وروح القدس، ويشيرون بالجوهر الذي
يسمونه الباري ذا العقل المجرد إلى الأب، وبالجوهر نفسه الذي يسمونه ذا العقل
العقل ذاته (أي الذي يعقل ذاته) إلى الابن، وبالجوهر عينه الذي يسمونه
ذا العقل المعقول من ذاته إلى روح القدس، ويريدون بالجوهر ما قام بنفسه
مستغنيا عن الظرف (٢).

٤ - ويقول القس إبراهيم سعيد في تفسير بشارة لوقا (٣): يليق أن نوضح
بكلمات موجزة المعنى المراد (بابن العلي أو ابن الله) فلم يقصد بها ولادة طبيعية
ذاتية من الله، وإلا لقليل ولد الله، ولم يقصد بها ما يقال عادة عن المؤمنين جميعا
أنهم أبناء الله، لأن نسبة المسيح لله هي غير نسبة المؤمنين عامة لله، ولم يقصد بها
تفرقة في المقام من حيث الكبر والصغر ولا الزمنية ولا الجوهر، لكنه تعبير
يكشف لنا عمق المحبة السرية التي بين المسيح والله، وهي محبة متبادلة، وما المحبة
التي بين الأب والابن الطبيعيين سوى أثر من آثارها وشعاع ضئيل من بهاء
أنوارها، ويراد بها إظهار المسيح لنا أنه الشخص الوحيد الذي حاز رضا

(١) أديان العالم الكبرى ترجمة حبيب سعيد ص ١٠٤ و ١٠٨.

(٢) المشرع ص ١٣ - ١٤.

(٣) تفسير بشارة لوقا ص ٦٩ - ٧٠.

الله وأطاع وصاياه، فقبل الموت، موت الصليب، لذلك يقول الله فيه: هذا ابني الحبيب الذي به سررت، له اسمعوا. وقد تكررت هذه العبارة عدة مرات مدة خدمة المسيح على الأرض لأنه تم إرادة الله في الفداء. ويراد بها إظهار التشابه والتماثل في الذات وفي الصفات وفي الجوهر، كما يكون بين الأب والابن الطبيعيين، فقيل عن المسيح إنه بهاء الله ورسم جوهره، وقال هو عن نفسه: من رأي فقد رأى الآب، أنا والآب واحد، ويراد بها دوام شخصية المسيح باعتباره الوارث لكل شئ الذي منه وبه وله كل الأشياء، وقد يراد بها معان كثيرة غير معدودة يقصر دون إدراكها العقل.

٥ - ويقول القس بوطر (٢) موضحا الثالث ومبينا لماذا لم يظهر بوضوح الابن وروح القدس في التوراة ولا قال بهما اليهود: بعد ما خلق الله العالم، وتوج خليقته بالإنسان لبث حيناً من الدهر لا يعلن له سوى ما يختص بوحدانيته، كما يتبين ذلك من التوراة، على أن المدقق لا يزال يرى بين سطورها إشارات وراء الوحدانية، لأنك إذا قرأت فيها بامعان تجد هذه العبارات: (كلمة الله، أو حكمة الله، أو روح القدس) ولم يعلم من نزلت إليهم التوراة ما تكنه هذه الكلمات من المعاني لأنه لم يكن قد أتى الوقت المعين الذي قصد الله فيه إيضاها على وجه الكمال والتفصيل، ومع ذلك فمن يقرأ التوراة في ضوء الإنجيل يقف على المعنى المراد، إذ يجدها تشير إلى أقانيم في اللاهوت... ثم لما جاء المسيح إلى العالم أرانا بتعاليمه وأعماله المدونة في الإنجيل أن له نسبة أزلية سرية إلى الله تفوق الإدراك، فهو مسمى في أسفار اليهود (كلمة الله) وهي ذات العبارة المعلنة في التوراة، ثم لما صعد إلى السماء أرسل روحاً، ليسكن بين المؤمنين، وقد تبين أن بهذا الروح أيضاً نسبة أزلية إلى الله فائقة كما للابن ويسمى الروح المقدس،

(١) رسالة الأصول والفروع ص ٤٣ - ٤٥.

وهي ذات العبارة المعلنة في التوراة كما ذكرنا، ومما تقدم نعلم بجلاء أن المسمى بكلمة الله والمسمى بروح الله في نصوص التوراة هما المسيح والروح القدس المذكوران في الإنجيل، فما لمحت به التوراة صرح به الإنجيل كل التصريح، وأن وحدة الجوهر لا يناقضها تعدد الأقانيم (١)، وكل من أنار الله ذهنه وفتح قلبه في فهم الكتاب المقدس لا يقدر أن يفسر (الكلمة) بمجرد أمر من الله أو قول مفرد، ولا يفسر (الروح) بالقوى التأثيرية، بل لا بد له أن يعلم أن في اللاهوت ثلاثة أقانيم متساوية في الكمالات الإلهية، ومتميزة في الاسم والعمل، والكلمة والروح القدس اثنان منها، ويدعى الأقسام الأول الأب، ويظهر من هذه التسمية أنه مصدر كل الأشياء ومرجعها، وأن نسبته للكلمة ليست صورية، بل شخصية حقيقية، ويمثل للأفهام محبته الفائقة وحكمته الرائعة، ويدعى الأقسام الثاني الكلمة لأنه يعلن مشيئته بعبارة وافية، وأنه وسيط المخابرة بين الله والناس، ويدعى أيضا الابن، لأنه يمثل للعقل نسبة المحبة، والوحدة بينه وبين أبيه، وطاعته الكاملة لمشورته، وللتمييز بين نسبته هو إلى أبيه ونسبة كل الأشياء إليه، ويدعى الأقسام الثالث الروح القدس للدلالة على النسبة بينه وبين الأب والابن، وعلى عمله في تنوير أرواح البشر، وحثهم على طاعته، وبناء على ما تقدم يظهر جليا أن عبارة الابن لا تشير كما فهم بعضهم خطأ إلى ولادة بشرية، ولكنها نصف سرية فائقة بين أقنوم وآخر في اللاهوت الواحد، وإذا أراد الله أن يفهمنا تلك النسبة لم تكن هناك عبارة أنسب من الابن للدلالة على المحبة والوحدة في الذات، والإبانة للمشورة الإلهية، وأما من حيث الولادة البشرية فالله منزه عنها، ولأجل هذه الإيضاحات الجليلة

(١) يرد السيد عبد الأحد داود على دعوى أن الوحدة لا تنافي التثليث بقوله: تدعي الكنيسة أن الثالوث لم يتشكل من ثلاثة آلهة، ولكنها ما دامت تعترف بوجود نسبة بين الأقانيم، وأن لكل منها صفات وواجبات ليست للآخرين فمعنى هذا هو التغير وعدم الكمال لكل منها وحده، وصفة النقص هذه تنافي الألوهية (أنظر الإنجيل والصليب ص ٩).

علم خدام الدين المسيحي واللاهوتيون حسب ما قررته الكلمة الإلهية أن في اللاهوت ثلاثة أقانيم حسب نص الكلمة الأزلية، ولكل منهم عمل خاص في البشر.

ويختتم هذا المؤلف شرحه لعقيدة التثليث بقوله: قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاء في المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات وما في الأرض، وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية.

وذلك اعتراف هام من المؤلف بأن العقيدة لا يمكن فهمها على نطاق أكثر من هذا، وهو ينتظر يوم الكشف عن البصائر ليتمكن للبصيرة التي كشف عنها أن تدرك هذا الاعتقاد وتستسيغه، ونحن ننتظر معه، وإن كنا نعتقد أن هذا اليوم لن يجرى، وأنى يجرى يوم تلتقي فيه الوجدانية بالتثليث وتصبح فلسفة الإغريق ديناً يدعى أنه نزل من عند الله؟
* * *

وبعد، لقد رأى القارئ الصعوبات الجمة التي نجمت عن القول بالتثليث، وقد حاول المسيحيون - دون نتيجة - أن يجدوا لها حلاً، وقد طرقت حلولاً كثيرة نعود إلى إيجازها فيما يلي:

١ - التوفيق بين التوحيد في التوراة والتثليث عندهم، فقالوا إن التثليث موجود في التوراة، ولكنه غير واضح فوضحه العهد الجديد. وحاولوا أن يدللوا على ذلك كما رأيت آنفاً في كلام القس بوطر. وأحياناً يدركون أن ما في التوراة لا يساعدهم على القول بالتثليث وأن مثل ما قال به القس بوطر ظاهر الصنعة، فكانوا يلجئون إلى طريق آخر يوضحه لنا حبيب سعيد بقوله: قد يقال: هل في نظر المسيحية شيء ما يعدو حدود العهد القديم، أي دين اليهودية؟ وليس لهذا السؤال إلا جواب واحد، وجواب جد خطير، إلا وهو أننا

في الواقع نشرح العهد القديم في ضوء العهد الجديد (١). وهو بهذا كما ترى يحتم أن يوجه العهد القديم وجهة العهد الجديد، أو قل يجعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً.

٢ - عكس الحل السابق بأن حاولوا التوفيق بين التثليث عندهم والتوحيد في التوراة، فكأنهم سلموا بالتوحيد وراحوا يخضعون اعتقادهم له، ومن أجل هذا ابتدعوا قولهم (تثليث في وحدة) وفي ذلك يقول يوحنا في رسالته الأولى: (إن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الأب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد (٢)).

٣ - الطريق الثالث الذي لجئوا إليه هو إعلان عدم خضوع مثل هذا الاعتقاد إلى العقل، فقالوا إن هذا شيء يجب الإيمان به واعتقاده أولاً، وبعد ذلك يجتهد المسيحي في فهم ما اعتقد، كما قال بذلك القديس انسلم. ويقول حبيب سعيد إن الإنسان لن يبلغ هذا الإيمان عن طريق المطارحات النظرية، بل بإلهام من الله وإعلان منه (٣).

٤ - وقد اهتدى قليل منهم إلى الحل الصحيح وهو القول بالتوحيد الخالص وترك القول بالتثليث، وقد كان لهذا الرأي أتباع من المسيحيين على مدى العصور وفي مختلف البلاد، ومن هؤلاء برنابا وهو من الحواريين وأريوس المصري (٣٣١) وسرفيتوس الأسباني (١٥٥٣) ومن مشاهير الإنجليز نذكر شربري (Cherbury) المتوفى قبيل منتصف القرن السابع عشر وغير هؤلاء مئات أو آلاف من المفكرين المسيحيين ظهوروا في مختلف الأزمنة والأمكنة، ولكن صيحة هؤلاء لم تتغلب على ضجيج الكنيسة وقدسيتها، ولم تصل إلى قلوب العامة والجماهير. على أن القول بتثليث في وحدة أي بإله واحد له أقانيم ثلاثة يقود إلى

(١) أديان العالم الكبرى ص ١٠٧.

(٢) رسالة يوحنا الأولى: ٥ : ٢.

(٣) أديان العالم الكبرى ص ١٠٦.

مشكلة أخرى، هي: كيف انتزع أحد هذه الأقاليم الثلاثة ودخل رحم مريم ثم امتزج بالناسوت وأصبح إنسانا في مظهره؟ إلا يدل ذلك على تعدد ظاهر؟ لأن معبود النصرى لو كان واحدا له أقانيم ثلاثة لما أمكن خروج أحد هذه الأقانيم وحده ونزوله إلى الأرض... ولقد أدرك القس بولس سباط هذا الاعتراض فراح يقرر أن هذا الأقنوم مع نزوله إلى الأرض ظل أقنوما يمثل جانبا في الإله الواحد ولم ينفصل عنه حتى بعد اتحاده بالناسوت (١). وعندى أنه كلام يصعب الاقتناع به.

ألوهية المسيح:

بقي أن نسأل: متى بدأ اعتبار عيسى إلهًا؟ ومتى بدأ اعتبار روح القدس إلهًا؟

وقد سبق أن أوردنا إجابة عن السؤال الأول فيما اقتبسناه من كلام Wells و Berry وغيرهما، ولكننا ونحن بصدد إيضاح شامل لهذه المسألة نعود إلى Wells مرة أخرى فنورد عبارته كاملة عن هذا الموضوع، يقول Wells. G. H (كان القديس بولس من أعظم من أنشأوا المسيحية الحديثة وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يبشر الناس، وكان اسم بولس في الأصل شاول، وكان في بادئ الأمر من أبرز وأنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد، ثم اعتنق المسيحية فجأة، وغير اسمه فجعله بولس، وقد أوتي ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة، كما كان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية، فتراه على علم عظيم باليهودية والميتراسية وديانة ذلك الزمان التي تعتنقها الإسكندرية، فنقل إلى المسيحية كثيرا من أفكارهم ومصطلح تعبيرهم، ولم يهتم بتوسيع فكرة عيسى الأصلية وتنميتها، وهي فكرة (ملكوت السماوات) ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب،

(١) اقرأ المشرع ص ٤٠ - ٤١.

ولا زعيم اليهود الموعود فقط، بل إنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيرا عن خطيئة البشر. فموته كان تضحية مثل ممات الضحايا القديمة من الآلهة في أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشرية. (وقد استعارت المسيحية أشياء كثيرة من هذه الديانات كالقسيس الحليق وتقديم النذور والهيكل والشموع والتراتيل والتماثيل التي كانت لعقائد متراس والإسكندرية، بل تبنت أيضا حتى عباراتها في عباداتها وأفكارها اللاهوتية. (وراح القديس بولس يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة الذاهبة إلى أن شأن عيسى كشأن أوزوريس: كان ربا مات ليعث حيا وليمنح الناس الخلود) (١).

وهكذا وضع بولس بذرة ألوهية المسيح، وصادفت البذرة أرضا خصبة في عقول أولئك الذين لهم معرفة بالفلسفات والاتجاهات التي سبقت المسيحية، وساعد على نمو هذه الأفكار ما صادفه المسيحيون الأول من الاضطهادات المدمرة التي سبق أن تحدثنا عنها، تلك الاضطهادات التي التهمت كثيرا من مراجعهم وقضت على أتباع المسيحية الحقيقيين أو كادت، وقد استمرت هذه الاضطهادات أكثر من ثلاثة قرون (حتى سنة ٣١٣) وفي خلال هذه القرون فقدت المسيحية طابعها من كثرة ما تأثرت بالثقافات المختلفة بل بالخرافات المتعددة، وخرجت إلى الناس بعد هذه المدة وبعد تلك الأجيال وفيها تناقض ظاهر في كل تعاليمها، وأشد أنواع التناقض هو ما اتصل بالسيد المسيح نفسه، فقد كان بعضهم يراه رسولا ككل

(١). ١٧٠ - ١٧٨. PP. A Short History of the World

الرسول، ورآه آخرون إليها، واشتدت الاضطرابات بين الجماعات المسيحية، فجمع قسطنطين إمبراطور الروم البطارقة والأساقفة فيما يسمى بمجمع نيقية Nicaen سنة ٣٢٥ ليضع حدا لهذه الاختلافات، وليقرر حقيقة المسيح، وكان عدد المجتمعين ٢٠٤٨ وفي هذا الاجتماع صاح مصري اسمه أريوس صيحته التي كان يرددتها دائما: (إن الأب وحده الله، والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الأب إذ لم يكن الابن) أما كنيسة الإسكندرية - والإسكندرية عريقة التأثير بالتفكير المصري القديم وبالفسفة الإغريقية وبالأفلاطونية الحديثة التي تقول بالتثليث - فقد قاومت أريوس - وانضم إلى كنيسة الإسكندرية كنيسة روما، واختلف المجتمعون وتضاربوا: ولم يستطيعوا أن يصلوا إلى قرار (١)، (فقرر الإمبراطور أن يفصل في الأمر بالتدابير الشديدة بعد أن تبني رأي صديقه الممثل الديني للغرب (كاهن روما)، فأصدر أمره بإخراج الرؤساء الروحانيين الموحدين، ونفى الكثيرين منهم، وقتل أريوس مع بعض من أيدوا رأيه، واجتمع الأعضاء القائلون بالتثليث وبألوهية المسيح وعددهم ٣١٨، فاتخذوا قرارا بذلك، وعند كتابة نص القرار اعترض أكثرهم على عبارات المساواة بين الآب والابن ولكنهم خافوا أن ينزل بهم ما نزل بمعارض التثليث، فوضعوا إمضاءاتهم على هذه الوثيقة) (٢).

وفيما يلي نص هذا القرار:
نؤمن بالله الواحد، الآب، مالك كل شيء، وصانع ما يرى
وما لا يرى، وبالابن الواحد يسوع المسيح، ابن الله الواحد، بكر

(١) يتساءل السيد عبد الأحد داود: لماذا لم ينزل الروح القدس على المجتمعين فيهددهم سواء السبيل؟ فقد ادعى كاتب رسالة أعمال الرسل أن روح القدس نزل وينزل على الآباء الروحانيين كلما حذب أمر (الإنجيل والصليب ص ٢٠).
(٢) الإنجيل والصليب ص ٢٠ - ٢١.

الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء. من أجلنا ومن أجل معشر الناس، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس، وحبل به وولد من مريم البتول... وصلب أيام بيلاطوس، ودفن، ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه (١). ويضيف القرار ما يلي للتخويف والتحذير:

والجامعة المقدسة الكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه، وأنه لم يوجد قبل أن يولد، وأنه وجد من لا شيء. أو من يقول: إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الأب. وكل من يؤمن أنه خلق، أو من يقول إنه قابل للتغيير (٢).

وهكذا تدخلت القوة فخلقت هذا القرار الذي اتخذته أقلية المجتمعين، ولم تكف القوة بذلك بل فرضت هذا القرار فرضا على الناس وحرقت كل ما سواه، وحرمت على الناس الحديث بما يخالفه، وصادرت وأفنت كل ما كتب متجها غير هذا الاتجاه، وتعدت ذلك إلى اضطهاد من يقولون بالتوحيد وعزلهم عن مكان الرياسة، ومعاقبتهم بالنفي والتشريد عند اللزوم. وكان هذا العام (٣٢٥) أول تاريخ يتخذ فيه قرار ضد التوحيد ويحكم بالوهية المسيح، ولكن القائلين بالتوحيد لم يهدأوا على الرغم مما لاقوا من عنف، فنجدهم كما يروي ذلك ابن البطريق يعقدون مجمعا إقليميا في صور وقد حضره بطريرك الإسكندرية، ووجد نفسه الوحيد بين المجتمعين الذي يعتقد بالوهية المسيح ويدافع عنها، وقد اشتد الخلاف بينه وبين الحاضرين، وانتقل الخلاف من القول إلى الفعل فاعتدوا عليه بالضرب الشديد وكادوا يقتلونه.

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٢٠٤.

(٢) .٩٢. Pengajaran Genredja Kathotlk P. وتاريخ الأقباط

ص ٢٢٦ - ٢٢٨.

ويقول الأستاذ محمد أبو زهرة بحق: إن بطارقة الإسكندرية كانوا يمثلون فلسفة الإسكندرية أكثر من تمثيلهم لمسيحية المسيح وهذا هو مفتاح التاريخ الصحيح (١) ونضيف أن القوة أيدت كنيسة الإسكندرية وعسفت بأعدائها، فضعفوا بمرور الزمن وكثرت التضحيات. وقبل أن نترك ألوهية المسيح يجب أن نعرف الأسس التي جعلتهم يتخذون هذا القرار الخطير.

وقد سبق أن أجبنا عن هذا السؤال وبيننا أن الفلسفة الإغريقية وجدت طريقها إلى المسيحية وبخاصة في عهود ضعفها، وكانت هذه الفلسفة من أهم العوامل التي أدت إلى رسم هذه الصورة للمسيح، ولكن القسس المسيحيين لا يعترفون بذلك بطبيعة الحال، وربما لا يعتقدونه، ويرون أن الأسس التي أدت إلى اتخاذ هذا القرار الخطير الذي قضى بألوهية المسيح هي ما ورد في كتبهم المقدسة، وتبيننا لذلك نسوق بعض آيات من الأناجيل المعتبرة عندهم والتي جعلتهم يقولون بألوهية المسيح، فمن ذلك:

ما رواه متي عن الله: هذا هو ابني الحبيب به سررت (٢).
وقول يوحنا في وصف المسيح: في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله... كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان. والكلمة صار جسدا، وحل بيننا، ورأينا مجده مجدا (٣).
ويروي متي: أن رئيس الكهنة سأل المسيح مرة وقال له: استحلفك الله الحي أن تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله؟ فأجابه المسيح أنا هو (٤).

(١) محاضرات في النصرانية ص ١٢١

(٢) متي ٣: ١٧.

(٣) يوحنا ١: ١، ٣، ١٤.

(٤) متي ٢٦: ٦٢.

وفي أعمال الرسل أن فيليبس أحد الحواريين كان يسير مع خصي فمرا بماء فطلب الخصي من فيليبس أن يعمده فقال فيليبس إن كنت تؤمن من كل قلبك عمدتك. فقال الخصي: أنا أؤمن أن يسوع هو ابن الله. فعمده فيليبس (١).

تلك هي أدلة القوم لهذا الموضوع الخطير، وهي أدلة كما ترى متداعية، ومناقشتها لا تحتاج إلى جهد، فلنمض في مناقشتها على النسق الآتي: أولاً - أبان الكاتب الكبير Kalthoff أن الاعتقاد بألوهية المسيح سبق كتابة الأناجيل، فالاعتماد على الأناجيل لإثبات ألوهية المسيح عمل بعيد عن الصواب. يقول Kalthoff:

إن صورة المسيح بكل معالمها وملامحها أعدت قبل أن يكتب سطر واحد من الأناجيل، وإن هذه الصورة هي من إنتاج الفلسفة العقلية (الميتافيزيقية) التي كانت ذات سيطرة، وكانت آراؤها شائعة وتكاد تكون عامة أو عالمية (٢). ثانياً - يثبت Pllicederer المصادر الحقيقية للاعتقاد بألوهية المسيح فيقول: إن معالم التنبؤ عند اليهود، وعظات الأحرار، والخيال الشرقي، والفلسفة الإغريقية قد اختلطت كل ألوانها، ومن هذه الأصباغ جاءت صورة المسيح التي ظهرت في العهد الجديد، وكل ما يمكن تقريره دون تردد هو أن تصور المسيح ورسمه كان الهدف الوحيد للمسيحية في عهدها الأول كما كان هدف دعائها (٣).

ثالثاً - إن ما يرويه متي أو يوحنا لا يمكن أن يعتبر دليلاً على مثل هذا الأمر الخطير، وخاصة إذا اتضح لنا أن هذه الأناجيل من صنع هؤلاء.

(١) أعمال ٨: ٢٦ - ٢٧.

(٢) Der Brewer Radikalismus P .١٠١.

(٣) The Barly Chriatian Conceptiou of Christ P .٦.

أو قل أنها على الأقل من صنع الأجيال المتعاقبة ونسبت لهم، لأن الصلة بين إنجيل عيسى وهذه الأناجيل مقطوعة، والصلة بين هذه الأناجيل والذين نسبت إليهم تكاد تكون مقطوعة أيضا، وسيأتي مزيد من الإيضاح لذلك عند الكلام على الأناجيل.

رابعا - أن كلمة ابن الله، أو قول الله تعالى: هذا ابني الحبيب، لو صح هذا أو ذاك لما كان دليلا على ألوهية المسيح فإنه استعمال مجازي معناه التكريم، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: الفقراء عيالي.

ويقول Major. A. D. H مدير Oxford, Ripon Hall: ينبغي أن يلاحظ أن عيسى لم يدع أنه ابن الله من الناحية الحسية الجسمانية، ولا من الناحية الفكرية العقلية، وإنما من الناحية العامة التي تضع كل الناس من الله بمنزلة الأبناء من الأب في التعلق به، والاعتماد عليه، والحاجة إليه (١).

خامسا - وردت في هذه الأناجيل عبارات كثيرة تقرر توحيد الله وتفيد بوضوح أن المسيح بشر رسول، وإليك بعض هذه العبارات:

يروى متي عن عيسى قوله: إن أباكم واحد الذي في السماوات (إصحاح ٢٣ الفقرة ٨).

ويروي مرقس قول عيسى: الرب إلهنا إله واحد، وليس آخر سواه (١٢: ٣٠ - ٣١).

وجاء في إنجيل متي: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل (إصحاح ٢١ الفقرة ١١).

لوقا: قد خرج فينا نبي عظيم (٧: ١٦).

Ix. Vol. Aslamic Review .٨ pp. No .٢٧٦ - ٧ (١)

ويروي لوقا عن عيسى قوله: لا يمكن أن يهلك نبي خارج أورشليم.
يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين (١٣ : ٣٣).

ويروي يوحنا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم (٦ : ١٤
و ٧ : ٤٠).

ويروي يوحنا عن عيسى: وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله
(٨ : ٤٠).

ويروي يوحنا كذلك عن عيسى: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي
وإلهكم. (٢٠ : ١٨).

وفي رسالة أعمال الرسل: أن موسى قال للآباء: إن نبيا مثلي سيقوم لكم
الرب إلهكم من إخوتكم، له تسمعون في كل ما يكلمكم، وكل نفس لا تسمع
لذلك النبي تباد من الشعب وجميع الأنبياء أيضا من صموئيل فما بعده، جميع الذين
تكلموا، سبقوا وأنبتوا بهذه الأيام (٣ : ٢٢ - ٢٣).

سادسا - إن بولس استعمل هذا التركيب (ابني الحبيب) استعمالا مجازيا،
فقد ورد في رسالة كورنثوس الأولى قول بولس عن تيموثاوس: أرسلت
إليكم تيموثاوس الذي هو ابني الحبيب (١).

سابعا - يقول Harnack ما يلي عن شخصية المسيح (٢): ووصف المسيح
إله السماء والأرض بأنه إلهه وأبوه وبأنه الأعظم والإله الواحد، وأن المسيح
يعتمد عليه في كل شيء، وأن خضوعه له تام، ويدخل عيسى نفسه ضمن
الناس معلنا أنه من طبيعة البشر التي تختلف عن طبيعة الله، وفيما يلي
كلمات Harnack نفسها:

(١) كورنثوس الأول ٤ : ١٦.

(٢) What is Christianity p .١٢٦ .

as the Christ described The, as the Greater; and Father
and Lord of Heaven and Earth as His God; is dependent
on and submissive to God
In all things he. only God
God even includes him self among other men (١)
over against His ثامنا - ورد في دائرة المعارف البريطانية ما نصه: ولم يدع
عيسى قط أنه

من عنصر فوق الطبيعة، ولا أن له طبيعة أسمى من طبيعة البشر، وكان قانعا
بنسبه العادي ابنا لمريم منسوباً من جهة الأب إلى يوسف النجار (٢).
تاسعا - نشرت جريدة التايمز بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٩٦٦ وثيقة دينية
اكتشفت حديثاً، وقد جاء فيها ما ترجمته: تعتقد المسيحية أن عيسى ابن الله
المقدس ولكن مؤرخي الكنيسة يسلمون بأن أكثر أتباع المسيح في السنوات
التالية لوفاته اعتبروه مجرد نبي آخر لبني إسرائيل.
مرة أخرى نعود إلى ما سبق أن أجبنا به من أن فلسفة مدرسة الإسكندرية
وفلسفة الإغريق هما اللتان دفعتا المسيحيين إلى القول بألوهية المسيح أو القول بتعدد
الآلهة، ويؤكد Harnack أن تعدد الآلهة هو (من عمل أتباع المسيح وهو
بعيد كل البعد عن عمل المسيح وقوله (٣) ويقول السيد محمود أبو الفضل: إن
الاضطهاد الذي لاقاه المسيحيون في عهدهم الأول دفعهم إلى الهجرة، فرحل
بعضهم إلى الإسكندرية فأخذوا عن مدرستها ورحل البعض إلى روما فأخذوا
عن الوثنية الرومانية، ومن هذين المعينين جاءت المسيحية الحديثة (٤).
وهناك دليل عجيب عن ألوهية المسيح يقدمه الأب بولس إلياس
الخوري، وهذا الدليل أقرب إلى الخرافة في رأي أي عاقل، يقول الأب
بولس: استباح السيد المسيح حق تعديل الشريعة وتكميلها فصارح سامعيه
بقوله (قد سمعتم أنه قيل للأولين: لا تقتل فإن من قتل يستوجب الدينونة،

(١) .١٢٦ p .What is Christianity

(٢) .٦٣٦ Vol .P Encyclopaedia Britannica

(٣) P .١٦٠ .What is Christianity

(٤) وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٢١ .

أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة) والله هو الذي قال للأولين وقد وضع عيسى نفسه بذلك موضع الله الذي شرع ذلك، فلا بد أن يكون هو الله (١).

ومعنى هذه الخرافة أن كثيرين منا آلهة فطالما شرحنا للناس ما فرضه الله عليهم وطلبنا منهم مزيدا من العمل الصالح، نعوذ بالله من الخطل. وسنورد في نهاية هذا الكتاب خلاصة هذه الأبحاث في الملحق الخاص عن (قضية الألوهية).

أما الروح القدس فلم يتخذ بشأنه قرار في اجتماع نيقية بل نص في ذلك الاجتماع على (ترك الحرية للناس في الاختلاف على الروح القدس). وهكذا كان متخذو هذا القرار يتمتعون بشيء من الحصافة فلم يشاءوا أن يقولوا بالثالوث مرة واحدة، بل اکتفوا بإعلان ألوهية المسيح وتركوا إعلان ألوهية روح القدس موضع اختلاف بين الناس فلم يثبتوها ولم ينفوها بل أجعلوها لفرصة أخرى حتى يستقر المبدأ الجديد وهو ألوهية المسيح، ثم بعد ذلك يكملون إعلان ألوهية روح القدس حتى يكمل الثالوث الإغريقي. وستكلم فيما يلي عن وقت إعلان ألوهية روح القدس وظروف ذلك.

ألوهية الروح القدس:

الروح القدس هو الذي حل على العذراء لدى البشارة، وعلى المسيح في العماد، وعلى الرسل بعد صعود المسيح إلى السماء (٢)، والذي حل على العذراء بالبشارة هو في نظر المسلمين جبريل عليه السلام.

وقد سبق أن قلنا إن مجمع نيقية بعد أن قرر ألوهية المسيح (ترك الحرية للناس في الاختلاف على الروح القدس) وفي ضوء هذه الحرية وجد اتجاهان يتصارعان تتزعم كنيسة الإسكندرية أحدهما الذي يقول بالتثليث وأن المسيطر على العالم قوى ثلاث: المكون الأول، والعقل (الابن)،

(١) يسوع المسيح ٦٩.

(٢) الأب بولس إلياس: يسوع المسيح ص ٧٣.

والنفس العامة (الروح القدس) ويتزعم الاتجاه الآخر بعض القسس في مقدمتهم مقدونيوس أسقف القسطنطينية، وقد أعلن هذا أن الروح القدس ليس بإله ولكنه مخلوق مصنوع كما أعلن الأسقف أوسايوس إنكار وجود الأقانيم الثلاثة وقال إن للثالوث ذاتا واحدة وأقنوما واحدا، وكان ذلك الخلاف داعيا لعقد مجمع جديد بيت في الأمر، أو قل كان الأوان قد آن ليكمل إعلان الثالوث، فعقد الإمبراطور تاءوديوس الكبير مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ولم يحضره إلا مائة وخمسون أسقفا، وفي هذا المجمع أعلن حرمان الأسقفين السابقين، وأسقط كل منهما من رتبته، ثم قدم بطريك الإسكندرية قياسا على هيئة الأقيسة المنطقية، ولكنه في الحقيقة بعيد عنها، فمقدماته غير مسلم بها، ونتائجه غير مرتبة ولا مبنية بالضرورة على المقدمات، وهاهو:

(ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله، وليس روح الله شيئا غير حياته، فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق فقد قلنا إن روح الله مخلوق، وإذا قلنا إن روح الله مخلوق، قلنا إن حياته مخلوقة، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حي، وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به، ومن كفر به وجب عليه اللعن) (١).

ومن النظر في هذه السلسلة المنطقية بمقدماتها ونتائجها يظهر أن أساسها ومقدمتها الضرورية وهي أن روح القدس هي روح الله مقدمة ساقطة، لا يوافقها عليها أغلب الناس ولا يستطيع أن يقيم الدليل عليها، فالعقيدة السائدة الصحيحة هي أن روح القدس خلقه الله واتخذ له ليكون رسولا بينه وبين من يريد أن يلقي عليه وحيا من خلقه أو أمرا كونيا (٢).

ولكن هذا المجتمع لم يكن يكفر، ولم يجتمع ليناقش بل ليتخذ قرارا مبينا قبل اجتماعه، ولذلك سرعان ما اتخذوا قرارهم بألوهية الروح القدس

(١) أنظر ٩٦ . Pengadjaran Geredja Katolik p

(٢) أبو زهرة. محاضرات في النصرانية ص ١٣٤ .

ويلعن من يقول بغير ذلك، ويقول ابن البطريرق أحد المؤرخين المسيحيين في إثبات القرار وشرحه ما يلي: (زادوا في الأمانة التي وضعها الثلاثمائة والثمانية عشرة أسقفا الذين اجتمعوا في نيقية، الإيمان بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن مسجود له، وممجد، وثبتوا أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم، وثلاثة وجوه، وثلاث خواص، وحدية في تثليث، وتثليث في وحدية، كيان واحد، في ثلاثة أقانيم، إله واحد، جوهر واحد، طبيعة واحدة).

ومرة أخرى فرض هذا القرار فرضا على المسيحيين، وعذب ولعن من خالفه، وحرّم من الوظائف وصدّرت آراؤه وقتلت.

ولم يكتف بعض رجال الكنيسة بهذا الثالث على هذا الوضع، بل نراهم كأنهم تصوروا منافسة بين الله جل جلاله وبين المسيح، فلم يقنعوا بأن يكون الروح القدس منبثقا من الأب، بل عقدوا مجمعا آخر هو مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ م وقرروا أن الروح القدس منبثق من الابن أيضا، ولم تقبل الكنيسة اليونانية هذه الزيادة الجديدة، ولا تزال عبارة (ومن الابن أيضا) موضع خلاف بين الكنيسة اليونانية والكنيسة الكاثوليكية، وسببا في عدم الالتقاء بين الكنيستين، وتؤمن الكنيسة القبطية بمصر بأن روح القدس منبثق من الأب فقط (١).

وهكذا اتخذت هذه المجامع سلطة صنع الآلهة!!! يا لله من ظلم الإنسان وجهله!

وقبل أن نترك الكلام عن روح القدس يجدر بنا أن ننقل عن لوقا تصويره العجيب لروح القدس ذاك، يقول لوقا في وصفه لاجتماع بطرس بالتلاميذ المائة والعشرين الذين اختارهم ليعلموا المسيحية:

(١) تاريخ الأقباط للأستاذ زكي شنودة ص ٣٤١.

ولما حضر يوم الخميس كان الجميع معا بنفس واحدة، وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملاً كل البيت حيث كانوا جالسين، وظهرت له ألسنة منقسمة كأنها من نار، واستقرت على كل واحد منهم، وامتلاً الجميع من الروح القدس، وابتدءوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا (١).

٣ - صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر:

هذا هو الأساس الثاني عن أسس العقيدة المسيحية، وقد سبق أن تحدثنا عنه ونزيد هنا الموضوع وضوحاً، وأساس هذا الموضوع عند المسيحيين أن من صفات الله العدل (٢) والرحمة (٣)، وبمقتضى صفة العدل كان على الله أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة التي ارتكبها أبوه وطردها من الجنة واستحق هو وأبناؤه البعد عن الله بسببها، وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئات البشر، ولم يكن هناك من طريق للجمع بين العدل والرحمة إلا بتوسط ابن الله ووحيدده وقبوله أن يظهر في شكل إنسان وأن يعيش كما يعيش الإنسان ثم يصلب ظلماً ليكفر عن خطيئة البشر (٤)، وقد ورد في العهد الجديد ما نصه: وإن ابن الإنسان قد جاء ليخلص

(٢) أعمال الرسل ٢: ١ - ٤. ويقول المسيحيون إن روح القدس لا يزال موجوداً، وهو ينزل على الآباء والقديسين بالكنيسة يرشدهم ويعلمهم، وقد نقلت الأخبار نبأ اجتماع الرئيس أيزنهاور بالبابا في الفاتيكان (نهاية سنة ١٩٥٩) حيث قرأ البابا تحية مكتوبة بالإنجليزية أمام الرئيس أيزنهاور، وعلقت الأخبار أن البابا بدأ يتعلم الإنجليزية حديثاً ولذلك كانت تحيته قصيرة ومكتوبة. ليت شعري لماذا لم يعلمه الروح القدس اللغة الإنجليزية كما يقول لوقا بأن روح القدس علم في لحظات هؤلاء الرسل لغات لم يكونوا يعرفونها.

(٣) المرجع السابق ص ٣٤.

(٤) المرجع السابق ص ٦٩ والإنجيل والصليب للأستاذ عبد الأحد داود ص ٦ - ٧ وتاريخ الأقباط ص ٢٣٨.

ما قد هلك، فبمحبته ورحمته قد صنع طريقا للخلاص، لهذا كان المسيح هو الذي يكفر عن خطايا العالم، وهو الوسيط الذي وفق بين محبة الله تعالى وبين عدله ورحمته، إذ أن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون في الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف أبوهم، ولكن باقتران العدل والرحمة وبتوسط الابن الوحيد، وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق، قرب الناس من الرب بعد الابتعاد (١).

ويقول القس إبراهيم لوقا (٢) إن المسيحية تعلم أن الله - لكي يجمع بين عدله ورحمته في تصرفه مع الإنسان عقب سقوطه - دبر طريقة فدائه، بتجسيد ابنه الحبيب وموته على الصليب نيابة عنا، وبهذا أخذ العدل حقه، وتكملت الرحمة فنال البشر العفو والغفران وهذه هي نظرية الفدية. ويصور كاتب مسيحي هو: Garvie. Alfred E هذا الموضوع في مقاله الطويل الذي كتبه عن المسيحية في: The Encyclopaedia of Religion and Ethics

فيقول (٣):

في المسيحية ينسب الكمال كله لله، أما الإنسان فهو غير كامل، وهو مستحق للوم على ما يرتكبه مما يبعده عن الكمال، والصلة بين الله والناس تتعرض للوهن أو الانفصام بسبب سيئات الإنسان، ولا بد للإنسان - لكي يعيد رفقته لله - أن يفتدي، ولا يملك الإنسان ما يفتدي به نفسه، وليس إلا عيسى ابن الله ليتقدم شفيعا بين الله والإنسان، فهو الابن الذي يعرف الله كأب، ويعلن عنه لهم أنه أب محب للرحمة يعفو عن سيئاتهم ويرحب بهم داعيا لهم أن يعودوا إليه وإن كانوا قد أذنبوا.

(١) اقرأ إنجيل مرقس الإصحاح العاشر الفقرة ٤٤ وما بعدها وإنجيل يوحنا ٣ . ١٦ ورسالة رومية ٣ . ٢٣ وما بعدها و ٥ . ١٠ وما بعدها والإصحاح السادس.

(٢) المسيحية في الإسلام ص ١٧١.

(٣) Vol .٣ P .٥٨١.

وعيسى بصدق تعاليمه وسماحتها، وبحياته التي هي مثال راق، يجذب الناس إليه ويوقظ ثقتهم بأنفسهم، ويكرر لهم التوبة فيضمن لهم عفو الله، وهذا يبدأ بقبول عيسى النزول إلى الأرض والحياة بين البشر، ولكنه يصل القمة بأن يقدم نفسه فدية لذنوب الناس، وتقديم عيسى نفسه فدية هكذا درجة عليا في الوساطة بين الله والناس.

ويقول كاتب مسيحي آخر: إن خطيئة آدم عصيان ضد الله وشروء عن الصلة به، ومعصية ضد قداسه تعالى، وأعلن لنا يسوع وهو على الصليب أن الله قد تنازل ليحدد الصلة التي قطعت خطيئتنا أوأصرها ويتخطى الشقة التي أحدثها بيننا وبينه اعواجاجنا وزيفنا (١).

ويعيد الأب بولس إلياس الخوري الحق إلى نصابه حينما يعلن في جراءة أن بولس هو مبتدع هذه الفكرة، وقد حمل هو وتلميذه الحبيب لوقا لواء الدعاية لها، وفيما يلي كلمات هذا الباحث المسيحي:
ومما لا ريب فيه أن الفكرة الأساسية التي ملكت على بولس مشاعره فعبّر عنها في رسائله بأساليب مختلفة هي فكرة رفق الله بالبشر، وهذا الرفق بهم هو ما حمّله على إقالتهم من عثارهم، فأرسل إليهم ابنه الوحيد ليفتديهم على الصليب، وينتقل بهم من عهد الناموس الموسوي إلى عهد النعمة، وهذه الفكرة عينها هي التي هيمنت على إنجيل لوقا (٢).

وتصور بعض الأناجيل عملية التعذيب التي مر بها عيسى قبل صلبه تصويرا لاذعا مثيرا، فقد جاء في إنجيل متي بعد أن وصف القبض على عيسى وتسليمه إلى الوالي بيلاطس ما يلي:

فقال الوالي للشعب: ماذا أفعل بيسوع الذي يدعي المسيح؟ قال له الجميع: ليصلب، فقال الوالي: وأي شر عمل؟ فكانوا يزدادون

(١) أديان العالم الكبرى ص ١١١.

(٢) يسوع المسيح ص ٢٨ و ٩٢ و ٩٣.

صراخا قائلين: ليصلب، فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً بل بالحري يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلاً إني بريء من دم هذا البار أبصروا أنتم. فأجاب جميع الشعب وقالوا: دمه علينا وعلى أولادنا، حينئذ جلد الوالي يسوع وأسلمه للصلب، فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة، فعروه وألبسوه رداء قرمزيا، وضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه، وكانوا يحثون قدامه ويستتهزون به قائلين: السلام يا ملك اليهود، وبصقوا في وجهه، وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه، وبعد أن استهزءوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب، وأعطوه خلا ممزوجا بمرارة ليشرّب، ولما ذاق لم يرد أن يشرب (١).

ولست أدري ما الذي حدا بالمسيحيين أن يصوروا نبيهم أو إلههم هذا التصوير البشع، وإن أي مفكر لتخطر بنفسه الأسئلة الآتية:

١ - ادعى المسيحيون أن صلب المسيح كان لتحقيق العدل والرحمة، وأي عدل وأي رحمة في تعذيب غير مذنب وصلبه؟ قد يقولون إنه هو الذي قبل ذلك، ونقول لهم إن من يقطع يده أو يعذب بدنه أو ينتحر، مذنب ولو كان يريد ذلك.

٢ - إذا كان المسيح ابن الله فأين كانت عاطفة الأبوة وأين كانت الرحمة حينما كان الابن الوحيد يلاقي دون ذنب ألوان التعذيب والسخرية ثم الصلب مع دق المسامير في يديه؟.

٣ - ما هي صورة المسيحيين عن الله (جل في سماه) الذي لا يرضى إلا بأن ينزل العذاب المهين بالناس، والعهد في الله الذي يسمونه الأب ويطلقون عليه (الله رحمة) أن يكون واسع المغفرة كثير الرحمات؟

٤ - من هذا الذي قيد الله (جلا جلاله) وجعل عليه أن يلزم العدل وأن يلزم الرحمة وأن يبحث عن طريق للتوفيق بينهما؟

(١) إقرأ الإصحاح ٢٧ فقرة ٢٣ وما بعدها وإنجيل مرقس الإصحاح ١٤.

٥ - ويدعي المسيحيون أن ذرية آدم لزمهم العقاب بسبب خطيئة أبيهم، وفي أي شرع يلتزم الأحفاد بأخطاء الأجداد، وبخاصة أن الكتاب المقدس ينص على أنه لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل (١)؟

٦ - وإذا كان صلب المسيح عملاً تمثيلاً على هذا الوضع فلماذا يكره المسيحيون اليهود ويرونهم آثمين معتدين على السيد المسيح؟

٧ - وهل كان نزول ابن الله وصلبه للتكفير عن خطيئة البشر ضرورياً أو كانت هناك وسائل أخرى من الممكن أن يغفر الله بها خطيئة البشر؟ الجواب عن ذلك يقدمه كاتب مسيحي هو القس بولس سباط بقوله: لم يكن تجد الكلمة ضرورياً لإنقاذ البشر، ولا يتصور ذلك مع القدرة الإلهية الفائقة الطبيعية (٢).

ثم يسترسل هذا الكاتب فيذكر السبب في اختيار الكلمة ليكون فداء لخطيئة البشر فيقول: إن الله على وفرة ماله من الذرائع إلى فداء النوع البشري. وإنقاذه من الهلاك الذي نتج من الخطيئة ومعصية أمره الإلهي، قد شاء سبحانه أن يكون الفداء بأعز ما لديه، لما فيه من القوة على تحقيق الغرض وبلوغه سريعاً (٣). ونصرخ في وجه هذا الكاتب أنه ليس من الحكمة في أي شيء أن نفتدي بدينار ما نستطيع أن نفتديه بفلس، تعالى الله عن ذلك. وإجابة أخرى عن هذا السؤال نقتبسها من كاتب مسيحي آخر هو الأب بولس إلياس الذي يقول (٤):

(١) تثنية ٢٤: ١٦.

(٢) الشرع ص ٤٢.

(٣) المرجع السابق ص ٤٢ - ٤٣.

(٤) يسوع المسيح ص ٩٧ - ٩٨.

مما لا ريب فيه أن المسيح كان باستطاعته أن يفتدي البشر ويصالحهم مع أيه بكلمة واحدة، أو بفعل سجود بسيط يؤديه باسم البشرية جمعاء لأبيه السماوي، لكنه أبى إلا أن يتألم، ليس لأنه مريض يتعشق الألم، ولا لأن أباه ظالم يطرب لمراى الدماء، وأية دماء، دماء ابنه الوحيد، وما كان الله بسفاح ظلوم، لكن الله الابن شاء مع الله الأب أن يعطي الناس أمثلة خالدة من المحبة، تبقى على الدهر، وتحركهم على الندامة على ما اقترفوه من آثام وتحملهم على مبادلة الله المحبة.

ومرة أخرى نصرخ في وجه هذا المؤلف مؤكداً أنه صور الداء أدق تصوير عندما تكلم عن الدماء والقسوة، ولكنه عندما بدأ يجيب ويصف الدواء تعثر وكبا، ولم يقل إلا عبارات جوفاء لا تحمل أي معنى.

٨ - ونعود إلى القس بولس سباط لنسأل كما سأل: إذا كان الكلمة قد تجسد لمحو الخطيئة الأصلية فما العمل في الخطايا التي تحدث بعد ذلك؟ ويجيب هذا الكاتب بما يلي بالحرف الواحد: إذا عاد الناس إلى اجترار الخطايا فالذنب ذنبهم، لأنهم أنسوا النور وعشوا عنه مؤثرين الظلمة بإرادتهم (١)، ومعنى ذلك أن خطيئة واحدة محيت وأن ملايين الخطايا سواها بقيت وجدت بعد ذلك وسيحاسب الناس على ما اقترفوه، وبعض ما اقترفوه أقسى من عصيان آدم، لقد أنكر بعض الناس وجود الله، وهاجمه آخرون وسخروا بجننته وناره، فلماذا كانت مظاهر التجسد لخطيئة واحدة وتركت خطايا لا تعد؟

٩ - أين كان عدل الله ورحمته منذ حادثة آدم حتى صلب المسيح؟ ومعنى هذا أن الله ظل (تعالى عن ذلك) حائراً بين العدل والرحمة آلاف السنين حتى قبل المسيح منذ حوالي ألفي عام أن يصلب للتكفير عن خطيئة آدم.

(١) المشرع ٣ ص ٤٤.

١٠ - ويلزم في جميع الشرائع أن تناسب العقوبة الذنب، فهل يتم التوازن بين صلب المسيح على هذا النحو، وبين الخطيئة التي ارتكبها آدم أو ارتكبها البشر؟

١١ - هذا إلى أن خطيئة آدم التي لم تزد عن أن تكون أكلا من شجرة نهي عنها، قد عاقبه الله عليها بإخراجه من الجنة، ولا شك أنه عقاب كاف، فالحرمان من الجنة الفيئانة والخروج إلى الكدح والنصب عقاب ليس بالهين، وهذا العقاب قد اختاره الله بنفسه وكان يستطيع أن يفعل بآدم أو بحواء أكثر من ذلك، ولكنه اكتفى بذلك، فكيف يستساغ أن يظل مضمرا السوء غاضبا آلاف السنين حتى وقت صلب عيسى.

١٢ - وقد مرت بالبشر من عهد آدم إلى عهد عيسى أحداث وأحداث، وهلك كثيرون من الطغاة وبخاصة في عهد نوح، حيث لم ينج إلا من آمن بنوح واتبعه وركب معه السفينة، فهؤلاء هم الذين رضي الله عنهم، فكيف بعد ذلك تبقى ضغينة وكرهية تحتاجان لأن يضحى عيسى بنفسه لفداء البشرية؟

١٣ - والكاتب المسيحي الذي أسلم (عبد الأحد داود) ينتقد قصة التكفير هذه انتقادا عقليا سليما فيقول إن من العجيب أن يعتقد المسيحيون أن هذا السر اللاهوتي وهو خطيئة آدم وغضب الله على الجنس البشري بسببها، ظل مكتوما عن كل الأنبياء السابقين، ولم تكتشفه إلا الكنيسة بعد حادثة الصلب (١).

١٤ - ويقول هذا الكاتب إن مما حمله على ترك المسيحية، هو هذه المسألة وظهور بطلانها لأن الكنيسة أمرته بأوامر لم يستسغها عقله وهي: (١) نوع البشر مذنب بصورة قطعية ويستحق الهلاك الأبدي.

(١) الإنجيل والصليب ص ٧.

(ب) الله لا يخلص أحدا من هؤلاء المذنبين من النار الأبدية المستحقة عليهم، بدون شفيع.

(ج) والشفيع لا بد أن يكون إليها تاما وبشرا تاما.

ويدخل هذا الكاتب في نقاش طويل مع المسيحيين بسبب هذه الأوامر، فهم يرون أن الشفيع لا بد أن يكون مطهرا من خطيئة آدم، ويرون أنه لذلك ولد عيسى من غير أب لينجو من انحدار الخطيئة إليه من أبيه، ويسألهم الكاتب: ألم يأخذ عيسى نصيبا من الخطيئة عن طريق أمه مريم؟.

ويجيب هؤلاء بأن الله طهر مريم من الخطيئة قبل أن يدخل الله الابن رحمها. ويعود الكاتب فيسأل: إذا كان الله يستطيع هكذا في سهولة ويسر أن يطهر بعض خلقه، فلماذا لم يطهر خلقه من الخطيئة كذلك بمثل هذه السهولة وذلك اليسر؟ بدون إنزال ابنه وبدون تمثيلية الولادة والصلب (١)؟

ونضيف إلى نقاش عبد الأحد داود أن قولهم بضرورة أن يكون الشفيع مطهرا من خطيئة آدم، مما استلزم أن يولد عيسى من غير أب، وأن يطهر الله مريم قبل دخول عيسى رحمها، هذا القول يحتاج إلى طريق طويل معقد، وكان أيسر منه أن ينزل ابن الله مباشرة في مظهر الإنسان دون أن يمر بدخول الرحم والولادة، ونضيف كذلك أن اتجاه المسيحيين هذا يتعارض مع اتجاه مسيحي آخر سبق أن أشرنا إليه، وهو أن ابن الله دخل رحم مريم ليأخذ مظهر الإنسان وليحتمل في الظاهر بعض خطيئة آدم الذي يبدو ابن الله كأنه ولد من أولاده، ثم يصلب ابن الله تكفيرا عن خطيئة البشر الذي أصبح كواحد منهم. ويبقى في هذا الموضوع أن نسأل سؤالا أخيرا هو: هل كان الأنبياء جميعا مدنسين خطاة بسبب خطيئة أبيهم آدم؟ وهل كان الله غاضبا عليهم أيضا؟ وكيف اختارهم مع ذلك لهداية البشر؟

(١) الإنجيل والصلب ص ١٢٤، ١٢٧.

حقيقة قصة الصلب للتكفير:

قلنا إن مبدأ التثليث ورد للمسيحية من الفلسفة الإغريقية، ونقول هنا كذلك إن فكرة الصلب للتكفير ليست من المسيحية في شيء، ويبدو أنها وردت إلى المسيحية من عقائد أخرى وبخاصة عقيدة الهنود، إذ أننا نجدنا معتقدا سائدا عند الهنود قبل المسيح بمئات السنين، فهم يعتقدون أن (كرشنا) المولود البكر الذي هو نفس الإله (فشنو) الذي لا ابتداء له ولا انتهاء، تحرك حنوا كي يخلص الأرض من ثقل حملها، فأتاها وقدم نفسه ذبيحة عن الإنسان، ويصورونه مصلوبا مثقوب اليدين والرجلين، ويصفون كرسنا لذلك بالبطل الوديع المملوء لاهوتا لأنه قدم نفسه ذبيحة من أجل البشر. وفي بلاد النيبال والتبت يعتقدون أن إلههم (أندرا) سفك دمه بالصلب وثقب المسامير لكي يخلص البشر من ذنوبهم، وأن صورة الصلب موجودة في كتبهم (١).

وقبل أن نترك هذا الموضوع نحب أن نقرر أن الأناجيل الأربعة المعتمدة عند النصارى اختلفت اختلافا كبيرا في إيراد قصة الصلب، ويعجب الإنسان كيف تختلف هذه الأناجيل في أساس هام من أسس ديانتهم، ولو صح أن هذا أساس، وأن المسيح أنبأ به، لكان اهتمامهم بتدوينه متساويا أو متقاربا، أما مدى التفاوت بين هذه الأناجيل في ذلك الموضوع فيصوره الأستاذ عبد الوهاب النجار بإيراد نصوص هذه الأناجيل كاملة حول هذه المسألة، ثم يناقشها فيعدد أربعة وثلاثين وجها من أوجه التضاد بين هذه

(١). ١ - العقائد الوثنية في الديانة النصرانية للأستاذ محمد طاهر التنير في عدة صفحات.

ب - تفسير المنار للسيد رشيد رضا ج ٦ ص ٣٢.

ج - شبهات النصارى وحجج المسلمين للسيد رشيد رضا ص ١٥.

د - قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ص ٤٣٢ - ٤٣٣.

النصوص، ولا شك أن هذا التضاد يسقط قيمة الاستدلال بهذه النصوص، وبالتالي يسقط قيمة الفكرة (١).

٣ - المسيح يحاسب الناس:

هذا هو الأساس الثالث من أسس العقيدة المسيحية، ويرى المسيحيون أن الأب أعطى سلطان الحساب للابن، وذلك لأن الابن - بالإضافة إلى ألوهيته وأبديته - ابن الإنسان أيضا، فهو أولى بمحاسبة الإنسان (٢). ويعتقدون أنه بعد أن ارتفع إلى السماء جلس بجوار الأب على كرسي استعدادا لاستقبال الناس يوم الحشر ليدينهم على ما فعلوا. وقد جاء في رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس (لا بد أننا جميعا نظهر أمام كرسي المسيح لينال كل منا ما كان بالجسد، بحسب ما صنع، خيرا كان أو شرا) (٣). وهناك نصوص أخرى في العهد الجديد تقرر هذا المبدأ، نورد بعضها فيما يلي:

١ - جاء في رسالة بولس إلى أهل إفسس قوله: أقام الله المسيح من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماوات فوق كل رئاسة وسلطان وقوة وسيادة، وأخضع كل شيء تحت قدميه (٤).

٢ - وفي رسالته لأهل رومية: إننا جميعا سوف نقف أمام كرسي المسيح (٥).

٣ - وفي إنجيل يوحنا: الأب لا يدين أحدا بل قد أعطى كل الدينونة للابن (٦).

(١) اقرأ عن الأناجيل وصلب المسيح (قصص الأنبياء) للأستاذ النجار ص ٤٣٣ - ٤٤٨

(٢) Encyclopaedia Britannica Vol .٥ ٦٣٢ .

(٣) راجع الإصحاح الخامس

(٤) الإصحاح الأول. الفقرة ٢٢

(٥) إصحاح ١٤ الفقرة ١٠

(٦) إصحاح ٥ الفقرة ٢٢

٤ - ويروي يوحنا عن عيسى قوله: أنا أسمع وأدين ودينونتي عادلة (١).
وليس لنا أن نناقش هذه العقيدة بعد أن ناقشنا أسسها وأثبتنا بطلانها،
وأنها مبنية على ألوهية المسيح وهو أساس باطل، وإذا ثبت أنه بشر نبي لم يكن
له الحق أن يحاسب أو يدين، وقد جاء في الوثيقة التي أشرنا لها من قبل والتي
نشرتها جريدة التايمز بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٩٦٦ النص الآتي منسوباً إلى
عيسى: لن أحاسب الناس على أعمالهم، أو أحكم عليهم، الذي أرسلني هو الذي
يصنع ذلك.

والتفكير الإسلامي في هذا الموضوع يجعل الرسل شهوداً بالتبليغ على
أقوامهم أمام الله العلي العظيم، كما تشهد أعضاء الإنسان عليه بما فعل، أما الحكم
النهائي فهو لله الذي يحكم لا معقب لحكمه، فإذا قارنا هذا التفكير الإسلامي
بالتفكير المسيحي نجدته متقارب الأصول من حيث أن كل نبي يحضر محاسبة
قومه ويعلن أمام الله العلي العظيم أنه بلغهم ما أمر به، ولكن الحكم النهائي
في اعتقاد المسلمين لله العلي العظيم، والحكم عند المسيحيين للمسيح، وسبب
ذلك الانحراف في التفكير المسيحي، هو ما يتخيله المسيحيون دائماً من منافسة
بين الله العلي العظيم وبين عيسى، وهذا الخيال المريض لم يجعل المسيحيين يقنعون
بالتفكير العام الذي يقضي بأن الحكم لله وأن الرسل شهداء على أقوامهم كما
سبق، لم يقنع المسيحيون بذلك فوضعوا عيسى على كرسي بجوار الله وحكموا
له أنه هو الذي سيحاسب ويدين وأن الله تنازل له عن هذا السلطان. إن
المسيحيين في كثير من الأحيان لا يريدون أن يقنعوا بمساواة المسيح لله، بل
يحاولون أن يرتفعوا به إلى غاية أعلى وهي سبق الابن للأب (تعالى الله عن ذلك
علواً كبيراً).

وربما جاز لنا أحياناً أن نفهم أن تفكير المسيحيين قريب الصلة بعبادة
الأبطال وربما كانوا إلى عبادة الأبطال أميل.

(١) إصحاح ٥ الفقرة ٢٠.

شعائر المسيحية

الشعائر المسيحية لا تسمو إلى مكانة العقائد التي سبق الكلام عنها، فالعقائد أساس لدخول المسيحية، وبدون الإيمان بها لا يكون الإنسان مسيحياً، أما الشعائر فإنها لازمة، وعلى المسيحي أن يقوم بها، ولكن الشخص على كل حال يعتبر مسيحياً قبل أن يقوم بها ما دام قد اعتنق العقائد السابقة. وكانت هذه الشعائر سبعة، ويقول الأستاذ عمر عنایت (١): إن هذه الشعائر نشأت من القسم الذي كان يحلفه الجندي الروماني قبل انخراطه في سلك الجيش، وأهم هذه الشعائر: التعميد، والعشاء الرباني، وتقديس الصليب وحمله، وقد تأثرت طريقة أداء بعض هذه الشعائر بطريقة أداء القسم سالف الذكر، فكما لزم أن يؤدي القسم في حضرة ممثل للجيش فإن التعميد يلزم أن يؤدي بواسطة ممثل للكنيسة، ويلزم كذلك أن يقدم الخبز والخمر في العشاء الرباني بواسطة آباء الكنيسة (٢)، وستكلم فيما يلي كلمة عن كل من الشعائر السالفة: التعميد:

تكاد تتفق كل الفرق المسيحية على ضرورته، وكان التعميد موجوداً قبل المسيحية عند اليهود وكان يحيى يعمد الناس في نهر الأردن ولذلك سمي (يوحنا المعمدان) وقد قام يوحنا بتعميد المسيح كما سبق القول. ولم يتفق المسيحيون على وقت التعميد، فبعضهم يعمد الشخص في طفولته، وبعضهم يعمده في أي وقت من حياته، وبعضهم يجري التعميد والشخص على فراش الموت بحجة أن التعميد إزالة للسيئات وتطهير من

(١) العقائد ص ١٠٤.

(٢) Pengadjsran Geredjs Katolik Hal .٣٠٠.

الذنوب فيحسن أن يتم حيث لن تحصل ذنوب بعده، وقد عمد قسطنطين حامي المسيحية وهو على فراش الموت، والغالب أن يتم التعميد في الطفولة حتى ينشأ الإنسان - كما يقولون - طاهراً مبرأ من الذنوب.

وطريقة التعميد هي رش الماء على الجبهة أو غمس أي جزء من الجسم في الماء، ويكثر أن يغمس الشخص كله في الماء، ولا بد أن يقوم بهذه العملية كاهن يعمد الإنسان باسم الأب والابن وروح القدس، ولا يقوم غير الكهنة بالتعميد إلا للضرورة وحينئذ يسمى التعميد (تعميد الضرورة) (١). ولا تجيز الكنيسة القبطية التعميد بالرش إلا للضرورة كذلك، وتلزم أن يكون بالتغطيس، وأن يكون ثلاث مرات، الأولى باسم الرب، والثانية باسم الابن، والثالثة باسم روح القدس (٢).

ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع عن التعميد: (فريضة مقدسة يشار إليها بالغسل بالماء باسم الرب والابن والروح القدس إلى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح، وهي ختم عهد النعمة كما كان الختان في الشريعة الموسوية، والمعمودية تدل على اعترافهم العلني بإيمانهم وطاعتهم للأب والابن وروح القدس كإلههم ومعبودهم الوحيد، ولا يجوز أن يعمدوا إلا إذا اعترفوا بإيمانهم جهاراً أمام كنيسة الله) (٣).

ويذكر الأب بولس إلياس عن سر المعمودية أنها تمحو الخطيئة الأصلية في النفس وتلدها ثانية (٤).

(١) ١٥٤ - ١٤٧ . Pengadjsran Goredga Katolik pp

وانظر كتاب (وحدة الدين والفلسفة والعلم) للسيد محمود أبو الفيض ص ١٢٢.

(٣) زكي شنودة: تاريخ الأقباط ص ٨.

(٣) أنظر كذلك ١٤٥ - ١٤٧ . Pengadjaran Geredja Katolik H

(٤) يسوع المسيح ص ٢١٠.

العشاء الرباني Saciament:

يطلق عليه أيضا تناول وهو أيضا عادة أخذت عن الأديان السابقة للمسيحية (١)، ويرمز بالعشاء الرباني إلى عشاء عيسى الأخير مع تلاميذه، إذ اقتسم معهم الخبز والنيذ، والخبز يرمز إلى جسد المسيح الذي كسر لنجاة البشرية، أما الخمر فيرمز إلى دمه الذي سفك لهذا الغرض، ويستعمل في العشاء الرباني قليل من الخبز وقليل من الخمر لذكرى ما فعل بالمسيح ليلة موته وكذلك ليكون هذا طعاما روحيا للمسيحيين، فمن أكل هذا الخبز وشرب هذه الخمر استحال الخبز إلى لحم المسيح والخمر إلى دمه فيحصل امتزاج بين الأكل وبين المسيح وتعاليمه (٢) وسيأتي مزيد من الإيضاح لهذا الموضوع عند الكلام عن الاستحالة. وقد جاء في رسالة بولس لأهل كورنثوس عن العشاء الرباني ما يلي: (إن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها أخذ خبزا، وشكر، فكسر، وقال: خذوا وكلوا، هذا هو جسدي المكسور لأجلكم، اصنعوا هذا لذكري، وكذلك أعطاهم قليلا من الخمر وقال: خذوا واشربوا هذا هو دمي المسفوك لأجلكم، وإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذا الكأس تخبرون بموت الرب حتى يعود (٣))، ومن أجل هذا يعتقد المسيحيون أن الخبز يرمز إلى جسم المسيح الذي كسر لنجاة البشرية، وأن الخمر يرمز إلى دمه الذي سفك لهذا الغرض أيضا (٤).

وجاء في إنجيل يوحنا قول عيسى: والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم، ومن يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية يثبت في وأنا فيه، فمن يأكلني فهو يحيا بي (٥).

(١) عمر عنايت: العقائد ص ١٠٥.

(٢) أنظر كتاب (وحدة الدين والفلسفة والعلم، للسيد محمود أبو الفيض ١٣٢.

(٣) كورنثوس الأول ١١: ٢٣ - ٢٦.

(٤) Pengadjaran Geredja Katolik Hal . ١٩٧.

(٥) الإصحاح السادس، اقرأ الفقرات ٥١ - ٥٨.

تقديس الصليب وحمله:

إن تقديس الصليب عند المسيحيين سبق صلب المسيح نفسه، فقد ورد عن المسيح قوله (إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني (١)) ومعنى حمل الصليب عندهم هو الاستهانة بالحياة والاستعداد للموت في أبشع صورته، أي صلبا على خشبة كما يفعل بالمجرمين والآثمين. وقويت فكرة تقديس الصليب بعد صلب عيسى فأصبح أداة تذكّر المسيحيين بالتضحية الضخمة التي قام بها المسيح من أجل البشر، ومن العجيب أن الكنيسة التي تعلن الحرب على الأصنام هي بذاتها تقديس صليبيا مصنوعا من معدن أو خشب وتوصي بتقديسه (٢). قد يقول المسيحيون إن الصليب ليس إلا رمزا، ونجيبهم أن العرب في جاهليتهم الأولى قالوا عن عبادتهم للأصنام (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى (٣)) ومع هذا فقد عيبت عليهم عبادتهم للأصنام مع أنهم كانوا في عهد جاهلية. ومن الواضح أن هناك علاقة بين تقديس الصليب عند المسيحيين وبين النظم الرومانية التي كانت تجعل حمل الصليب دليلا على صدور الحكم بالإعدام صلبا، فحمل المسيحيون الصليب استعدادا لهذه الحالة، ويقول لوقا في ذلك: إن التعبير بحمل الصليب مستعار من العادة التي قضت بها الأنظمة الرومانية على المحكوم عليه بالصلب أن يحمله كل يوم.

(١) لوقا ٩: ٢٣.

(٢) عبد الأحد داود: الإنجيل والصليب ص ٨.

(٣) سورة الزمر الآية الثالثة.

المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية
تحدثنا عن العقائد المسيحية، وعن شعائر المسيحيين، ووقفنا وقفة بعد
كل من هذه العقائد وتلك الشعائر نذكر مصدرها، ونبين أنها جميعا ليست
من المسيحية الحقيقية في شيء، وأنها تعاليم دخيلة على الدين المسيحي كما علمه
عيسى بن مريم عليه السلام.

وكان من بين المراجع الكثيرة التي انتفعت بها وأنا أعد الطبعة الثانية
لهذا الكتاب، ثلاثة مراجع بالغة الأهمية. كانت كبيرة النفع في تبيان المصادر
الحقيقية للمعتقدات المسيحية التي تعلمها الكنيسة، وهذه المراجع هي:

The Life of Buddhu by Edward Thomas – ١
din – The Sources of Christianity by Khwaja Kamal – ٢
ud

Ropertson. Pagan Christs by L – ٣

أما المرجع الأول فقد عقد فصلا خاصا لمناقشة المقارنة بين البوذية
والمسيحية (١). ويتضح من هذا الفصل أن المسيحية استعارت كثيرا من
معتقداتها وشعائرها من البوذية، فالتثليث، والأقانيم، وقصة الصلب للتكفير
عن خطيئة الم بشر، والزهد، والتخلص من المال للدخول في ملكوت السموات
والرهبانية،.... كلها مستعارة من البوذية التي سبقت المسيحية بعدة
قرون.

وأما المرجع الثاني فدراسة واسعة مستفيضة حول الأصول التي انحدرت
منها عقائد المسيحية الحالية وشعائرها، وهذا المرجع يصور المسيحية ثوبا
مهلهلا تكون من مجموعة كبيرة من الرقاع، جاءت كل رقعة منها من واد،
فبعض المعتقدات انحدر من الأديان الوثنية، وبعضها من ديانة متراس،

xvll pp. Chap. ٢٣٧ – ٢٤٨ (١)

وبعضها من البوذية، وبعضها من الفلسفة الإغريقية، وبعضها من الخرافات التي يدين بها البدائيون وهكذا.

وأما المرجع الثالث فإن عنوانه: (المسيحية الوثنية) خير وهو بذلك دليل على اتجاه مباحثه.

وبجانب هذه المراجع هناك مراجع أخرى سلكت هذا السبيل، وفيما يلي صورة سريعة مستقاة من هذه الكتب، توضح لنا بدقة خطأ الادعاء الذي يرى أن هذه العقائد مستمدة من الأناجيل أو من أقوال عيسى، فقد وجدت هذه الاتجاهات قبل عيسى وقبل الأناجيل بمئات السنين.

وأول ما نورده اقتباس من الأستاذ عباس العقاد يربط بين عقائد المسيحية وعقائد البدائيين، يقول سيادته: لما كشفت أمريكا الوسطى، وجد الأسباب أقواما يتعبدون على أديان لا يعرفونها فخف القساوسة والمبشرون إلى البلاد الجديدة لبحثوا في أديانها، ويحولوا أقواما إلى العقيدة المسيحية، فأدهشهم بعد قليل من الدراسة أن يروا أن لهم شعائر على شئ من الشبه بنظائرها في الديانة المسيحية، وذلك كالتكفير عن الخطيئة، والخلاص، وغيرهما من المناسك (١).

وقد ظهرت البوذية قبل المسيحية بأكثر من خمسة قرون، ويلاحظ غوستاف لوبون تشابها واضحا بين الديانتين من ناحية الشكل ومن ناحية الموضوع، ونقتبس منه قوله: إنك تلاحظ تماثلا عجيبا من كل وجه بين صيام عيسى في البرية حيث حاول الشيطان أن يغويه ثلاث مرات، وصيام بوذا في الآجام حيث حاول الشيطان أن يغويه ثلاث مرات أيضا، ويذكرنا ما حدث لهذا الحكيم الهندوسي مع المرأة التي طلب منها أن تسقيه وهي من الطبقة الدنيا، بما حدث لعيسى مع السامرية وما قاله لها. وكلتا الديانتين

(١) عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ٦١ - ٦٢.

أمرتا بالإحسان والزهد، وكتاهما ناطتا الخطيئة بالنيات كما تناط بالأعمال، وكتاهما ابتدعتا الرهبانية، ولم تكونا سوى وجهين لحادث مهم واحد في تاريخ العالم. ويختم غوستاف لوبون هذه المقارنة بقوله: وليس مما نبالي به كثيرا أن تكون إحداهما مدينة للأخرى، فلا ندرس هذا الأمر في هذا الكتاب (١). أما نحن فإننا ندرس هذا الأمر في هذا الكتاب، ولذلك نقرر أن مسيحية بولس استعارت هذا وسواه من البوذية، فطبيعة اللاحق أن يستعير من السابق، ولا يمكن للعكس أن يكون، وبخاصة أن هذه الاتجاهات دونت قبل ظهور عيسى، وهي وليدة الحياة الهندية وسائرة في أفقها (٢). وبمناسبة الإشارة إلى بولس هنا، نقبس من *din - Khwaia Kamal ud* اقتباسا يقرر انقطاع العلاقة بين الأناجيل والكنائس، وعلى الرغم من تأثر الأناجيل برسائل بولس تأثرا جعلها لا تعارض هذه الرسائل وتكتفي بالاتجاه التاريخي عن المسيح، يقول *din - ud - Khwaja Kamal*: إذا درسنا الإنجيل دون نظر لما كتبه القديس بولس، فإننا نجد تعاليم عيسى وكلماته لا تتسق مع اتجاه الكنائس في عهدنا الحاضر (٣). فمن أين اتخذت الكنائس قدوتها؟ وما المصدر الذي استقت منه الكنائس اتجاهاتها؟

في الإجابة عن هذا السؤال يقول هذا المؤلف في طبعته الأخيرة بحروفه:
I an glad to say that none of my Church Critics have
questioned the correctnees of the facts that lead me to
conclude that most of the Furnitnue of current
Christianity
has been borrowed from Paganism

(١) حضارة الهند ص ٣٤٤ - ٢٤٥.

(٢) أنظر أديان الهند الكبرى للمؤلف.

(٣) *The Sources of Christianity* P .١٥

(يسرني أن أسجل أنه، من بين المسيحيين الذين تعرضوا لكتابي هذا بالنقد والمناقشة، لا يوجد واحد عارض الحقائق التي ذكرتها به والتي قادتني إلى أن أقرر أن أكثر تعاليم المسيحية الحالية مستعار من الوثنية (٢)).
ويروح هذا المؤلف هو و Ropertsou يذكران تفاصيل الديانات الوثنية التي استعارت المسيحية منها شعائرها وعقائدها، كما يذكر أن هذه الشعائر وتلك العقائد المستعارة، وفيما يلي بعض التفاصيل لهذه المسائل:
مقارنة العقائد الوثنية بعقائد المسيحية الحالية:

قبل ظهور المسيح كانت هناك معابد كثيرة تقدر عددا كبيرا من الآلهة فهناك مثلا آبلو الذي كان يقدسه الإغريق. وهير كوليس معبود الرومان، ومثرا معبود الفرس، وأدونيس معبود السوريين، وأوزيريس وإيزيس وحوريس معبودات المصريين، وبعل معبود البابليين، وسواهم كثيرون، وكانت هذه الآلهة تعتبر كلها من نسل الشمس، وفي هذه الأديان أو أكثرها كانت توجد المعتقدات الآتية:

- كل هذه الآلهة ينسب لها أنها ولدت في نفس الفترة [الشهر أو الموسم] التي ينسب لعيسى أنه ولد فيها.
 - كل هؤلاء ولدوا في كهف أو حجرة تحت الأرض.
 - كلهم عاشوا حياة فيها عناء من أجل الجنس البشري.
 - كلهم كانوا ينعنون، المخلص - المنقذ - الوسيط.
 - كلهم قهروا بقوى الشر والظلام.
 - ألقى بهم بعد هزيمتهم في المدافن أو النيران السفلى.
 - هبوا جميعا من مدافنهم بعد الموت وصعدوا إلى عالم السماء.
 - أسسوا جميعا خلفاء لهم ورسلا ومعابد.
- ويتضح من هذا أن المسيحية اقتبست كل هذه المعتقدات (٢)، ويمكن أن

xl. Ibid p (١)

The Sources of Christianity pp .٢٩ - ٣٠ (٢)

نعطي تفاصيل أوسع عن أحد المعتقدات السابقة لنرى مدى صلة المسيحية بها:
متراس: هذه الديانة فارسية الأصل، وقد ازدهرت في بلاد فارس قبل
الميلاد بحوالي ستة قرون، ثم نزحت إلى روما حوالي سنة ٧٠ ق. م،
وانتشرت في بلاد الرومان، وصعدت إلى الشمال حتى وصلت بريطانيا، وقد
اكتشفت بعض آثارها في مدينة يورك ومدينة شستر وغيرهما من مدن
إنجلترا، وتذكر هذه الديانة أن:

- مثرا كان وسيطا بين الله والبشر.
 - وأن مولده كان في كهف أو زاوية من الأرض.
 - وأنه ولد في الخامس والعشرين من ديسمبر.
 - كان له اثنا عشر حواريا.
 - مات ليخلص البشر من خطاياهم.
 - دفن ولكنه عاد للحياة وقام من قبره.
 - صعد إلى السماء أمام تلاميذه وهم يتهلون له ويركعون.
 - كان يدعى مخلصا ومنقذا.
 - ومن أوصافه أنه كان كالحمل الوديع.
 - كان أتباعه يعمدون باسمه.
 - وفي ذكراه كل عام يقام عشاء مقدس (١).
- ويقول Ropertson إن ديانة متراس لم تنته في روما إلا بعد أن انتقلت
عناصرها الأساسية إلى المسيحية (٢).
مقارنة بين محاكمة بعل ومحاكمة عيسى:
وإذا كانت ديانة متراس قد أمدت المسيحية بهذه التعاليم فإن ديانة
بعل إله البابليين كانت معينا للمسيحية في موضوع هام من موضوعاتها

(١) ٣٣٨ pagan christs p: Ropertson

(٢) Ibid :٣٥٠

العاطفية، ذلك هو قصة محاكمة عيسى وصلبه، وقد وضع البابليون قصة محاكمة بعل في تمثيلية مؤثرة كانت تمثل كل عام قبل مولد المسيح بقرون عديدة، وكانت تمثيلية حافلة بالغموض والحزن، وقد اكتشف في مطلع هذا القرن بأرض باب لوحتان يرجع تاريخهما إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وسجلت عليهما قصة محاكمة بعل ونهايته. وقد أخذ اليهود إلى سجن بابل منذ عهد بختنصر، وهناك رأوا هذه التمثيلية تعرض كل مطلع ربيع، وعندما عاد اليهود إلى ديارهم كانت هذه القصة عالقة بأذهانهم ومؤثرة في حياتهم، فانعكست على آدابهم وعلى حياتهم العامة، وعقب نهاية المسيح ظهرت تمثيلية بعل بنفس عناصرها مع اسم جديد وضع مكان بعل وهذا الاسم هو المسيح، حتى ليتمكن القول أن قصة صلب المسيح كما توردها الأناجيل هي قصة منتحلة تماما، وفيما يلي بعض عناصر التشابه بين القصتين:

محاكمة بعل

محاكمة عيسى

- ١ - أخذ بعل أسيرا
 - ٢ - حوكم بعل علنا
 - ٣ - جرح بعل بعد المحاكمة
 - ٤ - اقتيد بعل لتنفيذ الحكم على الجبل
 - ٥ - كان مع بعل مذنب حكم عليه بالإعدام، وجرت العادة أن يعفى كل عام عن شخص حكم عليه بالموت، وقد طلب الشعب إعدام بعل والعفو عن المذنب الآخر
 - ٦ - بعد تنفيذ الحكم على بعل عم الظلام وانطلق الرعد واضطرب الناس
- أخذ عيسى أسيرا
وكذلك حوكم عيسى
اعتدي على عيسى بعد المحاكمة
اقتيد عيسى لصلبه على الجبل
وكان مع عيسى قاتل اسمه باراباس
محكوم عليه بالإعدام، ورشح
بيلاطس عيسى ليعفى عنه كالعادة

كل عام، ولكن اليهود طلبوا
العفو عن باراباس وإعدام عيسى
عقب تنفيذ الحكم على عيسى
زلزلت الأرض وغامت السماء

محاكمة بعل

٧ - حرس بعل في قبره حتى

لا يسرق أتباعه جثمانه

٨ - إلهات جلسن حول مقبرة بعل

بيكينه

٩ - قام بعل من الموت وعاد إلى

الحياة مع مطلع الربيع وصعد

إلى السماء

محاكمة عيسى

وحرس الجنود مقبرة عيسى حتى

لا يسرق حواريوه جثمانه

مريم المجدلية ومريم أخرى جلستا

عند مقبرة عيسى تنتحيان عليه

قام عيسى من مقبرته في يوم أحد

وفي مطلع الربيع أيضا وصعد

إلى السماء (١) مقارنة بين حياة بوذا وحياة عيسى:

وهناك مقارنة أخرى، هذه المرة بين بوذا وبين عيسى، وقد أورد

هذه المقارنة كل من Doane. W. T (٢) و Ddward Thomas (٣) و

din - ud - Kamal (٤) Khwaja و فيما يلي خلاصة

ما ذكره هؤلاء المؤلفون.

بوذا

١ - عند مولد بوذا ظهر نجم في

السماء يبشر به، وقد رئي هذا

النجم يسير نحو مكان مولده،

وتبعه من رآه ليسجدوا للوليد

٢ - ولد بوذا في اليوم الخامس

والعشرين من ديسمبر كما تذكر الأساطير الهندية

عيسى

وعند مولد عيسى ظهر هذا النجم

أيضا يبشر بمولد المخلص وقاد

جماعات المجوس نحو مكان ولادته

فأوا الطفل وسجدوا له

ولد عيسى في الخامس والعشرين
من ديسمبر أيضا

The Sources of Christinanity: din - ud - Khwaja Kamal (١)
pp .٤٤ - ٤٩

٢٨٧ Bible Mythology pp - ٢٩٧ (٢)

The Sources of .٦٢ - ٧٠ (٤) The Life of Buddha pp .٢٣٧ - ٢٤٨ (٣)
Christianity pp

بوذا

٣ - عند مولد بوذا احتفلت الملائكة

بولادته وسبحت بحمده قائلة

إن المبارك قد ولد اليوم ليمنح

السلام للناس والمسرة للأرض

٤ - كان مولد بوذا خطرا على

الملك والسلطان فهدده ملك

بنباسارا وأراد قتله، حتى

لا يكون سببا في القضاء على

سلطانه.

٥ - وعندما كان بوذا على وشك

أن يبدأ دعوته ظهر له الشيطان

(Mara) ليحاول تضليله.

٦ - قال مارا لبوذا: ابتعد عن

الدعوة الدينية وتصبح

إمبراطور العالم.

٧ - ولم يهتم بوذا بمارا وصاح

به: ابتعد عني.

٨ - وبعد أن انتصر بوذا على مارا

أمطرت السماء زهورا وعبق

الهواء بعبير طيب.

٩ - وصام بوذا فترة طويلة.

عيسى

وعند مولد عيسى ظهرت الملائكة

في الجو مسبحة في الحقول بالقرب

من بيت لحم، وكانت تسبح

بحمد (المبارك) وتقول: للناس

المسرة وعلى الأرض السلام.

وكان عيسى خطرا كذلك على

ملك هيرودوس ولذلك أراد هيرودوس قتله لولا أنه فر إلى

مصر مع أمه.

وعند بدء دعوة عيسى ظهر له

الشيطان (The Devil) محاولا

تضليله.
وقال الشيطان لعيسى: إذا عبدتني
سأجعلك ملكاً على العالم كله.
ولم يسمع عيسى لكلمات الشيطان
وصاح به: اخساً أيها الشيطان.
وبعد أن انتصر عيسى على الشيطان
هبطت الملائكة لعيسى وكرمته.
وصام عيسى أربعين يوماً بلياليها.

بوذا

١٠ - وتعمد بوذا بالماء المقدس، وفي أثناء تعميده كانت روح الله حاضرة وكذلك روح القدس.
١١ - وتقبل صلاة البوذيين وتقودهم إلى الفردوس ما دامت تقدم باسم بوذا

١٢ - وعندما مات بوذا ودفن شق قبره بقوة من قوى ما فوق الطبيعة وعاد للحياة.

١٣ - وصعد بوذا إلى السماء بعد أن أتم دعوته على الأرض.

١٤ - وسيعود بوذا إلى الأرض في آخر الزمان ليواصل دعوته ويستعيد مجده ويملاً الأرض سعادة ونعيمًا.

١٥ وسيوكل حساب الناس إلى بوذا بعد البعث.

١٦ - وبوذا لا أول له ولا نهاية وهو خالد.

١٧ - ويروى عن بوذا أنه قال: إنني أحمل سيئات البشر عنهم ليصلوا إلى السلامة.

عيسى

وعمد يحيى عيسى في نهر الأردن وكان ذلك أيضا في حضرة روح الله وروح القدس.

وتقبل صلاة المسيحيين ما دامت باسم عيسى وينالون بسببها الفردوس. وعندما مات عيسى ودفن أزاحت قوة من قوى ما فوق الطبيعة الحجارة عن قبره وعاد عيسى إلى الحياة. وصعد عيسى كذلك بعد انتهاء

دعوته على الأرض.
وسيعود عيسى كذلك ليحكم
الأرض من جديد وينشر دعوته
ويملاً الأرض بالخير والسلام.
وسيؤكل لعيسى أيضاً أن يحاسب
الناس في الدار الآخرة.
وعيسى لا أول له ولا نهاية وهو
خالد كالأب.
وعيسى مخلص البشر الذي قدم
نفسه فداءً ليكفر عن خطيئة أبيهم آدم.

١٨ - ويروى عن بوذا قوله: أخف

أعمالك الطيبة وأعلن على

الناس سيئاتك التي ترتكبها.

١٩ - وأوصى بوذا أتباعه بالشفقة

والحب حتى مع أعدائهم.

٢٠ - ونصح بوذا حواربيه وأتباعه

أن يطرحوا الدنيا جانبا

ويتنازلوا عن غناهم ويؤثروا

الفقر ليقبلوا في الدعوة.

٢١ - وكان هدف بوذا الأسمى أن

يكون ما سمته الفلسفة البوذية

ملكوت السماء.

٢٢ - ونادى بوذا بعدم الزواج

وشبه الزواج بالاحتراق في

الفحم، ولم يجزه إلا عند خوف

الزنا.

ومما علمه عيسى لأصحابه أن يخفوا أعمالهم الطيبة ويعلنوا مساوئهم
وخطاياهم.

وقال عيسى لأتباعه: أحبوا أعداءكم

وباركوا لأعنيكم وأحسنوا لمن

يبغضكم.

واشترط عيسى على من يريد

دخول الدعوة أن يتصدق بماله

ويؤثر الفقر ليدخل ملكوت الله.

ودعا عيسى منذ مطلع رسالته أتباعه

ليدخلوا ملكوت السماء.

ويقرر الفكر المسيحي أنه من

الأفضل للرجل ألا يمس امرأة

ولكن إذا خاف الزنا جاز له أن

يتزوج فالزواج خير من الاحتراق

بالنار.

ولم تكنف المسيحية باقتباس الأحداث وإنما اقتبست أيضا الأيام
والتواريخ، فمولد عيسى وصلبه وعودته للحياة تقع في أيام تتفق تماما مع

أحداث وثنية ترتبط بمثل هذه الأيام كما سبق القول (١).
أما حادثة العشاء الرباني التي سبق أن أوردناها فهي بتفاصيلها الدقيقة
واردة في ديانة متراس حذوك النعل بالنعل كما يقولون (٢).

The Sources of Christianity (١)
The Christinanity P: Justin Martyr . ١٤ (٢)

وبعد، فقد اتضحت لنا المصادر الحقيقية للمسيحية الحالية، ونقرر هنا بيقين أن هذا ليس خافيا على الكهنة المسيحيين الذين يقودون هذا الركب، ويقول الأستاذ محمد فؤاد الهاشمي القسيس الذي أسلم:

إن المسيحية في أصولها دين سماوي جاء به المسيح من عند الله، ولكن الكهنة في كل زمان ومكان كانوا يحتكرون الأسرار لأنفسهم، تلك الأسرار التي لو كشفنا عنها لتبين أنهم يعرفون الحق ويحيدون عنه، وإنه ليمنعني من الدخول في أسرار الكنائس عديد من الاعتبارات سوف تزول ويأتي الوقت الذي نفصح فيه عن كل شيء (١).

وأنا بدوري أرجو أن يفصح الأستاذ الهاشمي عما عنده من أسرار، فلقد قادته هذه المعرفة إلى الهداية وأصبح عليه أن يعمل لهداية الآخرين. الكنيسة في خدمة السياسة الغربية:

ويتصل بالمصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية مصدر جديد تمارسه الكنيسة هذه الأيام، أي بعد انحسار الاستعمار الغربي، فإن الدول الاستعمارية أوحت للكنائس بمبادئ جديدة لتضعها الكنيسة ضمن المعتقدات المسيحية بالنسبة للدول النامية وحدها، ففي ذلك حفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه من تسلط الغرب على الدول النامية.

ويندهش الباحث عندما يرى كبار رجال الكنائس يتناسون المسيحية ومبادئها الأصيلة السمحة، ويجندون أنفسهم لخدمة الاستعمار، وهم يتخذون الدين المسيحي وسيلة للضغط على الشعوب المسيحية النامية حتى لا تتطور، وحتى تبقى بمنأى عن الرقي والتصنيع والتقدم، وإذا كانت الكنيسة في الغرب تفر مبدأً فصل الدين عن الدولة، فإنها لا تفر ذلك بالنسبة لبلاد الشرق، ليظل كلام الكنيسة سيفاً مصلتا على الرقاب، وإذا كانت الكنيسة في الغرب

(١) الأديان في كفة الميزان ص ٤٦.

تبارك التصنيع، فإنها تعارضه في الشرق، لأن العامل - في زعمها - يعتبر نفسه خالقا وهذا يتنافى مع الإيمان واعتبار الإنسان مخلوقا. وترى الكنيسة أن الثروة التي ستعود على البلاد من التصنيع ستجلب الشر على المسيحيين بالبلاد النامية، لأن ارتفاع مستوى المعيشة تصحبه كثرة الخطايا والشور.

وترى الكنيسة أن التقدم لن يتم إلا بالتضحية بالتراث والتقاليد الموروثة، ولذلك فهي تقرر أن الاحتفاظ بالتراث والتقاليد خير من التقدم الاقتصادي. وتتخذ المجالس الكنيسة العليا وسيلة لرعاية هذه السياسة الظالمة.

لست أنا الذي أقول هذا القول، وإنما هي كلمات مسيحي مثقف هو الدكتور رمزي فهيم، فقد هاله ذلك الدور الذي تقوم به الكنيسة في هذا المجال، فكتب لصحيفة الأخبار يقول (١).

(منذ عدة سنوات كنت أقرأ عن اجتماعات وقرارات مجلس الكنائس العالمي، ولقد فوجئت حين وجدت أن ما يتعرض له من مسائل ليست من الموضوعات الدينية التي ينتظر أن تكون هي موضوع اهتماماته، فمثلا عقد المجلس مؤتمرا في مدينة سالونيك باليونان سنة ١٩٥٩، قرر فيه أن السياسة هي المجال الذي يتحتم على الكنيسة في دول إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية أن تعمل فيه، والغريب أن المجلس يقرر في نفس المؤتمر أن المبدأ الغربي الذي يقضي بفصل الدين عن الدولة لا يمكن اقتباسه في الدول النامية، وهنا يثور التساؤل: هل هناك نوعان من المسيحية أحدهما يطبق في بلاد الغرب والآخر (يفبرك) بواسطة (الخبراء) ليعمل به في الدول النامية.

(ويتابع هذا المؤتمر قراراته فيطالب الكنائس في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية أن تراقب خطط التنمية، فتميز فيها بين ما يتفق وإرادة الله وبين

(١) صحيفة الأخبار في ١١ إبريل سنة ١٩٦٦.

عمل الشيطان، وأن تكون رقيبة تعلن للقوم أين يقف الله ومن أين يطل إبليس العدو.

(أما كيف يمكن أن يكون في خطط التنمية مكان للشيطان، فإن المجلس يعثر على إبليس في عملية التصنيع بالذات التي تقوم بها حاليا الدول النامية، فهو يرى أن الانتاج الذي يحققه التصنيع يملأ النفس غرورا فيعتبر العامل نفسه أنه الخالق الذي يستغني عن كل إله آخر. أما الله فإن مكانه في نظر المجلس هو في الحقل وفي القرية، بحيث أن الانتقال من العمل الزراعي إلى الصناعة - وهو الأمل الذي تحاول الدول النامية الوصول إليه لحل مشكلاتها الاقتصادية - هذا الانتقال يترتب عليه أفدح الأضرار بالإيمان الديني وبالعائلة.

(بل يصل استخفاف المجلس بوطنية المواطنين في البلاد النامية، وبفهمهم للدين، إلى الحد الذي يقرر فيه في مؤتمر نيودلهي الذي عقد سنة ١٩٦١ أن الكنيسة يجب أن تكون متأهبة للصراع مع الدولة في أي وطن وتحت أي نظام سياسي.

(والمواقع أن المجلس يحاول في النصف الثاني من القرن العشرين أن يقنع المواطنين في الدول النامية بالمحافظة على مستواهم الاقتصادي الذي حددته لهم الدول التي كانت تستعمر بلادهم وتستغل مواردهم، فبعد أن يعدد المجلس سوءات التصنيع وخطط التنمية، مشيرا كل ما يخطر على البال من صعوبات ومعوقات في طريق تنفيذها، يعود للقول بأنه حتى بفرض إمكانية تحقيق ما تصبو إليه هذه الدول فإن التقدم الاقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة ستأتي معهما بالضرورة كثرة من الخطايا والشور فنحن مدنسون بالشر حتى إننا نجد صعوبة في التعرف على ما يريد الله أن نعمله بمستوى المعيشة العالي حين نصل إليه.

(بل إننا نقرأ في كتابات أقطاب هذا المجلس أنهم يحاولون وضع التقاليد والتراث الشعبيين في مواجهة التقدم الاقتصادي والسياسي، ويقولون إن

التقدم لن يتم إلا على حساب التراث وأن الشعوب حين يطلب إليها أن تختار بين التقدم والمحافظة على القديم ستختار دون تردد قديمها بسبب ما يتطلبه التقدم الاقتصادي من جهود وتضحيات).

ولعل هذه المصادر المصطنعة هي التي أوحى إلى Wells بأن يورد مقارنة قصيرة بين الإسلام من جانب والبوذية والتاوية والمسيحية من جانب آخر، استمع إليه يقول بعد أن تكلم عن طرد البوذية من الهند:
أصبح الآريون تحت سلطان دينين هما المسيحية والإسلام، وهما ساميان خالصان، وتتخذ البوذية والتاوية والمسيحية على السواء أثوابا من الطقوس والمراسم التي يلوح أنها مستقاة عن الهلنيين، من مصر، أرض المعابد والكهانات، ومن العقلية الأشد بدائية وأولية، عقلية الشعوب الحامية السمرية (١).

The Outline of History vol .٢ P .٤١٥ (١)

طبيعة المسيح والآراء حولها
إن تقرير ألوهية المسيح لم يكن عملاً سهلاً، بل كان عملاً معقداً، سبب
كثيراً من الاختلافات والاتجاهات، لا بين من قالوا به وبين من أنكروه
فحسب، بل بين الجماعات التي اتفقت على المبدأ واعتنقته، ثم عادت تفكر
فيه، وعلى هذا أوجدت المشكلة مجالاً للتفريق بينهم، وقد تحدثنا فيما سبق عن
الاختلافات بين من قالوا بألوهية المسيح وبين من أنكروا هذا المبدأ، ونريد
هنا أن نتحدث عن الاختلافات التي حصلت بين الطوائف التي اجتمعت حول
القول بألوهية المسيح.

وكان مصدر الاختلافات بين هؤلاء هو التفكير في طبيعة المسيح للتوفيق
بين الألوهية التي صدر بها قرار وأصبحت بموجبه اعتقاداً ملزماً، وبين الواقع
وهو أن عيسى بن مريم كان يمشي على الأرض، وكان يأكل كما يأكل الناس،
ويتحدث كما يتحدثون، وكان على العموم إنساناً في مظهره على الأقل، ومرة
أخرى اتخذ المسيحيون المجامع وسيلة للحديث عن طبيعة المسيح كما اتخذوها من
قبل وسيلة لإثبات ألوهيته، وستحدث فيما يلي عن آراء المسيحيين حول طبيعة
المسيح. وأهم الاتجاهات التي اتجهوا إليها في ذلك ثلاثة:

١ - مذهب النسطوريين نسبة إلى نسطور الذي كان بطريرك القسطنطينية
سنة ٤٣١، ومذهب النساطرة محاولة للعودة إلى التوحيد أو للقرب منه،
ويقول نسطور (١) شارحاً مذهبه: إن مريم لم تلد إلهاً، لأن ما يولد من
الجسد ليس إلا جسداً، ولأن المخلوق لا يلد الخالق، فمريم ولدت إنساناً
ولكن كان آله لللاهوت. وعلى هذا فمريم لا تسمى والدة الإله بل والدة
المسيح الإنسان، وقد جاء اللاهوت لعيسى بعد ولادته، أي اتحد عيسى

(١) زكي شنودة: تاريخ الأقباط ص ١٥٩.

بعد الولادة بالأقنوم الثاني اتحادا مجازيا فمنحه الله المحبة ووهبه النعمة. وقد وضع نسطور بذلك الأساس للقول بطبيعتين في المسيح، ذلك القول الذي سيتبناه الكاثوليك والذي سنشرحه فيما بعد، ونبين اتفاهه وعدم اتفاهه مع رأي نسطور، أما الكنائس الشرقيه فقد اتخذت موقفا معارضا لنسطور وقالت بطبيعة واحدة... كما سيأتي.

وعلى الرغم من طرد نسطور من منصبه ونفيه (١)، فإن مذهبه لم يمت، وأحياه فيما بعد عالم مسيحي اسمه برصوما كان مطران نصيبين، ومن ثم انتشر في الشرق، ولا يزال حتى الآن شائعا في العراق والموصل والجزيرة.

٢ - مذهب الكنائس الشرقيه (الأرثوذكس). ويجدر بنا أن نشرح هذا المذهب قبل أن نشرح مذهب الكاثوليك، إذ كان مذهب (الأرثوذكس) رد فعل لعقيدة نسطور، ثم إنه أعلن قبل أن يعلن الكاثوليك اتجاههم.

وقد أعلن مذهب الأرثوذكس عن طبيعة المسيح في مجمع عقد لهذا الغرض بمدينة إفسس بالأناضول سنة ٤٣١ واتخذ المجمع قرارا يوافق عقيدة البابا كيرلس بطريك الإسكندرية، وهو يقضي بأن المسيح طبيعة واحدة ومشية واحدة، ففي المسيح أقنوم واحد تم بعد الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج، ولذلك فالعذراء تدعى بحق والدة الإله، وفيما يلي نص كلمات الباب كيرلس سابق الذكر: إن لسيدنا يسوع المسيح أقنوما واحدا إلهيا اتحد بالطبيعة الإنسانية اتحادا تاما بلا اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة، فالعذراء والحالة هذه هي بحق والدة الإله، فمريم لم تلد إنسانا عاديا بل ابن الله المتجسد، لذلك هي حقا أم الله (٢).

(١) سار نسطور إلى مصر بعد النفي وأقام باخميم حتى مات.

(٢) زكي شنودة. تاريخ الأقباط ١٦٠ - ١٦٠.

وقد يسمى هذا المذهب بالمذهب اليعقوبي نسبة إلى داعية مشهور اسمه يعقوب البرادعي قام بالدعوة له ونشره.

وكان هذا الاتجاه حول طبيعة المسيح من الأسباب التي فصلت الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية.

٣ - مذهب الكاثوليك وهو مذهب الطبيعيين والمشيئتين وقد اعتنقته كنيسة روما، واتخذت به قرارا في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١، وهذا المذهب يقول بأن للمسيح طبيعتين ومشئتين، فالمسيح أقنوم إلهي بحت، ولكن له ذاتان وكيانان هما الإله والإنسان، ومن الواضح أن هذا القول متأثر إلى حد ما باتجاه نسطور سالف الذكر الذي يرى بأن المسيح إنسان غمره اللاهوت بعد ولادته، ولكن الكاثوليك يختلفون عن نسطور في اعتقادهم أن مريم ولدت الاثنين جميعا، فهي قد ولدت يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة الإلهية ومع الناس في الطبيعة الإنسانية، فهو طبيعتان ومشئتان وأقنوم واحد، وقد حضر زوج الملكة مجمع خلقيدونية ولذلك يسمى هذا المذهب بالمذهب الملكاني.

٤ - المذهب الماروني نسبة إلى رجل اسمه يوحنا مارون دعا سنة ٦٦٧ إلى أن للمسيح طبيعتين ولكن له مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعيين في أقنوم واحد، ولكن البطارقة لم يقبلوا ذلك وأشاروا على الإمبراطور أن يعقد مجمعا، فعقد مجمع بالقسطنطينية سنة ٦٨٠ وقرر أن للمسيح طبيعتين ومشئتين، ولعن كل من يقول بغير ذلك.

الحواريون والرسل
الحواريون هم أولئك الذين آمنوا بعميسى وعاونوه وتعلمذوا عليه وعددهم
اثنا عشر، وهم كما ذكر متي (١):

- ١ - سمعان المعروف باسم بطرس. ٢ - اندراوس أخو سمعان.
 - ٣ - يعقوب بن زبدي. ٤ - يوحنا أخو يعقوب.
 - ٥ - فيليبس. ٦ - برثولماوس.
 - ٧ - توما. ٨ - متي العشار.
 - ٩ - يعقول بن حلفي. ١٠ - لباوس الملقب تداوس.
 - ١١ - سمعان القانوني (الغيور). ١٢ - يهوذا الإسخريوطي.
- وهناك الرسل السبعون الذين يقال إن المسيح اختارهم وأرسلهم ليعلموا
المسيحية.

وهناك المائة والعشرون الذين خطب فيهم بطرس خطابا امتثتوا بعده
بالروح القدس وراحوا يدعون للمسيحية، وعن طريق هؤلاء المائة والعشرين
اختير بالقرعة بديل ليهوذا الخائن فوقعت القرعة على مقياس، فأكمل الاثني
عشر (٢). وسيأتي مزيد من الكلام عن الحواريين والرسل، وعن صحة ما نسب
لهم من كتب، وما أسند إليهم من إلهام.

(١) الإصحاح العاشر: ٢ - ٤.

(٢) أعمال ٢: ١٣ - ٢٦.

المجامع هيئات شورية في الكنيسة المسيحية، رسم الرسل نظامها في حياتهم، إذ عقدوا المجمع الأول في أورشليم سنة ١٠٥ م برياسة الأسقف (يعقوب الرسول) للنظر في ختان الأممي (غير اليهود) ومن ثم نسحت الكنيسة على منوالهم.

والمجامع قسمان: مجامع مسكونية [أي عالمية وكلمة مسكونية نسبة إلى الأرض المسكونة] ومجامع محلية أو مكانية، وقد عقدت المجامع المسكونية عدة مرات في القرون الأولى، وشهدتها ممثلوا الكنائس من جميع الأقطار وكان السبب الرئيسي لعقدها ظهور مذاهب دينية غربية ينبغي فحصها وإصدار قرارات بشأنها وشأن مبتدعيها، وقد عقد من المجامع المسكونية ثمانية، من أهمها مجمع نيقية ومجمع القسطنطينية الأول، وفيهما تقرر العقائد الرئيسية للمسيحية، التي تلتقي حولها جميع الفرق والمذاهب المسيحية، وأما المجامع المكانية فكثيرة، وكانت الكنائس ولا تزال تعقدها في حيزها الخاص لإقرار عقائد معينة، أو رفض بعض العقائد، أو للنظر في بعض الشؤون المحلية (١). ولعل من الخير ونحن على ذكر بكثير من المجامع أن نلم إمامه قصيرة شاملة بأهم المجامع المسيحية، مسكونية أو محلية، وأن نبين ما اتخذته من قرارات، وفيما يلي هذا الحديث:

١ - مجمع نيقية Nicaes سنة ٣٢٥ وكان عقده ردا على الوجدانية التي تزعم أريوس القول بها، ويعد مؤتمر نيقية أهم المجامع المسيحية، إذ اتخذت فيه أخطر القرارات، وكان عقده بأمر الإمبراطور قسطنطين الكبير، وقد سبق أن ذكرنا أن عدد الذين حضروه أولا من الآباء الروحانيين ٢٠٤٨ وأن الخلاف اشتد بينهم حول القول بألوهية المسيح ووصل الخلاف إلى المعارك، وتبنت الأغلبية الساحقة رأي أريوس، فأصدر الإمبراطور قراره بفض

(١) زكي شنودة: تاريخ الأقباط ص ١٦٨ - ١٦٩.

الاجتماع، ثم أعيد عقد الاجتماع عقب ذلك ولم يحضره إلا الأعضاء القائلون بالتثليث وبألوهية المسيح وعددهم ٣١٨ وحضر الإمبراطور نفسه هذا الاجتماع، واتخذت فيه قرارات خطيرة وضعت الأساس للمسيحية التي لا تزال تتبعها الكنائس، وأهم هذه القرارات ما يلي:

(أ) القول بالتثليث وبألوهية المسيح ونزوله ليصلب تكفيرا عن خطيئة البشر.

(ب) عدم التصريح لمن يترمل من الكهنة بأن يتزوج مرة أخرى. كي يكون كل منهم كما قال بولس الرسول (بعل امرأة واحدة).

(ج) اختار المجمع الكتب المقدسة التي لا تتعارض مع القرارات السابقة وقرر تدمير ما عداها من الرسائل والأنجيل.

٢ - مجمع صور الإقليمي الذي عقد بعد ذلك ببضع سنوات وقرر وحدانية الله وأن المسيح رسوله، فكان بذلك تجديدا لرأي أريوس القائل بالوحدانية، وهذا المجمع لم يعترف به.

٣ - مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ م وقد قرر هذا المجمع أن روح القدس إله.

٤ - مجمع إفسس الأول Ephesus سنة ٤٣١ م الذي تحدثنا عنه آنفا والذي تقرر فيه أن المسيح طبيعة واحدة ومشية واحدة، وأن العذراء ولدت إلهًا وتدعى لذلك أم الإله، وكان ذلك ردا على حركة نسطور.

٥ - مجمع إفسس الثاني سنة ٤٤٩ م وقد دعا لعقده بطريك الإسكندرية (ديسقورس) واتخذت فيه قرارات بحرمان بعض البطارقة، ولم تعترف كنيسة روما بهذا الحرمان ولا بقرارات هذا المجمع.

٦ - مجمع خلكيدونية Chalecodon سنة ٤٥١ م وقد أيد هذا المجمع قرار مجمع إفسس الأول ورفض قرار مجمع إفسس الثاني، ولعن نسطور وديسقورس وأتباعهما، وكان هذا المجمع قد عقد أولا في القسطنطينية ثم

انتقل إلى خلقيدونية، وقد حضره أساقفة روما، كما حضره البابا ديسقورس بطريك الإسكندرية ومعه أساقفته. وقد اشتد الخلاف بين الفريقين في اليوم الأول، حتى إذا كان اليوم الثاني منع البابا ديسقورس وأساقفته بالقوة من حضور الجلسة، واتخذ المجتمعون قرارا يقول بالطبعتين والمشيتتين، ورفض ديسقورس طلب الإمبراطور الموافقة على هذا القرار، فنفاه الإمبراطور بعيدا عن مصر حيث مات في منفاه، وقد ظل أقباط مصر حتى الآن يرفضون قرارات هذا المجمع ويدينون بالولاء لبطريك الإسكندرية (١).

٧ - مجمع القسطنطينية الثاني سنة ٥٥٣ م وقد أيد قرارات مجمع نيقية ومجمع القسطنطينية الأول ومجمع خلقيدونية ولعن وطرد أصحاب الفكرة التي شاعت حينئذ عن تناسخ الأرواح وأن شخص المسيح لم يكن حقيقة بل خيالا.

٨ - مجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠ وقد قرر هذا المجمع أن للمسيح طبيعتين ومشيتتين، وكان ذلك ردا على المذهب الماروني الذي كان يقول بطبعتين ومشيتة واحدة.

٩ - مجمع رومة سنة ٨٦٩. وفي هذا المجمع تقرر:

(أ) اعتبار الروح القدس منبثقا من الأب والابن.

(ب) من يريد المحاكمة في أمر يتعلق بالمسيحية يرفع دعوى إلى كنيسة روما.

(ج) المسيحيون في جميع بلاد العالم يخضعون لقرارات رئيس كنيسة روما.

١٠ - مجمع القسطنطينية الذي عقد سنة ٨٧٩ برياسة فوسسيوس بطريك كنيسة القسطنطينية وفيه تقرر أن انبثاق الروح القدس من الأب فقط،

(١) زكي شنودة: تاريخ الأقباط ص ١٧٦ - ١٧٧.

وبهذا المجمع وسابقه تم انقسام الكنيسة إلى غربية وشرقية، وأصبحت المجمع خاصة بإحدهما وتبطل قرارات الأخرى ولا تعترف بها.
١١ - مجمع رومة الذي عقد سنة ١٢٢٥ وفيه تقرر أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء.

١٢ - مجمع رومة سنة ١٨٦٩ وفيه تقرر أن البابا معصوم. ومن الواضح للباحث أن هذه المجمع اتخذت سلطة قوية وقررت قرارات تعتبر أصولاً في الدين المسيحي، إنها صنعت الآلهة، وتحدثت عن طبيعتها، ومنحت الكنيسة سلطة محو السيئات، وقررت عصمة البابا، وتلك كما ترى أشياء ضخمة لا يتصور الإنسان أنها من خصائص النشر.

لقد أخذت المجمع سلطة لم تعرفها أكثر الأديان أو كلها، ففي الإسلام مثلاً للعلماء أن يجتهدوا، ولكن في الفروع، أما عدد الصلوات وعدد الركعات وفرائض الحج وأمثالها فلا تخضع للاجتهاد، وليس للمسلمين أن يشرعوا فالشارع هو الله العلي العظيم. والمسلمون بعيدون جداً عن صنع الآلهة والله وحده - عند المسلمين - هو غافر الذنوب وقابل التوب شديد العقاب ذو الطول، والعصمة لله وحده، وليس للأنبياء مع عظيم مكاتبتهم عصمة إلا في التبليغ وفقاً لرأي أغلب العلماء (١).

وهناك نقد سياسي يوجهه النقاد إلى قرارات المجمع التاسع (مجمع رومة سنة ٨٦٩) إذ تقرر في هذا المجمع أن جميع المسيحيين في جميع بلدان العالم يخضعون لقرارات رئيس كنيسة روما، ومثل هذا القرار يعتبر خطراً للغاية، إنه تدخل سافر في شؤون الأمم واستقلال الدول، فمعناه أن المسيحيين أياً كانت بلادهم يتبعون حكوماتهم بأجسامهم ويتبعون كنيسة روما بأرواحهم، وقد كان البابا يخضع الملوك والحكومات إليه باسم هذا القرار،

(١) أنظر كتاب (الإسلام) للمؤلف ص ١٠٢ - ١٠٥ من الطبعة الثالثة.

فتمردت بعض الحكومات على هذا الوضع وأعلنت أنها لا دينية، فاتجه البابا بقراره إلى الرعايا بعد أن عجز عن إخضاع الحكومات، وفي العصر الحديث نجد البابا يساوم بهذه السلطة التي بيده، فقد حدث أن قابل البابا رئيس إحدى الدول الشرقية وطلب البابا من هذا الرئيس السماح لعدد أكبر من المبشرين بدخول بلاده، ووعدته نظير ذلك أن يضمن له ولاء المسيحيين بهذه البلاد، وقد أثار هذا التصريح ثائرة المواطنين بهذا القطر عندما أدركوا أن ولاء المسيحيين من مواطنيهم إنما هو في يد رئيس كنيسة روما. ويعد من أصدق القول ما كتبه الأستاذ زكي شنودة في تعليقه على (المجامع) ونحن نقتبسه فيما يلي:

(كانت هذه المجامع في بداية أمرها وسيلة للدفاع عن الإيمان المسيحي، ثم لم تلبث أن أصبحت بعد ذلك أداة في يد الإمبراطور، لتنفيذ أغراضه، مستغلا في ذلك مطامع بعض الأساقفة وطموحهم إلى الجاه والنفوذ والسلطان، وهكذا أصبحت المجامع أداة هدم بعد أن كانت أداة بناء، وقد فتحت الباب على مصراعيه للخصومة والشقاق بين المسيحيين في البلاد المختلفة (١)). ولعل من المفيد هنا أن نترجم فصلا قصيرا من كتاب (تعاليم الكنيسة الكاثوليكية) لنعرف بوضوح مكان الكنيسة عند المسيحيين، وكيف أن سلطان كنيسة روما انساب إلى الكنائس الأخرى، ليس فقط في الاجتهاد والتشريع وشرح الكتاب المقدس وغيرها مما احتفظت به كنيسة روما لنفسها، بل في وجوب طاعة المسيحيين للأساقفة والآباء الروحانيين دون تفكير، كما يطيعون الله وكما أطاع عيسى أباه على حد قولهم، ومن العجيب أن المسيحيين جعلوا عيسى إلها، ثم جعلوا الأساقفة في مقام عيسى أي أحلوهم أيضا محل الآلهة، فمقام الآلهة عندهم سهل الوصول، ومن العجيب كذلك أن بعض من وضع في هذا الموضوع من آباء الكنيسة انحرف وحكمت عليه الكنيسة بالحرمان،

(١) زكي شنودة: تاريخ الأقباط ص ١٧٧.

فكيف ينحرف المعصوم؟ ومما يدعو للدهشة أن أساس هذا الاعتقاد أن أحد الأساقفة أوصى بذلك حوالي سنة ١٠٧ م وأصبحت وصيته مقدسة وبني عليها هذا الاعتقاد العجيب الذي يرفع القسس إلى مصاف الآلهة. والفصل الذي نزمع ترجمته عنوانه: (نفوذ الكنيسة) ونصه كما يلي:

وحوالي سنة ١٠٧ م كتب الأسقف اجناسيوس أسقف كنيسة أنطاكية إلى المسيحيين في سميerna ما يلي:

(عليكم جميعاً أن تطيعوا آباء الكنيسة كما أطاع عيسى أباه، أطيعوا أئمتكم الروحانيين كما تطيعون الرسل، ولا يباشروا أحد منكم شأناً من الشؤون التي تقوم بها الكنيسة (كالتعميد والزواج وحضور الموت والصلاة) بدون حضور آباء الكنيسة، وأنى يوجد الأسقف فإن حضوره يعد حضوراً للمسيح نفسه تبعاً لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية.

(الأب والأئمة الروحانيون لهم سلطان لقيادتنا وإرشادنا باسم المسيح، فمن أيديهم نتلقى حياة الطهر عن طريق التعميد، وهم الذين يعطوننا الخبز المقدس في العشاء الرباني، وهم الذين يربوننا لنصبح أبناء الله، وهم عوض عيسى وآبائنا الروحانيين، فعلياً أن نتعمق في احترامهم وحبهم وطاعتهم.

(وكل رجال الكنيسة العظام من الأب المقدس إلى الأساقفة يصدر الأوامر لتنظيم الكنيسة ولسلامة المسيحيين من الذنوب والهموم النفسية وتشجيعهم على فهم الحياة الكنيسة.

(المسيحيون أعضاء يتكون منهم جسم عيسى المقدس فعلياً أن يمثلوا لأوامر الأساقفة وأن يسلموا أنفسهم للآباء الروحانيين) (١).

(١). ٣٠١ - ٣٠٠. Pengadjaran Geredja Katolik pp

الكتاب المقدس

مقدمة:

الكتاب المقدس عند المسيحيين يشمل (العهد القديم) و (العهد الجديد) وقد رأينا للأسف أن المسيحيين مع تقديسهم للتوراة لم يتبعوها، فأحلوا منها ما حرّمته، ولم يلزموا حدودها، ولما لم يكن في وسعهم أن يتصرفوا في نصوصها لأن أصولها ثابتة عند أعدائهم اليهود، فإنهم عمدوا إلى المجامع يغيرون بها ما يشاءون مما نصت عليه التوراة، وراحوا أحيانا يفسرون التوراة بما يناسب الإنجيل، كما ظهر في محاولتهم ليجدوا في التوراة دليلا على ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس، ومن أجل هذا كان حديثنا عن العهد الجديد هنا أهم، لأنه أولا: كتاب المسيحيين الأهم، ولأنه ثانيا: يفسر التوراة ويوجهها حسب اعتقاد المسيحيين، أما الحديث عن العهد القديم فيجده القارئ مفصلا في كتابنا عن (اليهودية). وكلمة إنجيل (Cospels) كلمة يونانية معناها (الحلوان) وهو ما تعطيه من أتاك ببشرى، ثم أريد به البشرى عينها، أما السيد المسيح فقد استعملها بمعنى (بشرى الخلاص) التي حملها إلى البشر، واستعملها الرسل من بعده بالمعنى نفسه، وربما استعملوها أيضا بمعنى ملخص تعليم المسيح لأن فيه الخلاص. أو سيرة حياته وموته (١) لأن في هذه السيرة معنى الخلاص أيضا. وما لبثت هذه الكلمة أن استعملت بمعنى الكتاب الذي يتضمن هذه البشرى، وقد غلب استعمالها بهذا المعنى منذ أواخر القرن الأول حتى اليوم، وهكذا نقول إنجيل متي وإنجيل لوقا (٢). ويتكون العهد الجديد (الإنجيل) من سبعة وعشرين سفرا يمكن وضعها في ثلاثة أقسام:

(١) متي ٢٦: ١٣ إفسس ١: ١٢ غلاطية ٢: ٧.

(٢) الأب بولس إلياس: يسوع المسيح ص ١٤.

١ - قسم (الأسفار التاريخية) ويشمل هذا القسم الأناجيل الأربعة (إنجيل متي وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا) كما يشمل رسالة أعمال الرسل التي كتبها لوقا. وسميت هذه الأسفار الخمسة بالأسفار التاريخية لأنها تحوي قصصا تاريخية، فالأناجيل تحوي قصة حياة عيسى وتاريخه وعظاته ومعجزاته، ورسالة أعمال الرسل تحوي قصة حياة معلمي المسيحية وبخاصة بولس.

٢ - قسم (الأسفار التعليمية) وتشمل إحدى وعشرين رسالة، وقد سبق أن تحدثنا عن الرسائل (Epistles) عند الكلام عن بولس، وتوزع الرسائل بين كتابها كالاتي:

١٤ رسالة من كتابة بولس وبعضها محدد التاريخ، وهي جميعا كالاتي:

رسالتان إلى أهل تسالونيكي سنة ٥٤.

رسالته الأولى إلى أهل كورنتس سنة ٥٥.

رسالته إلى أهل روما سنة ٥٦ أو ٥٧.

رسالته إلى أهل إفسس وفيلبي وكولسي سنة ٦١ أو ٦٣.

ثم رسالة إلى أهل غلاطية، ورسالتان إلى تلميذة تيموثاوس، ورسالة إلى

تيطس، ورسالة إلى فيليمون، ورسالة إلى العبرانيين، ورسالته الثانية إلى

أهل كورنتس (١).

٣ رسائل من كتابة يوحنا.

٢ رسالتان من كتابة بطرس.

١ رسالة واحدة من كتابة يعقوب.

١ رسالة واحدة من كتابة يهوذا.

(١) الأب بولس إلياس. يسوع المسيح ص ١٧.

٣ - أما القسم الثالث فهو رؤيا يوحنا اللاهوتي، وتسمى رؤيا لأنها أشبه بالأحلام ولكن يوحنا رآها في اليقظة، وقد قرأتها عدة مرات ولم يظهر لي منها قصد ذو بال. وكأن يوحنا أراد أن يظهر بها سلطان المسيح بعد رفعه وصلته الدائمة بالكنائس، وما كان أجدر المسيحيين أن يحدفوا هذه الرؤيا من الكتاب المقدس فهي للخرافات أقرب (١)، ويصور يوحنا فيها السيد المسيح بالخروف المذبوح (٢)، ويكرر هذا اللفظ، وهو ذوق ناب في التعبير. وعن هذا التشبيه يقول الروائي الإنجليزي المعاصر Lorange. H. D: إنني أشمئز من الربط بين المسيح وبين الخروف المذبوح، مع أن الخراف أغبي وأجشع ما في مملكة الحيوان

دراسات عن الأناجيل:

وقصة هذه الأناجيل وعلاقتها بالمعتقدات المسيحية قصة تدعو للعجب، فمن الطبيعي أن تنبني المعتقدات على الأناجيل، ولكن الواقع غير هذا أو قل عكس هذا، إذ انبت الأناجيل على المعتقدات، فقد نشأت المعتقدات بواسطة بولس، ثم كتب بولس رسائله بين سنة ٥٥ وسنة ٦٣ م بيد أن الإنجيليين لم يبدؤوا كتابة أناجيلهم إلا في سنة ٦٣، ورجحت كفة بولس وكفة معتقداته على ما ذكرنا من قبل، فتأثرت الأناجيل بهذه الرسائل (٣). وبجانب ما وضعه بولس ومريدوه من أناجيل ورسائل كانت هناك أناجيل متعددة تتكلم عن حياة المسيح ودعوته، ومنها إنجيل عيسى نفسه، وقد ورد ذكره في إنجيل مرقس (٤) وفي رسالة بولس إلى أهل رومية (٥) ومنها إنجيل السبعين وإنجيل التذكرة وغيرها من الأناجيل

(١) اقرأ الإصحاح الثاني عشر من هذه الرؤيا.

(٢) الإصحاح الخامس الفقرة السادسة وما بعد.

(٣) أنظر يسوع المسيح للأب بولس إلياس ص ١٨.

(٤) الإصحاح الأول الفقرة ١٤.

(٥) الإصحاح الأول الفقرات ٩، ١٦ والإصحاح ١٥ الفقرة ١٩.

الكثيرة، ولكن مصير هذه الأناجيل كلها قرره مجمع نيقية سالف الذكر، أي قرره أولئك الذين اتخذوا قرارا بألوهية المسيح، ومن ثم ألغى هذا المجمع كل الأناجيل التي لا تتفق وقراره السابق، والتي لا تلائم الاتجاه الذي ابتدعه بولس الرسول، فوافق هذا المجمع على الأسفار السبعة والعشرين سالفه الذكر وكون منها ما أطلق عليه (العهد الجديد) ورد المجمع كل ما سوى ذلك وعده هراء بالغا وكفرا وزيفا يجب إفناؤه ويعاقب من قال به أو حمله.

ومن الواضح أن هناك أناجيل ورسائل فنيت في عهد الاضطهادات الأولى التي عانتها المسيحية، ولكن بقي جزء كبير من الأناجيل والرسائل أخفاه ذووه ثم أظهره عندما غلبت المسيحية أعداءها، فقدموه لمجمع نيقية، ولكن المجمع انحرف وأصبحت الغلبة للأقلية التي تقول بألوهية المسيح كما سبق، وأصبح هؤلاء يتكلمون باسم المسيحيين جميعا، وعلى هذا قرر ذلك المجمع مصير الأناجيل، ويحدثنا الكاتب المسيحي الذي أسلم عبد الأحد داود عن هذا التصرف ويبرز سيادته حقيقة هامة جدا هي أن الأناجيل المعتمدة الآن لم تكن معترفا بها قبل القرن الرابع، وهاك كلمات هذا الكاتب:

إن هذه السبعة والعشرين سفرا أو الرسالة الموضوعه من قبل ثمانية كتاب لم تدخل في عداد الكتب المقدسة باعتبار مجموعة هيئتها بصورة رسمية إلا في القرن الرابع بإقرار مجمع نيقية العام وحكمه (سنة ٣٢٥ م) لذلك لم تكن إحدى هذه الرسائل مقبولة ومصدقة لدى الكنيسة وجميع العالم العيسوي قبل التاريخ المذكور، ثم جاء من الجماعات العيسوية في الأقسام المختلفة من كرة الأرض ما يزيد على ألفي مبعوث روحاني ومعهم عشرات الأناجيل ومئات الرسائل إلى نيقية لأجل التدقيق، وهناك تم انتخاب الأناجيل الأربعة من أكثر من أربعين أو خمسين إنجيلا وتم انتخاب الرسائل الإحدى والعشرين من رسائل لا تعد ولا تحصى وصادق

عليها، وكانت الهيئة التي اختارت العهد الجديد هي تلك الهيئة التي قالت بألوهية المسيح (١). وكان اختيار كتب العهد الجديد على أساس رفض الكتب المسيحية المشتملة على تعاليم غير موافقة لعقيدة نيقية وإحراقها كلها (٢).

ويبرز هذا الكاتب نقطة أخرى مهمة هي أن كاتب الرسائل لم يكونوا على علم بهذه الأناجيل الأربعة، مع أنه لو صح نسبة الأناجيل إلى أصحابها لكانت أسبق من الرسائل، ويؤكد هذا الكاتب (أن الأناجيل الأربعة لم تكن موجودة في زمن الحواريين الخمسة أو الستة الذين كتبوا تلك الرسائل لأن الرسائل لا تبحث عن محتويات هذه الأناجيل قطعاً ولا تشير إليها) (٣).

وهناك موضوع آخر يتصل بالعهد الجديد وصلاحيته مصدراً للدين المسيحي، فقد أثبتنا آنفاً أن الأناجيل اختيرت لتلائم المعتقدات التي وضعها بولس، ومن ثم كانت الأغلبية الساحقة من (العهد الجديد) من وضع بولس ومريديه كما أسلفنا القول عند الكلام عن بولس، ومع هذا فإنه بمرور الزمن ظهر للمسيحيين أن هذه الأناجيل لا تفي بما أرادوا أن يضيفوه للمسيحية من معتقدات كغفران السيئات وعصمة البابا وغير ذلك، ومن ثم اقترحوا المجمع يثبتون بها ما يشاءون من الأصول، وإذا كانت المجمع قد أخذت الحق في تقرير ألوهية المسيح فلا ضير عندهم أن تأخذ الحق فيما دون ذلك من مسائل، فليس هناك موضوع يرقى إلى مستوى هذا الموضوع الخطير، وعلى هذا فالمصدر الحقيقي للمسيحية هو المجمع، هو البشر.

(١) الإنجيل والصليب ص ١٤.

(٢) المرجع السابق ص ٢١.

(٣) المرجع السابق ص ١٥ وقد اقتبسنا آنفاً من الأب بولس إلياس ما يقطع بأن رسائل بولس كتبت قبل الأناجيل.

على أن الكاثوليك استغنوا عن المجامع واستغنوا عن الكتب المقدسة عندما أثبتوا عصمة البابا، فانتقلت كل السلطة في إصدار القرارات وتعيين المعتقدات والأحكام (إلى حبر رومية الأعظم الجالس على كرسي الخلافة البطرسيّة، وأصبح له الحكم فيما يعود إلى الأحكام والأخلاق العيسوية، وأصبح حكمه قطعياً تجب طاعته لأنه قد وهب من الله تعالى صفة العصمة) (١).

ونعود مرة أخرى إلى ما أثبتناه آنفاً من أن المسيحيين منذ عهدهم الأول كانوا يعتقدون الشيء الذي لا يوجد في الأناجيل، ثم يوعزون لأحدهم ليكتب إنجيلاً يثبت فيه ما اعتقدوه، وقد أوضح الكتاب المسيحيون أنفسهم ظروف كتابة إنجيل يوحنا:

قال جرجس زوين اللبناني فيما ترجمه (إن شير بنطوس وأيسون وجماعتهما لما كانوا يعلمون المسيحية، كانوا يرون أن المسيح ليس إلا إنساناً، وأنه لم يكن قبل أمه مريم، فلذلك في سنة ٩٦ اجتمع عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح، وينادي بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون وأن يكتب بنوع خصوصي لاهوت المسيح).

وقال يوسف الدبسي الخوري في مقدمة تفسيره (من تحفة الجيل) إن يوحنا صنف إنجيله في آخر حياته بطلب من أساقفة آسيا، والسبب أنه كانت هناك طوائف تنكر لاهوت المسيح فطلبوا منه إثباته وذكر ما أهمله متي ومرقص ولوقا في أناجيلهم).

وقال أكليمنضوس الإسكندري المسيحي صاحب المؤلفات الكثيرة في حقيقة الدين المسيحي ما يلي عن إنجيل يوحنا: إن يوحنا كتب إنجيله

(١) عبد الأحد داود: الإنجيل والصليب ص ٢٣.

بعد كتاب الأناجيل الأخرى لأنه لاحظ أن الأناجيل السابقة لم تدون عن ترجمة المسيح إلا الأمور الحسية، فتلبية لدعوة بطانته، وبعد استلهام روح القدس عقد العزم على كتابة (إنجيل روحي) (١).
فبغية يوحنا من إنجيله إظهار ألوهية يسوع (٢).
وقد قام الأستاذ أبو زهرة بدراسة بعض هذه النقول واستنبط منها أمرين: أحدهما: أن الأناجيل الثلاثة الأولى ليس فيها ما يدل على ألوهية المسيح أو هكذا كانت قبل تدوين الإنجيل الرابع.
ثانيهما: أن الأساقفة اعتنقوا ألوهية المسيح قبل وجود الإنجيل الذي يدل عليهما (٣).

ونضيف إلى هذين أمرًا ثالثًا هو الاعتقاد باستحالة أن تهمل الأناجيل الثلاثة الأولى أساسًا هو في الحقيقة أهم أسس الدين المسيحي وهو ألوهية المسيح، فلو أن لهذه الألوهية أصلاً في الديانة المسيحية لما كان من الممكن أن تهملها هذه الأناجيل الثلاثة.

وهناك عالم مسيحي متبحر هو الأب بولس إلياس مؤلف كتاب (يسوع المسيح)، وهذا العالم يثبت الغفلة والخطأ على أصحاب الأناجيل أو الإنجيليين كما يسميهم، ومثل هذه الصفات تفقدنا الثقة فيما ينسب لهؤلاء، وفيما يلي نسوق نصين من الكتاب السابق عن خطأ الإنجيليين في موضوع خراب أورشليم، قال الكاتب:

(وفي المؤكد أن مرقص كتب إنجيله قبيل سنة ٧٠ م أي قبل خراب أورشليم في عهد تيطس، لأنه لو كان كتبه بعد هذا التاريخ لما كان أخطأ فهم نبوءة المسيح عن خراب أورشليم كمتي ولوقا اللذين ظنا أن المسيح

(١) أنظر يسوع المسيح للأب بولس إلياس ص ١٩.

(٢) المرجع السابق ص ٣٢.

(٣) محاضرات في النصرانية ص ٥٣.

يقصد من نبوءته هذه خراب العالم والدينونة الأخيرة لا خراب أورشليم،
ولكن أصلح خطأه، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا) (١).
وقال في موضع آخر:

(وضع لوقا إنجيله وكتاب أعمال الرسل، ومن الثابت الراهن أنه
كتب إنجيله قبل سنة ٧٠ أي قبل خراب أورشليم، وإلا لما كان أخطأ
كمتي ومرقص فهم نبوءة المسيح عن هذا الحدث الهام، وهذا دليل على
أن الإنجيليين رددوا أقوال المسيح على علاتها دون أن يفهموها في بعض
الأحيان) (٢).

والآن، بعد هذا العرض الشامل، يجدر بنا أن نتكلم كلمة عن كل
من هذه الأناجيل المعتبرة عند المسيحيين لئرى مقدار صلاحيتها لتكون
أساساً للمسيحية.

إنجيل متي:

متي أحد الحواريين الذين سبق أن عددناهم، مات سنة ٧٩ ببلاد الحبشة
حيث كان اتخذها موطن دعوته، ويتفق جمهور المسيحيين على أن متي كتب
إنجيله بالآرامية، ولكن النسخة الآرامية لا وجود لها، وظهر كتاب باللغة
اليونانية قيل إنه ترجمة إنجيل متي، ولم يعرف المترجم ولا تاريخ الترجمة،
كما لا يعرف بالضبط تاريخ التأليف، وعندما توجد هذه الشكوك حول أي
كتاب تقل قيمة مثل هذا المصدر أو تنعدم.

إنجيل مرقس:

مرقس من السبعين الذين تحدثنا عنهم فيما سبق، وقد طاف في البلاد
داعياً للمسيحية ثم اتخذ مصر مقراً له، وقد قتل سنة ٦٢ م (٣) ولا يعرف

(١) ص ٢٥ - ٢٦.

(٢) ص ٢٧ - ٢٨.

(٣) يلاحظ القارئ تضارباً واضحاً بين التأكيد بأن الأناجيل كتبت بعد سنة ٦٣ م
وبين إسناد إنجيل مرقس الذي قتل سنة ٦٢.

بالضبط تاريخ تأليف هذا الإنجيل، كما أن حقيقة الكاتب موضع خلاف فبعضهم يرى أن مرقص هو الذي كتبه، ويرى آخرون أن بطرس رئيس الحواريين وأستاذ مرقص رواه عنه (عن مرقص) وهذا أمر يدعو للعجب فكيف يروي أستاذ عن تلميذه ولكن هكذا ذكر بعض المؤرخين المسيحيين كابن البطريق، وقد جاء في كتاب مروج الأخبار في تراجم الأبرار أن مرقص كان ينكر ألوهية المسيح هو وأستاذه بطرس (١). ومن أجل هذا يقول Wells إن النقاد يميلون إلى اعتبار إنجيل القديس مرقص أصح ما كتب عن شخص عيسى وأعماله وأقواله وأجدرها بالثقة (٢). ويذكر الأب بولس إلياس أمرا عجبا يعلل به ما اعتقده من أن مرقص مال إلى القول بألوهية المسيح: إن مرقص (لمح ألوهية المسيح من خلال ما أتاه من عجائب) (٣).

إنجيل لوقا:

ليس لوقا من الحواريين ولا من تلاميذهم، وإنما هو تلميذ بولس، وقد تكرر ذكر هذا في رسائل بولس كما سبق، ويقولون إنه كان طبيبا وبعضهم يقول إنه كان مصورا، ولوقا يبدأ إنجيله بجملة ذات شأن هي: (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداما للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علمت به) (٤). وقد سبق لنا حديث كاف عن بولس ومريديه وبخاصة لوقا الطبيب الحبيب.

(١) أنظر محاضرات في النصرانية ص ٤٥

(٢) .٦٨٠ .٣ p. The outline of History vol

(٣) يسوع المسيح ص ٢٦.

(٤) لوقا ١: ١ - ٤.

إنجيل يوحنا:

سبق أن تحدثنا عن إنجيل يوحنا وسنزيد الحديث هنا وضوحا، ولهذا الإنجيل أهمية خاصة في دراسة المسيحية، ذلك لأنه الإنجيل الذي نص صراحة على ألوهية المسيح، وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الإنجيل ألف لهذا الغرض، ولهذا لا يقوى هذا الإنجيل ليكون حجة في هذا الباب، وهناك استدلال آخر يقلل من قيمة هذا الإنجيل أو يزيلها تماما، ويلزم لإيضاح هذا

الاستدلال أن نعود إلى الوراثة لتذكر ما سبق أن قلناه من أن مدرسة الإسكندرية هي مصدر التثليث وألوهية المسيح، وفي ضوء هذا نسير في الاستدلال: الشائع أن هذا الإنجيل كتبه يوحنا الحواري الذي كان يحبه المسيح ويصطفيه، ولكن هذا الشائع لا أساس له من البراهين، وكثير من كتاب المسيحية يؤكّدون أن هذا الإنجيل لا بد أن يكون من كتابة يوحنا آخر لا علاقة له بيوحنا الحواري، وقد ورد في دائرة المعارف البريطانية ما يلي. (أما إنجيل يوحنا فإنه لا مزية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه به مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض، وهما القديسان يوحنا ومتي، وقد ادعى هذا الكاتب المزور في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاقتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصا مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه، وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل الفلسفي الذي ألف هذا الكتاب في الجيل الثاني بالحواري يوحنا الصياد الجليل، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخطبهم على غير هدى).

ونسبة هذا الكتاب إلى يوحنا الحواري هوجمت قبل دائرة المعارف البريطانية بمئات السنين أيضا، وكان تلاميذ يوحنا الحواري أحياء ولكنهم لم يردوا هذا الهجوم ولم يذكروا قط أنهم سمعوا من أستاذهم هذا الإنجيل أو أي خبر عنه.

من إذا مؤلف هذا الإنجيل؟ ومن يكون ذلك الرجل الفلسفي الذي ألف هذا الكتاب ونسبه إلى يوحنا؟

الإجابة سهلة، فالتأليف الفلسفي روح مدرسة الإسكندرية، وعقيدة التثليث عقيدة مدرسة الإسكندرية، وإذا فالأستاذ استادلن على حق حينما قال: (إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية) (١).

ونختم كلامنا على الأناجيل الأربعة بعبارة مهمة ختم بها باحث غربي دراسته عن الأناجيل، وهذه العبارة هي:

إن فلسفة الإغريق، والقانون الروماني جعلوا الإنجيل لا يمثل حقيقته، كما أثرا في تدوينه، والباحث المنصف في تاريخ الكنيسة لا يستطيع ولا لحظة واحدة أن ينكر أن آراء مزيفة، وأغراضا غير كريمة، ومقاصد خاطئة، كانت أسبابا رئيسية مسيطرة أحيانا، دفعت إلى هذا التبديل الذي حدث في الأناجيل (٢).

إنجيل برنابا:

تحدثنا فيما سبق عن الأناجيل الأربعة المعتبرة عند المسيحيين، وأمامنا
j. ٦٣٤ . Vol . p ٥

(١) أنظر محاضرات في النصرانية للأستاذ أبو زهرة: ص ٤٩.

(٢) and Ethcis

.Encyclopaedin of Relegion: Garvie. Alfred E

الآن إنجيل آخر جدير بحديث أطول هو إنجيل برنابا، ذلك لأن هذا الإنجيل يمكن أن يكون حلقة الاتصال بين المسيحية والإسلام، أو أنه هو الحلقة المفقودة بين هاتين الديانتين، ولا تعترف الكنيسة بهذا الإنجيل ولا تقيم وزنا لما ورد فيه.

وقد ترجم هذا الإنجيل إلى اللغة العربية في مطلع القرن العشرين، وقام بترجمته الدكتور خليل سعادة وقدم له مقدمة تاريخية علمية، ونشره السيد محمد رشيد رضا وقدم له كذلك مقدمة علمية طويلة، ونريد أن نستعرض الإنجيل نفسه، ونستعرض هاتين المقدمتين، ونربط حديثنا بالإنجيل الأخرى وبالدراسة التي قمنا ونقوم بها فيما يختص بالمسيحية. نريد أن نشرح النقاط الآتية:

١ - من هو برنابا؟

٢ - إلى أي حد تصح نسبة هذا الإنجيل إليه؟

٣ - ما أوجه الخلاف بين هذا الإنجيل والأنجيل الأخرى؟

٤ - ما الأسباب التي دفعت برنابا إلى تأليف إنجيله؟

ولنبداً الكلام عن هذه النقاط:

١ - من هو برنابا؟

بناء على إنجيل برنابا يدخل برنابا هذا ضمن الحوارين الاثني عشر فقد ورد في هذا الإنجيل ما نصه: (فلما رأى يسوع أن الجمهور الذي عاد إلى نفسه ليسلك في شريعة الله، جمهور غفير، صعد الجبل، ومكث كل الليل بالصلاة، فلما طلع النهار نزل من الجبل وانتخب اثني عشر سماهم رسلا، منهم يهوذا الذي صلب، أما أسماؤهم فهي: اندراوس وأخوه بطرس الصياد و برنابا الذي كتب هذا مع متي العشار الذي كان يجلس للجباية، ويوحنا

ويعقوب ابنا زبدي، وتداوس ويهوذا وبرثولوماوس وفيليبس ويعقوب ويهوذا الإسخريوطي الخائن) (١).

وبمقارنة هذه الأسماء بالأسماء الواردة بإنجيل متي (٢) نجد أن توما وسمعان القانوني محذوفان واستبدل بهما برنابا ويهوذا آخر غير يهوذا الخائن، وسواء كان برنابا من الحواريين أو ليس منهم فإنه معدود من الصف الأول بين أتباع المسيح، وقد ورد اسمه في رسالة أعمال الرسل عدة مرات نورد منها هنا بعض النماذج:

- ويوسف الذي دعى من الرسل برنابا... (٣).

- ولما جاء شاول (بولس) إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ وكان الجميع يخافون غير مصدقين أنه تلميذ، فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل وحدثهم كيف أبصر الرب... (٤).

- وكان في أنطاكية في الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون، برنابا وسمعان الذي يدعى نيجر، ولو كيوس القيرواني، ومنابن الذي تربى مع هيرودوس رئيس الربع، وشاول، وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس: أفرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه، فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا الأيدي ثم أطلقوهما.

فهذان إذ أرسلوا من الروح القدس انحذرا إلى سلوكية، ومن هناك سافرا في البحر إلى قبرص، ولما صارا في سلاميس ناديا بكلمة الله في مجامع اليهود (٥).

فيتضح من هذا أن برنابا إما من الحواريين الاثني عشر وإما من الرسل السبعين، ولا يحتمل أن يكون هناك برنابا آخر لأنه لم يرد ذكر لغير برنابا واحد في جميع المراجع وملاحه واحدة فيها كلها.

(١) برنابا: ١٤ : ٩ - ١٢

(٢) الإصحاح العاشر: ٢ - ٤.

(٣) أعمال ٤ : ٢٦

(٤) أعمال ٩ : ٢٦ - ٢٧.

(٥) أعمال ١٣ : ١ - ٥.

٢ - إلى أي حد تصح نسبة هذا الإنجيل إلى برنابا؟
قام الدكتور خليل سعادة مترجم هذا الإنجيل بدراسة واسعة حول هذا الموضوع، ونحن نقبس منه ما ذكره عن تاريخ هذه النسخة، وعن رأيه في نسبتها، ثم ناقش هذا الرأي، يقول سيادته:
- كانت هذه النسخة في مكتبة البابا سكتس الخامس بروما، وقد اختفت من المكتبة حوالي القرن السادس عشر، ويرجح أن الذي اختلسها راهب اسمه فرامرينو (١).

- عن طريق هذا الراهب آلت هذه النسخة إلى مكتبة أحد وجهاء أمستردام حيث بقيت حتى مطلع القرن الثامن عشر.
- في سنة ١٧٠٩ كان كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا ينزل في أمستردام، وكانت له بهذا الوجيه صلة، ولما رأى هذه النسخة استعارها ثم ذكر الوجيه أنها عظيمة القيمة.

- في سنة ١٧١٣ أهدى وجيه أمستردام هذه النسخة إلى البرنس أيوجين سافوي الذي كان مولعا بالعلوم والآثار التاريخية، ثم انتقلت هذه النسخة مع مكتبة البرنس كلها إلى مكتبة البلاط الملكي في فينا حيث لا تزال هذه النسخة موجودة حتى الآن وهي مكتوبة بالايطالية وعلى هامشها تعليقات بلغة عربية ركيكة (٢).

- وهناك نسخة أخرى لهذا الإنجيل باللغة الإسبانية ظهرت حوالي سنة ١٧٨٤ ولكنها فقدت بعد ذلك، ويرجح أن تكون ترجمة عن النسخة الإيطالية (٣).

(ويجزم الثقات - كما يقول الدكتور سعادة - بأن ناسخ هذه النسخة الإيطالية هو من أهالي البندقية وأن اللغة التي أخذت عنها هذه النسخة هي

(١) مقدمة المترجم ص (٥)

(٢) المرجع السابق ص (٥).

(٣) المرجع السابق ص (٥).

لغة البندقية، ويدحض هؤلاء الثقات الشبهة التي تقول بأن هذه النسخة ترجمت عن نسخة عربية) (١) ويقول الدكتور سعادة مؤيدا رأي هؤلاء الثقات: (ثم إنه لم يرد ذكر لهذا الإنجيل في كتابات مشاهير الكتاب المسلمين سواء في العصور القديمة أو الحديثة، حتى ولا في مؤلفات من انقطع منهم إلى الأبحاث والمجادلات الدينية، مع أن إنجيل برنابا أمضى سلاح لهم في مثل تلك المناقشات، وليس ذلك فقط، بل لم يرد ذكر لهذا الإنجيل في فهارس الكتب العربية القديمة عند الأعراب أو الأعاجم أو المستشرقين الذين وضعوا فهارس لأندر الكتب العربية من قديمة وحديثة (٢)).

ويقول الدكتور سعادة إنه (يرى أن واضع هذا الإنجيل يهودي أندلسي تعمق في دراسة اليهودية، ثم تنصر وتعمق في دراسة النصرانية، ثم اعتنق دين الإسلام وتحمس له (٣)).

ونرى نحن أن هذه الصورة يصعب أن توجد في الخيال فهيهات أن توجد في الواقع، وأي خيال يستطيع أن يصور يهوديا متعمقا في اليهودية يتنصر ويتعمق في النصرانية، ثم يسلم ويتعمق في الإسلام ويتحمس له تحمسا يحمله على كتابة إنجيل ونسبته إلى واحد من الحواريين أو الرسل؟ إن هذا الرجل يحتاج أن يعمر عدة قرون كما يحتاج إلى وسائل غير عادية ليصل إلى هذه النتيجة، ثم لماذا لم ينتقل مثل هذا الرجل مباشرة من اليهودية للإسلام كما فعل كثير من يهود الأندلس؟ الحق أن مثل هذا التفكير يبدو لي مستحيلا.

ونسأل الدكتور سعادة: لماذا وضع هذا الرجل المسلم هذا الإنجيل؟ الطبيعي أنه وضعه ليحتج به المسلمون على المسيحيين في المناظرات التي كانت دائمة الوقوع بينهم، ولكن ما رأي الدكتور سعادة في أن أحدا من المسلمين

(١) المرجع السابق (ح)
(٢) مقدمة المترجم ص (ط)
(٣) المرجع السابق.

لم يحتج بهذا الإنجيل قط ولم يرد ذكره في تلك المناظرات الحامية كما كتب ذلك الدكتور سعادة نفسه. وكيف ينحدر إنجيل كاذب كهذا إلى مكتبة البابا، ثم إلى البرنس أيوجين، ثم إلى مكتبة البلاط الملكي بفينا؟ وكل هذه أوساط مسيحية لا يمكن أن تسمح لكتاب كاذب يهاجم عقائد المسيحية بأن يتسرب إلى مكتباتهم، وأن ينال العناية التي وصفها الدكتور سعادة من تجليد وتذهيب؟ ولو حاول كاتب مسلم أن يضع إنجيلا لكان أولى به أن ينسبه إلى عيسى. على أن التعمق في الإسلام الذي وصفه الدكتور سعادة يحتم على هذا المتعمق ألا يرتكب هذه حماقة أو قل الخيانة الكبرى، وهي أن يؤلف كتابا ثم ينسبه إلى سواه.

ويقول الدكتور سعادة - مستدلا على أن كاتب هذا الإنجيل مسلم - ما يلي: ولو أشار إلى مجيء (الرسول) نبي المسلمين من طرف خفي بإشارات تنطبق عليه دون التصريح باسمه لكان ذلك أصلح للغاية (١). ونحن نأخذ هذا القول دليلا على صحة نسبة الإنجيل لبرنابا، فهذه الحقيقة التي ذكرها الدكتور سعادة لا تخفى على أحد، وهذا الكاتب وصفه الدكتور سعادة بالبراعة والفلسفة العالية وكثرة الاطلاع... فكيف تخفى عليه حقيقة ابتدائية كهذه لو كان كاذبا.

ويذكر التاريخ أمرا أصدره البابا جلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ يعدد فيه أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها وفي عدادها كتاب يسمى (إنجيل برنابا (٢)). ويرجح أنه هو الإنجيل الذي اختفى وضاعت نسخته، ولم تبق منه إلا هذه النسخة التي وصلت إلى بر السلامة حينما أخذت مكانها في مكتبة البابا نفسه حيث لا يخاف البابا أن تكون مكتبته موضع شك وموضع اختبار، أما غير البابا فيعتقد أنهم

(١) مقدمة المترجم ص (ن)

(٢) المرجع السابق ص (ل).

أسرعوا إلى هذا الإنجيل فانتزعوه من مكباتهم وأسلموه للفناء حرصا على أنفسهم وعلى مكباتهم أن يمتد لها الفناء لو عثر على هذه النسخة فيها. وقد احترقت وفنيت نسخ هذا الإنجيل كلها وسلمت هذه النسخة من ظلام العصور الوسطى وظهرت في عصر النور حيث أصبح حرق الكتب جريمة لا تغتفر، وبهذا استطاعت هذه النسخة الفريدة أن تحيي ما أوشك أن يندرس من معالم هذا الإنجيل. ومن المؤكد بلا شك أن نسبة هذا الإنجيل لبرنابا أقوى من القول بنسبة إنجيل متي إليه، وكذلك القول في سائر الأناجيل، وهناك أدلة كثيرة يقدمها الكتاب الغربيون ألمعنا لبعضها آنفا وهي تؤكد أن أغلب هذه الأناجيل من صنع بولس (١) وأن إنجيل يوحنا من صنع طالب بمدرسة الإسكندرية.

٣ - ما أوجه الخلاف بين هذا الإنجيل والأناجيل الأخرى؟
يقول مترجم الكتاب (٢) إن هذا الإنجيل يباين الأناجيل الأربعة المشهورة في عدة أمور جوهرية هي:

(أ) أن يسوع أنكر ألوهيته وكونه ابن الله وذلك على مرأى ومسمع من جمهور عظيم.

(ب) أن الابن الذي عزم إبراهيم على تقديمه ذبيحة لله إنما هو إسماعيل لا إسحاق.

(ج) أن مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع، بل محمد وذكر محمدا باللفظ الصريح المتكرر في فصول ضافية الذبول وقال إنه رسول الله وأن آدم لما طرد من الجنة رأى مسطورا فوق بابها بأحرف من نور (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

(د) أن يسوع لم يصلب وأن الذي صلب إنما هو يهوذا الخائن الذي شبه به.

(١) أنظر في ذلك أيضا دائرة المعارف الفرنسية

(٢) مقدمة المترجم ص (م).

والمسألتان الأولى والأخيرة تهما لنا هنا في بحثنا عن المسيحية، ولذلك نقتبس من كلام برنابا نفسه بعض النماذج عنهما، وهذه الاقتباسات هي في الوقت نفسه إجابة عن السؤال الرابع من الأسئلة التي تهما لنا لبيان القول عن إنجيل برنابا، وهذا السؤال هو:

٤ - ما الأسباب التي دفعت برنابا لتأليف إنجيله؟.

وضح برنابا الأسباب التي دفعته لتأليف هذا الإنجيل في مقدمته التي كتبها لهذا الإنجيل وهاك نصها:

أيها الأعزاء، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائما، مجوزين كل لحم نجس، الذين ضل في عدادهم أيضا بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعتة أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله، وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاة لما أكتبه لتخلصوا خلاصا أبديا.

ويبين برنابا أن ادعاء ألوهية المسيح بدأ في حياة المسيح بسبب معجزاته واتجاهها في إحياء الموتى وإبراء الأكمه وغير ذلك مما ليس للبشر به عهد.

يقول برنابا: ونزل يسوع في السنة الثانية من وظيفته النبوية من أورشليم إلى تايين، فلما اقترب من باب المدينة كان أهل المدينة يحملون إلى القبر ابنا وحيدا لأمه الأرملة، وكان كل أحد ينوح عليه، فلما وصل يسوع علم للناس أن الذي جاء إنما هو يسوع نبي الجليل، فلذلك تقدموا وتضرعوا إليه لأجل الميت طالبين أن يقيمه لأنه نبي.....

فتقدم المسيح إلى أم الميت وقال لها بشفقة: لا تبكي أيتها المرأة. ثم أخذ يد الميت وقال: أقول لك أيها الشاب باسم الله قم صحيحا. فانتعش الغلام. ويواصل برنابا قوله في الإصحاح التالي: وكان جيش الرومان في ذلك الوقت في اليهودية لأن بلادنا كانت خاضعة لهم بسبب خطايا أسلافنا، وكانت عادة الرومان أن يدعوا كل من فعل شيئا جديدا فيه نفع للشعب إليها ويعبدوه، فلما كان بعض هؤلاء الجنود في تايين وبخوا واحدا منا بعد آخر قائلين: لقد زاركم أحد آلهتكم وأنتم لا تكترثون له، حقا لو زارتنا آلهتنا لأعطيناهم كل مالنا، فوسوس الشيطان بهذا الأسلوب من الكلام حتى أنه أثار شغبا بين شعب تايين، فقال قوم منهم (إن الذي زارنا إنما هو إلهنا) وقال آخرون (إن الله لا يرى، فلم يره أحد حتى ولا موسى، فليس هو الله بل هو بالحري ابنه) وقال آخرون (إنه ليس الله ولا ابن الله لأنه ليس لله جسد فيلد بل هو نبي عظيم) (١).

وتتكرر هذه الأحداث فيشفى عيسى المرضى أو يحيي الموتى، وهذا يدعو الناس إلى أن يحسوا ويجهروا أحيانا أن عيسى إله (٢)، وينكر عيسى ألوهيته ويصرخ في وجه هؤلاء الضالين ليعيدهم إلى الرشد، ولكن بولس يتسلم هذه الدعوى فيضعها في قالب فلسفي. ويدعو بها بعد أن ادعى أنه رسول وأنه يتحدث باسم المسيح.

وقد أورد برنابا قول عيسى منكرا ألوهيته: إني أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض، أنني برئ من كل ما قال الناس عني من أنني أعظم من بشر، لأنني بشر مولود من امرأة وعرضة لحكم الله، أعيش كسائر البشر، عرضة للشقاء العام (٣).

(١) اقرأ الإصحاحين ٤٧، ٤٨.

(٢) أنظر نماذج من في الصفحات: ٧٥ - ١٠٦ - ١٠٧ - ١٣٩ - ١٤١.

(٣) الإصحاح ٩٤: ١ - ٢.

ويدرك عيسى أن هذه الدعوى الكاذبة قد تنتشر فيهتف قائلاً: الحق أقول لكم متكلما من القلب: إني أقشعر لأن العالم سيدعونني إليها، وعلي أن أقدم لأجل هذا حساباً، لعمر الله الذي نفسي واقفة في حضرته إني رجل فان كسائر الناس، على أي وإن أقامني الله نبياً على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء وإصلاح الخطاة، خادم الله وأنتم شهداء على هذا (١).
أما مسألة أن المسيح لم يصلب، فقد وضحها برنابا مقتبسا من عيسى قوله: اعلم يا برنابا أنه سيبيني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود، وإني على يقين من أن من يبيني يقتل باسمي، لأن الله سيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي (٢).

ويقول برنابا في وصف خاتمة المسيح على الأرض: لما دنت الجنود مع يهوذا سمع يسوع دنو جم غفير فاستيقظ، وكان الحواريون الأحد عشر نياماً، ثم رفع الله المسيح إليه، ودخل يهوذا إلى الغرفة التي صعد منها يسوع فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع... ودخل الجنود فأخذوا يهوذا وأوثقوه طائنين أنه يسوع (٣).

وهكذا يتفق الإنجيل في أكثر مسائله مع القرآن الكريم ويزيل الهوة التي ابتدعها بولس والتي أبعدت المسيحية عن الأديان السماوية.
مصادر المسيحية في رأي الكنيسة

عرفنا أن مصادر المسيحية التي تعترف بها الكنيسة، ليس من كتابة عيسى ولا من إملائه. فكيف يجوز الاستدلال بها وكيف تتخذ وسيلة لإثبات عقائد المسيحية؟

(١) الإصحاح ٥٢: ١٠ - ١٤.

(٢) إصحاح ١١٢: ٢٣ - ١٥.

(٣) اقرأ الإصحاحات ٢١٥ - ٢١٧.

الجواب على ذلك عند المسيحيين سهل للغاية، فهم يعتقدون أن هذه الأناجيل وتلك الرسائل موحى بها إلى هؤلاء القديسين، وأن هؤلاء القديسين كانوا رسلا، وأن الروح القدس أمدهم بالهدى والرشاد.

وهنا تتسع الهوة بين تفكير المسلمين وتفكير المسيحيين، فإثبات الرسالة شئ ليس باليسير عند المسلمين، فالرسول لا بد أن يشيع أمره، وأن تكون له معجزات، ولكن أكثر هؤلاء الرسل الذين يبلغ عددهم مائة وعشرين غير معروفين إطلاقا، والقليلون منهم يعرفهم خاصة المسيحيين فقط، ولم تنسب لأكثرهم معجزات قط، وقد نسب إلى قليلين منهم بعض خوارق، ولكنها نسبة لا يوجد عليها دليل ثابت، وعلى فرض صحتها فإنها ليست أكثر من أن تكون محض مصادفة أو - على أحسن تعبير - نوعا من التكريم الذي يمنحه الله بعض الصالحين.

ونسبة الرسائل والأناجيل إلى أصحابها ليست قطعية، ويوشك أن يكون مقطوعا بخطأ النسبة في بعضها كإنجيل يوحنا.

ويكثر التناقض بين هذه الأسفار، وقد عد الباحثون مئات من الأمثلة لهذا التناقض، وخبر القبض على المسيح ومحاكمته، موضع اختلاف كبير بين هذه الأناجيل، والموحى به لا يمكن أن يوجد فيه مثل هذا التناقض، وسنعطي أمثلة من التناقض عند الكلام عن نقد المسيحية.

ويتضح من الأناجيل نفسها أنها ليست إلهاما، فقد سبق أن اقتبسنا من لوقا السبب الذي جعله يؤلف إنجيله وذلك قوله (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المستيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداما للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ تتبعت كل شئ من الأول بتدقيق أن أكتب إليك أيها العزيز ثاوفيلس (١)) فلوقا

(١) لوقا ١٠: ٤.

يقرر أن السابقين ألفوا قصصاً، وذلك ينافي الإلهام، وهو يقرر أنهم تسلموا هذه المعلومات من الذين كانوا منذ البدء معانين لا من الروح القدس، ثم هو يقرر عن نفسه أنه نوى وبدأ يكتب ما تتبعه من الأول فأين الإلهام وأين الوحي؟

وبعد، فهذه فكرة سريعة عن المسيحية، نختمها بالدعاء والتضرع إلى الله أن يلهم القوم الرشاد حتى يعودوا إلى محيط الوحدانية السامي الذي هو أساس الأديان السماوية، والذي بدوره يتحطم الرباط بين أتباع هذه الأديان. ويوم يعود القوم إلى التوحيد الخالص واعتبار عيسى عليه السلام نبياً كما كان، تنتهي هذه المشكلات المعقدة التي حاولوا دون فائدة أن يدللوا عليها، وتنتهي أسطورة نزوله لتخليص الناس من خطأ آدم، وتنتهي مشكلة الروح القدس وممن انبثق، وتنتهي مشكلة طبيعة المسيح اللاهوتية والناسوتية، وتنتهي مشكلة الرسل المائة والعشرين، وتنتهي مشكلة المجامع التي تصنع الآلهة، وتختار الأناجيل التي تثبت هؤلاء الآلهة. ويوم يعود القوم إلى التوحيد الخالص سيظهر إنجيل المسيح، ويقرأ الناس شعائر المسيحية كما علمها عيسى بن مريم، وتلتقي المسيحية بغيرها من الأديان السماوية. ليت هذا اليوم يحى، ولكن هيهات.

التشريع والمسيحية

مر التشريع في المسيحية بعدة مراحل ألممنا ببعضها فيما سبق من حديث، ومن الضروري أن نذكر هذه المراحل هنا مجتمعة مرتبة لنرى تطور التشريع في المسيحية ونماذج منه، وهاك هذه المراحل:

المرحلة الأولى: اتباع التشريع اليهودي:

تعتبر المسيحية التوراة وأسفار الأنبياء السابقين كتبا مقدسة، ويطلقون عليها (العهد القديم) كما ذكرنا من قبل، وكانوا لذلك في عهودهم الأولى يتبعون شريعة اليهود والوصايا العشر عندهم، وروي عن عيسى بن مريم قوله: إنني لم أجيء لأغير الناموس ولكن لأقرر، وسيأتي مزيد من إيضاح هذا في المرحلة الثانية.

ومن أجل هذا لم يأت عيسى بتشريع جديد، وكل ما اهتم به هو الوعظ والوصية والتسامح، ويعلل المسيحيون عدم اهتمام عيسى بالتشريع بقولهم: (أ) إنه أراد الشريعة روحا محييا لا حرفا ميتا.

(ب) إنه أراد تجنيب هذه الشريعة ما تفرضه عليها أحوال الزمان والمكان من تحوير.

(ج) إنه أراد أن يحترم حرية الإنسان فلا يسوقه مكرها إلى الخضوع للشريعة فيحرمه جزاء أعماله (أ).

وطبيعي أن هذا التعليل غير مقبول، فإن عيسى لم يتحرر من التشريعات السماوية، وإنما أزم أتباعه بطاعة ما شرعه العهد القديم، ثم إن التشريع الحكيم ليس حرفا مميتا، ولا جامدا صلدا، ولا يحرم الإنسان نتيجة الطاعة والامتثال، والتشريع الحكيم يسري في فكر الإنسان ويصبح معبرا عنه، ومحققا مطالبه، وحاميا لحرماته.

(١) الأب بولس إلياس: يسوع المسيح ص ١٩٢ - ١٩٣.

المرحلة الثانية: عظات عيسى ومكانها من التشريع:
عني عيسى عليه السلام بالوعظ كما سبق، وأهم ما يروى عنه عظة الجبل،
وهناك مقتطفات منها:

- طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات.
 - طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض.
 - طوبى للحزان فإنهم يعزون.
 - طوبى للجوع والعطاش إلى البر فإنهم يشبعون.
 - طوبى لأتقياء القلوب فإنهم يعاينون الله.
- ويرى المسيحيون أن عظة الجبل وما ماثلها نقلت التشريع في المسيحية إلى
طور جديد، ويعقدون لذلك مقارنة بين الشريعة القديمة (اليهودية) والشريعة
الجديدة (المسيحية) ونحن نوجز هذه المقارنة فيما يلي:
وجوه التشابه:

- (أ) كلا الناموسين صادر عن الله.
- (ب) كلا الناموسين يأمر بوجود حفظ الوصايا القديمة التي تسلمها موسى
من الله على الجبل، وهذا ما ذكر به السيد المسيح الشاب الغني عندما
سأله عن وسيلة لدخول الحياة الأبدية فقال: إن كنت تريد أن تدخل
الحياة الأبدية فاحفظ الوصايا المتعلقة بالله وهي: أنا الرب إلهك فلا
يكن لك آلهة أخرى - لا تصنع لك تمثالا ولا صورة تسجد لها -
لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا - اذكر يوم السبت لتقدسة -
واحفظ كذلك الوصايا المتعلقة بالإنسان وهي: لا تسرق - لا تزن -
لا تقتل - لا تشهد الزور - أكرم أباك وأمك - لا تشته ما عند قريبك (أ)
- (ج) كلا الناموسين يجعل محبة الله رأس الوصايا.

(١) إنجيل متي ١٩: ١٩ ومرقص ١٠ - ١٩.

وجوه الخلاف:

أورد الكتاب المسيحيون تحت هذا العنوان صورا ليست في الحقيقة تشريعا جديدا، ولا معارضة لشريعة موسى، ولكنها في الغالب، ألوان من التسامح وليس بها تعديل في التشريع إلا في الطلاق وفيما يلي هذه المقارنة:
(أ) نهت شريعة موسى عن القتل. أما المسيح فقد ذهب إلى أبعد من ذلك، فنهى عن التفكير في الإساءة على العموم، ورذل الغضب والبغض واحتقار الغير فقال: قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تقتل فإن من قتل يستوجب الدينونة. أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة (متي ٥ : ٢١).

(ب) ونهت شريعة موسى عن الزنا، وأما المسيح فقد نهى عن كل فكرة دنس تداعب الحس والخيال فقال: (قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تزن أما أنا فأقول لكم: إن كل من نظر إلى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه) (متي ٥ : ١٧).

(ج) وأباحت شريعة موسى الطلاق. أما المسيح فأرجع الزواج إلى صرامته ونقائه. فألغى الطلاق الذي ما سمح به موسى إلا لقساوة قلوب قومه، وما سمح المسيح إلا بالهجر بشرط ألا يعقبه زواج جديد.
(د) ونهت شريعة موسى عن الحنث بالعهود، والحلف بالله، أما المسيح فقد نهى عن الحلف على الإطلاق أيا كان نوعه، فقال: قد سمعتم أيضا أنه قيل للأولين لا تحنث بل أوف للرب بقسمك، أما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة لا بالسماء فإنها عرش الله، ولا بالأرض فإنها موطئ قدميه، ولا بأورشليم فإنها مدينة الملك الأعظم، ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة منه بيضاء أو سوداء. ولكن ليكن كلامكم: نعم نعم، ولا لا، وما زاد على ذلك فهو من الشر) (متي ٥ : ٣٣ - ٣٧).

(هـ) وتساهلت شريعة موسى فغضت النظر عن الانتقام وسلمت بسنة العين بالعين، أما المسيح فنصح بقبول الإهانة برباطة جأش، فمن الحمق أن ترد الكيل بالكيل والضربة بالضربة، وإنما الحكمة كل الحكمة أن تبادل بالشر الخير، فإن فعلنا فقد ركمنا جمر نار على هامة المعتدي المسيء. فقال: (قد سمعتم أنه قيل العين بالعين والسن بالسن، أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر) (متي ٥ : ٣٩).

(و) ونصت شريعة موسى على محبة الأحباء وبغض الأعداء. أما المسيح فقد قال بمحبة الأحباء والأعداء جميعا، فأضاف قوله: (قد سمعتم أنه قيل: أحب قريبك وابغض عدوك، أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى من يبغضكم، وصلوا لأجل من يعنتكم ويضطهدكم، لتكونوا بني أبيكم الذي في السماوات لأنه يطلع شمس على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين) (متي ٥ : ٤٣ - ٤٤).

(ز) واكتفى الإسرائيليون بإتمام واجبات العدل لينال الإنسان النجاة، أما المسيح فأفهم الناس أن العدل وحده يحجر القلوب إن لم تمازجه دفقة من محبة (لوقا ١٦ : ١٩ - ٢٠) (١).

ومن الواضح أن هذا ليس تشريعا ولكنه تهذيب وتسامح، ومن الواضح كذلك أن المسيحيين في الغالب لم يتبعوا في سلوكهم هذا الاتجاه، بل لم يقنعوا بالعدالة التي قالت بها التوراة، وراح أكثرهم يستعمرون ويظلمون. المرحلة الثالثة: الرسل والتشريع:

وبعد عيسى بفترة قصيرة اتضح لقادة المسيحيين أن التشريع اليهودي شق على الأتباع الجدد وبخاصة من غير بني إسرائيل، وكان الختان من أهم ما شق

(١) الأب بولس إلياس ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

على هؤلاء، فأخذ المسيحيون يقللون من التكاليف والحرمان، وحصروها في الزنا وأكل المخنوق، وأكل الدم، وأكل ما ذبح للأوثان، وأباحوا الخمر ولحم الخنزير والربا، وهي محرمة في التوراة.

المرحلة الرابعة: بولس والتشريع:

وجاء بولس فلعب دورا كبيرا في التشريع المسيحي، فكان تارة يشرح ما روي عن عيسى، وتارة يقترح من عنده هو، وقد سبق أن تكلمنا عن هذا عند حديثنا عن بولس وعند حديثنا عن الأسفار التعليمية بالكتاب المقدس. وكان الختان من أهم ما عنى بولس بإيقافه، وطالما صرخ في رسائله بقوله: ما هو نفع الختان (١)؟

المرحلة الخامسة: دور الرؤساء الروحانيين والمجامع في التشريع:

وتسلم الرؤساء الروحانيون تراث التشريع من الرسل ومن بولس، وظلوا يباشرونه حتى تم الاعتراف بالمسيحية فانتقل حق التشريع إلى المجامع التي لم تكثف بالتقنين حول أمور الدنيا بل راحت تخلق الآلهة وتقرر حق الغفران وعصمة البابا... كما سبق.

المرحلة السادسة: الكنائس والتشريع:

وقرر مجمع رومة سنة ١٨٦٩ عصمة البابا، فانتقل حق التشريع إليه كرأس للكنيسة، وعن طريقه نعمت الكنيسة بهذا الحق، وقد نسب المسيحيون عصمة الكنيسة إلى عيسى، يقول الأب بولس إلياس (٢) (لقد خول السيد المسيح الكنيسة عين السلطان الذي تلقاه من أبيه السماوي عندما قال لتلاميذه: كما أرسلني الأب، هكذا أنا أرسلكم. وذلك يشمل سلطان الكهنوت والتدبير والتعليم... وعصمة الكنيسة هذه امتياز تنعم به هي والبابا رأسها نائب المسيح المنظور، ولا يعتبر

(١) أنظر مثلا رسالته إلى أهل رومية ٣ : ١ .

(٢) يسوع المسيح ص ١٨٨ و ١٩٠ .

البابا معصوما عن الضلال إلا عندما يعلن أو يرذل بطريقة احتفالية عقيدة من عقائد الإيمان، أو تعليما له مساس بالآداب المسيحية. ولا تزال هذه المرحلة معمولا بها حتى الآن.

وقد سبق أن اقتبسنا من السيد عبد الأحد داود قوله: إن المسيحيين عندما أثبتوا عصمة البابا انتقلت كل السلطة في إصدار القرارات وتعيين المعتقدات والأحكام إلى حبر رومية الأعظم الجالس على كرسي الخلافة... وأصبح حكمه قطعيا (١).

وهكذا باشرت الكنيسة سلطاتها التشريعية، ولا تزال تباشرها، ومن القرارات الهامة التي اتخذتها تبرئة اليهود من دم المسيح، وهو قرار لعبت السياسة دورا لاتخاذها، ويرى كثير من الباحثين أن عددا من الكرادلة الذين اشتركوا في تأييد هذا القرار ينحدرون من أصل يهودي، وأنهم اعتنقوا المسيحية لغرض خدمة اليهودية.

قد يقال إننا نحن المسلمين نرى أن الله أنجى عيسى من اليهود، فهم بذلك لم يقتلوه، ونجيب بأن اليهود لا يعترفون بأن شبيها لعيسى حل محله، وعدم اعترافهم بذلك يتضمن اعترافهم بقتله أي بقتلهم له، لأن هناك شخصا قتل قطعاً، ولكنها عادة اليهود، يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، كما نص على ذلك الذكر الحكيم (٢).

نماذج من التشريع المسيحي:

أهم العبادات عند المسيحيين الصوم والصلاة، وتحديدتهما ليس متفقا عليه، ويرى كثيرون من المسيحيين أن الانتظام في الصوم والصلاة توجيه اختياري لا إجباري، ومعنى الصوم عندهم الامتناع عن الطعام من الصباح

(١) الإنجيل والصلب ص ٢٣.

(٢) سورة البقرة الآية ٨٥.

حتى بعد منتصف النهار ثم تناول طعام خال من الدسم، ويشمل الصوم عند المسيحيين صوم يوم الأربعاء وهو يوم المؤامرة التي انتهت بالقبض على عيسى، ويوم الجمعة لأن المسيح صلب يوم الجمعة. وصوم الميلاد وعدد أيامه ٤٣ يوما تنتهي بعيد الميلاد، والصوم المقدس وعدد أيامه ٥٥ هي عبارة عن الأربعين يوما التي صامها المسيح مضافا إليها أسبوعان: الأسبوع الأول منهما قبل الأربعين ويسمى أسبوع الاستعداد والتهيئة للصوم الأربعيني المقدس، والأسبوع الثاني أسبوع الآلام ويأتي بعد الأربعين وينتهي بأحد القيامة، ويمتنع في هذا الصوم أكل كل حيوان أو ما يتولد منه أو ما يستخرج من أصله، ويقتصر على أكل البقول ولا يعقد في أثناءه سر الزواج، وصيام الرسل وعدد أيامه يزيد وينقص حسب الطوائف وتتراوح مدته بين ١٥ و ٤٩، وصوم العذراء ومدته ١٥ يوما تبدأ من أول شهر مسرى.

أما الصلاة فسبع صلوات في اليوم والليلة وهي صلاة البكور وصلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشر والثانية عشر ومنتصف الليل (؟)، واهتمامهم بالصلاة أكثر من اهتمامهم بالصوم، وليس للصلاة ترتيب خاص، وإنما هي أدعية تختلف من مكان إلى مكان، وغاية ما يلزم أن تحويه أن تكون على نسق الصلاة الربانية التي قدمها لهم المسيح وهي: أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، لتأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبرنا كفافنا أعطنا كل يوم، واغفر لنا خطايانا، لأننا نحن أيضا نغفر لكل من يذنب إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، ولكن نجنا من الشر. ومن التشريعات حول الأسرة أن الأصل أن يترهب الناس رجالا ونساء، ولكن لما كان ذلك غير ممكن أجاز الزواج وكان تعدد الزوجات معمولا به في مطلع المسيحية تبعا للتعدد الذي قالت به اليهودية، ولكن للجمع بين اتجاه

المسيحية للرهبنة، وبين ضرورة الزواج خوف الزنا، أصبح الزواج مباحا من واحدة فقط، ولا يجوز الطلاق إلا في حالة الزنا، فإذا تم طلاق بسبب الزنا لا يجوز لأي من هذين الزوجين أن يتزوج مرة أخرى، أما إذا كان الفراق بالموت فإن الحي يجوز له أن يتزوج، وهم في مسألة الطلاق يخالفون اليهودية التي تجيز الطلاق بدون زنا، وهناك حالة أخرى غير الزنا يجوز فيها الطلاق في المسيحية وتلك إذا كان أحد الزوجين غير مسيحي فيصح التفريق عند تهاجرهما وعدم الألفة بينهما.

ويهتم المسيحيون بكثرة النسل ويحاربون تحديده، ومما ينسب إلى البابا بيوس الثاني عشر قوله في الاتحاد الإيطالي لجمعيات العائلات الكثيرة العدد سنة ١٩٥٨ ما يلي: إن خصب الزواج شرط لسلامة الشعوب المسيحية ودليل على الإيمان بالله والثقة بعنايته الإلهية ومجلبة للأفراح العائلية (١)، ويزيد اهتمامهم بكثرة النسل في البلاد التي يكونون فيها أقلية أو مساوين في التعداد تقريبا لأتباع غير المسيحية من الديانات، ولذلك تراهم في الشرق بوجه خاص يتجهون إلى إكثار النسل في الوقت الذي يتجه فيه سواهم من أتباع الديانات الأخرى بهذه المنطقة إلى تحديد النسل.

وفي ختام هذه الدراسة نقرر أن المسيحية فقيرة في تشريعاتها، وأنها دين يعني بالروحانيات، ولا يهتم بشؤون الدنيا، وهذا يؤكد أنها تكملة لأديان بني إسرائيل، فقد تركت لهذه الأديان كل مسائل التشريع أو أكثرها، وقنعت بتوجيه كل العناية إلى الجانب الذي أهمله اليهود، وهو جانب التسامح والحب والزهد في الدنيا.

(١) مجلة الوثائق الكاثوليكية العدد ١٢٧١ سنة ١٩٥٨.

الطوائف المسيحية

من العرض السابق يمكننا أن ندرك تعدد الطوائف في المسيحية، ولكن تكرر في تاريخ المسيحية حدث عظيم لم يتخلف، هو التجاء الجانب القوي إلى أعنف وأقسى وسائل الاضطهاد والتعذيب والتنكيل والحرق والإفناء يسلمها على الجانب الضعيف كما قلنا من قبل، والعجيب أن المسيحيين اضطهدوا من اليهود والرومان، ونزلت بهم الويلات في القرون الثلاثة الأولى، فلما بدأ جانبهم يشتد رأيناهم ينزلون نفس الويلات بمخالفيهم من أبناء دينهم ومن أتباع الأديان الأخرى، ومن هنا فنيت مذاهب مسيحية كثيرة كان بعضها في وقت ما له الغلبة في العدد ولكن تنقصه القوة والسلطان، وكان فناء هذه المذاهب بسبب قوة اليهود والرومان أحيانا، وأحيانا بسبب قسوة فرق مسيحية أخرى قوية واشتدت بالأباطرة وذوي النفوذ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أهم هذه الطوائف، ونتكلم هنا كلمة قصيرة عن أشهر الطوائف الباقية حتى الآن وهي:

(١) الكاثوليك: وكنيستهم تسمى الكنيسة الكاثوليكية أو الغربية أو اللاتينية أو البطرسية أو الرسولية. ومعنى الكاثوليكية أي العامة، لأنها تدعى أم الكنائس ومعلمتها، ولأنها وحدها التي تنشر المسيحية في العالم، وسميت غربية أو لاتينية لامتداد نفوذها إلى الغرب اللاتين خاصة، أي إلى بلاد إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال، وإن كان لها أتباع فيما عدا ذلك من البلدان، وسميت الكنيسة البطرسية أو الرسولية لأن أتباعها يدعون أن مؤسسها الأول هو بطرس الرسول كبير الحواريين ورئيسهم، والبابوات في روما خلفاؤه:

والكنيسة الكاثوليكية تتبع النظام البابوي ويرأسه البابا والكرادلة وهم أصحاب الحق الأول والأخير في تنظيم الكنيسة، إذ يتكون منهم المجمع الكنائسي

الذي يصدر إرادات بابويه سامية هي إرادات إلهية، لأن البابا هو تلميذ المسيح الأكبر على الأرض فهو ممثل الله، ومن هنا كانت إرادته لا تقبل الجدل أو المناقشة (١).

(ب) الأرثوذكس: وتسمى كنيستهم كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية أو اليونانية، لأن أكثر أتباعها من الروم الشرقيين ومن البلاد الشرقية على العموم كروسيا والبلقان واليونان، وكان مقرها الأصلي القسطنطينية، وقد فصلت عن الكنيسة الكاثوليكية أيام ميخائيل كارولاريوس بطريك القسطنطينية سنة ١٠٤٥ (٢)، وهي الآن مؤلفة من عدة كنائس مستقلة.

وقد سبق أن تحدثنا عن السبب الذي من أجله انقسمت الكنيسة المسيحية إلى غربية وشرقية، وهنا نحب أن نزيد هذا الموضوع وضوحاً، وسيكون Garvie من أهم من يساعدنا على ذلك، يقول Garvie (٣):
كان هناك تضاد ينمو باستمرار بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية، وأسباب ذلك ترجع إلى عدة عوامل أهمها:

١ - تأثرت كنيسة روما بالدم الألماني ونشر المسيحية بين الوثنيين، أما كنائس الشرق فقد تأثرت بالتفكير الشرقي ونشر المسيحية بين قوم قديمي عهد بالأديان، وقد بدأ بذلك الخلاف بين الكنيستين، ثم أخذ ينمو ويزداد حينما تساهلت كنيسة روما لتجذب لها الجرمان واللاذنيين فأحلت أكل الدم المخنوق وأباحت للرهبان أكل دهن الخنزير وغير ذلك مما لم تقبله الكنائس الشرقية.

(١) محمد فؤاد الهاشمي: الأديان في كفة الميزان ص ٤٤.

(٢) Encyclopaedia of Religion and Ethics Vol .٣ p .٥٩٠

(٣) Encyclopaedia of Religion and Ethics Vol .٣ p .٥٩٠

٢ - انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى جزأين شرقي وغربي أتاح للمسيحية مركزين للسلطة والنفوذ، وأخذت العاصمة الجديدة (القسطنطينية) مكان المنافس لمدينة (روما).

٣ - وسقوط الإمبراطورية الغربية أعطى فرصة لكنيسة روما فأصبح لها سلطان سياسي بالإضافة إلى سلطانها الديني، فادعت أن من حقها أن تحكم المسيحيين في جميع بقاع العالم، ولم تقبل أن تقتسم النفوذ مع كنيسة (القسطنطينية) ولا أن تعترف بالمساواة بين أتباعها وأتباع كنيسة (القسطنطينية) وأعلنت أن رئيسها هو الحبر الأعظم والرئيس الروحي للجميع، ولم تقبل عاصمة الإمبراطورية الشرقية ذلك، وإن كانت فيما بعد تساهلت بعض التساهل فاعترفت بتقدمه لا برياسته.

٤ - قالت الكنيسة الغربية إن روح القدس نشأ عن الله الأب والله الابن معاً، وأصررت الكنيسة الشرقية على أن روح القدس نشأ عن الله الأب فقط.

٥ - قالت الكنيسة الشرقية بأفضلية الإله الأب عن الإله الابن، وقالت الكنيسة الغربية بالمساواة الكاملة بين الاثنين.

٦ - قالت الكنيسة الشرقية بأن المسيح طبيعة واحدة ومشئمة واحدة، وقالت الكنيسة الغربية بأنه طبيعتان ومشئتان.

ولا تزال الأسباب الثلاثة الأخيرة هي قمة الخلاف بين الكنيستين. وقد سبق أن أشرنا إلى أن الكنائس الغربية ظلت محتفظة بوحدتها بزعامة كنيسة روما، ولكن الكنائس الشرقية انقسمت إلى وحدات، كل وحدة منها مستقلة وإن اتفقت جميعها في المشرب والاتجاه.

والكنيسة الأرثوذكسية تتبع نظام الإكليروس ويبدأ من البطريرك ويليه في الرتبة المطارنة، ثم الأساقفة، ثم القسس أصحاب الامتياز ويسمون

القمامصة، ثم القسس العاديون ويسمون القساوسة وهؤلاء جميعا أصحاب الرأي والكلمة في كل ما يدور حول الكنيسة (١).

(ج) البروتستانت: وتسمى كنيستهم الكنيسة الإنجيلية، وقصد بهذه التسمية إلى أن أتباع هذه الكنيسة يتبعون الإنجيل دون غيره، ويفهمونه بأنفسهم، ولا يخضعون لفهم سواهم له، ولا تختص بفهمه طائفة دون أخرى، فلكل قادر الحق في فهمه، وجميعهم متساوون ومسؤولون أمام هذا الكتاب، وبهذا الاتجاه يعارضون الكنائس الأخرى التي تعتبر فهم الإنجيل وقفا على رجال الكنيسة، والتي لا تعتبر الإنجيل هو المصدر الوحيد للديانة المسيحية بل تضيف إليه الإلهام، والتعاليم غير المكتوبة التي يتناقلها البابوات واحد عن الآخر.... (٢).

وتنتشر البروتستانتية في ألمانيا وإنجلترا والدانمرك وهولندا وسويسرا والنرويج وأمريكا الشمالية، ولكن الإنجليز اعتقدوا أن حركة الإصلاح حركة عادلة رشيدة، وأنها هي الأصل فيما يجب أن تكون عليه الكنيسة الكاثوليكية ومن ثم استبقى الإنجليز استعمال كلمة الكنيسة الكاثوليكية على الكنائس التي هي نتاج حركة الإصلاح دون أن يحتاجوا أن يطلقوا عليها كلمة البروتستانتية، وللتفريق بين تسمية الكنيسة الإنجيلية والكنيسة الكاثوليكية الأصلية أطلقوا على كنيسة روما وأتباعها، الكنيسة الرومانية الكاثوليكية (٣). وتتبع الكنيسة البروتستانتية نظاما تعاونيا أي يتعاون أعضاؤه على القيادة والوعظ، مع عدم المساس بالاستقلال الذاتي لكل كنيسة.

(١) محمد فؤاد الهاشمي. الأديان في كفة الميزان ص ٤٤.

(٢) pengadjaran Geredja Katolik p .١١٩.

(٣) pp. Encyclopaedia of Religien and Ethics Vol ٥ .٢٥٨ - ٢٥٩.

الكنيسة وطقوسها وأسرارها
ويتصل بالطوائف المسيحية بحث عن الكنيسة وتقاليدها وأسرارها يعني
به المسيحيون، وقد مر أكثر ما به من مادة في ثنايا هذا الكتاب، ولكن
لا بأس من إيجازه هنا تبعا لاتجاه هؤلاء الباحثين:
طقوس الكنيسة:

الطقوس في اصطلاح الكنيسة هي مجموع الصلوات والابتهالات التي تتم في
الاحتفالات الكنسية ويقوم بها الكاهن مع الذين يساعدونه في أداء الأسرار
المقدسة، ومن هذه الطقوس السجود أمام الهيكل بمجرد دخول الكنيسة،
والبخور، والقرايين، وأداء الصلوات السبع التي فرضتها الكنيسة، وهي
صلاة البكور وصلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة والثانية
عشرة ثم صلاة منتصف الليل (?).

أسرار الكنيسة:

أسرار الكنيسة سبعة هي:

- ١ - سر المعمودية وقد سبق الحديث عنها.
- ٢ - سر المسح بالميرون المقدس، ويمسح به عقب الخروج من المعمودية،
والميرون مزيج من العقاقير عليه بقايا تحدرت - كما يدعي رجال الكهنوت -
من الدهن الذي صنعه الرسل ولا يمسح بالميرون إلا الكهنة.
- ٣ - سر العشاء الرباني وقد سبق الكلام عنه.
- ٤ - سر التوبة والاعتراف، ويلزم أن يكون الاعتراف أمام كاهن،
وأن يكون الاعتراف كاملا وواضحا، ومن ثمار هذا الاعتراف الحصول
على غفران الخطايا ويمنح الكاهن هذا الغفران!! وسنرى أن ذلك السر

سيكون من الأسباب التي أثارت كثيرين على المسيحية، فخرجوا على الكنيسة وأنشأوا جماعة البروتستانت.

٥ - سر الكهنوت وهو السر الذي يختار به رجال الدين ويعينون في مناصبهم الكهنوتية.

٦ - سر المسح على المريض ليشفى جسميا وروحيا.

٧ - سر الزواج للربط بين الزوجين رباطا مقدسا دائما (١).
الرهبنة والأديرة

ويتصل بالكنائس أيضا حديث عن الرهبنة والأديرة جدير بالذكر: فقد عانى المسيحيون في عهد الاضطهاد صنوفا من التعسف والقسوة كما ذكرنا من قبل، وكان ذلك - كما يقول الكتاب المسيحيون - تدريبا للمسيحيين على التضحية وحب الفداء. فلما بدأ عهد الحرية تحسر أولئك الذين فاتهم ركب التضحية وسفك الدماء، فقرروا أن يضحوا بمتعهم إذ فاتهم أن يضحوا بدمائهم ولجأوا للتفرد بالجبال، والابتعاد عن ضجيج الحياة، والحرمان وتعذيب الجسم بالجوع والعطش وحسن الثياب، والتبتل وعدم الزواج، والعكوف على العبادة تقديرا للسيد المسيح الذي بذل نفسه من أجل البشر، وبخاصة أنهم أدركوا بطلان هذا العالم وخداع مظهره الخلاب.

وقد مرت الرهبنة بمراحل، فكانت في المرحلة الأولى هروبا من الناس، وبعدا عن المدن والقرى الزاخرة بالأدناس، وانطلاقا في الصحارى والبراري ولجوءا إلى الكهوف، بقصد محاربة الجسد والإكثار من العبادة والتأمل، مع المحافظة على الوحدة والتفرد.

وبمرور الزمن كثر عدد الراغبين في التهرب، ومال هؤلاء إلى نوع من الاجتماع والمعاشرة إذ تعرض بعضهم إلى عدوان اللصوص والمجرمين،

(١) الأب بولس إلياس. يسوع المسيح ص ٢١٠ - ٢١٤ وتاريخ الأقباط لزكي شنودة ص ٢٥٦ - ٢٦٤.

فبنوا لهم صوامع متجاورة، ثم انتهى بهم الأمر إلى بناء أسوار عالية تضم بداخلها عددا من الصوامع، فنشأ عن ذلك الدير، وكثرت بعد ذلك الأديار وانتشرت هنا وهناك.

على أن الرهينة لم تنشأ فقط بسبب الرغبة في التضحية والفداء بعد أن توقف الاضطهاد، بل إن المسيحيين ينسبون أسسها إلى السيد المسيح الذي يروون عنه قوله: - إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني (١).

- من أحب أبا أو أما أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابنا أو ابنة فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني، ومن أضاع حياته من أجلي سوف يجدها.

- من ترك بيوتا أو حقولا من أجل اسمي يأخذ مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية.

- للشعالب أو جرة، ولطيور السماء أو كار، وأما ابن الإنسان فليس له أن يسند رأسه.

أما اللجوء إلى الجبال والبراري فمقتبسة من السيد المسيح الذي كان يصعد إلى الجبل حين يريد أن يصلي أو يعلم الجموع، ومن يوحنا المعمدان الذي كان يعيش في البرية ويكرز فيها.

ومن أسس الرهينة عدم الزواج أي التبتل، وعن ذلك يحدث السيد المسيح في قوله: يوجد خصيان ولدوا هكذا، ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات، من استطاع أن يحتمل فليحتمل (٢)، وسنعود فيما بعد بالنقد لهذا النظام الذي يجر على العالم الخراب والدمار.

(١) متي ١٩: ١٦ - ٢١.

(٢) متي ١٩: ١١ - ١٣.

وأما التقشف والفقر وتعذيب الأبدان بالجوع والعطش وخشن اللباس، فقد أعاده المسيحيون إلى الاقتداء بالسيد المسيح في زهده واحتماله الآلام، وبما جاء في أعمال الرسل: إنه بمضايقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله. وأما الطاعة التامة التي يدين بها الرهبان لرؤسائهم فيرجعونها إلى قول المسيح: مع كونه ابنا تعلم الطاعة (١).

والباحث في مقارنة الأديان يجد أن المسيحيين في تصرفاتهم هذه اتبعوا المنهاج الهندي دون تحريف، فالترهب والتبتل وتعذيب الجسم... هي سياسة الهندوسية والبوذية التي وصفناها بوضوح في كتابنا (أديان الهند الكبرى). وليس الالتحاق بالرهبة شيئا يسيرا، فطالب الالتحاق يختبر ويمر بتجارب حتى يعترف الرهبان بأنه مستحق، وحينئذ يرقد على ظهره أمام الهيكل ويصلي الرهبان عليه صلاة خاصة، مضمونها أن هذا الرجل قد ترك العالم كأنه مات، ولم يحسب ضمن أبناء هذا العالم أي ضمن العلمانيين. ويرى الباحثون الأقباط أن نظام الرهبان نشأ في مصر أول ما نشأ، ثم نقله الرهبان الأقباط إلى إيطاليا وفرنسا وغيرهما من الدول (٢).

(١) أنظر تاريخ الأقباط للأستاذ زكي شنودة ص ١٧٨ - ١٩٢، ويسوع المسيح للأب بولس إلياس ص ٢٦٧ - ٢٨١. والدعوى الرهبانية في الكنيسة للأب موجته ص ٣٤.
(٢) تاريخ الأقباط ص ٢١٤.

حركة الاصلاح الديني
الحديث عن المذهب البروتستانتي أو عن حركة الاصلاح الديني يحتاج
إلى شئ من التفصيل لبيان حالة الكنيسة قبيل هذه الحركة الاصلاحية، وفيما
يلي أهم الأسباب التي دعت إلى الثورة والتي أنتجت حركة الاصلاح.
١ - سلطة الدولة:

وأول ما نبرزه هو السلطة التي حصل عليها البابا، تلك السلطة التي منحها
له المجامع أو التي منحها له الظروف، وقد رأينا أن مجمع رومة المنعقد سنة ٨٦٩
قرر أن الفصل في المسائل الدينية من اختصاص كنيسة روما، وأن المسيحيين
جميعا يخضعون لقرارات رئيس هذه الكنيسة، ورأينا أن مجمع رومة المنعقد
سنة ١٢١٥ يقرر أن الكنيسة البابوية تملك حق الغفران وتمنحه لمن تشاء،
وطبيعي أن من يملك حق الغفران يملك حق الحرمان.

أما السلطة التي منحها الظروف للبابا فمرجعها إلى الانقسام السياسي الذي
حصل في الدولة الرومانية الغربية وإلى الصراع الذي كان كثيرا ما يحصل بين
الدول الجديدة التي قامت على أنقاض الدولة الرومانية الغربية، وفي وسط هذا
الانقسام وذلك الصراع استقل البابا استقلالاً تاماً ولم يعد تابعا لأي من الملوك
والأمراء، وقد اعترف الجميع له بالاستقلال تخلصاً من التنافس على السيطرة
على الكنيسة، ومن ثم صار تعيين البابوات بطريق المجامع لا بطريق
الأباطرة وهذا أيضا قوى سلطان البابا.

وفي الوقت الذي لم يعد البابا تابعا لأي من الملوك كان الملوك بحكم أنهم
مسيحيون تابعين للبابا وخاضعين له تبعاً لقرار المجمع آنف الذكر الذي جعل
كل المسيحيين ملزمين بطاعة البابا وخاضعين له.
وكان المسيح كما يعتقدون قد أقام بطرس الرسول خليفة له ليرأس

الحواريين ويدير شؤون المسيحيين، وقد أنشأ بطرس كنيسة روما، والبابا خليفة لبطرس في رياسة هذه الكنيسة وفي إدارة شؤون المسيحيين، فالبابا على هذه خليفة للمسيح، له سلطاته ومكانته.

وقد باشر رجال الدين هذه السلطات بكثير من التوسع بل النزق أحيانا، فأخذوا يبيعون صكوك الغفران، ويصدرون قرارات الحرمان حتى على الملوك والعظماء، وأصبحت الكنيسة بذلك هي التي تفهم الكتاب المقدس، وهي التي تصدر القرارات بناء على هذا الفهم وبناء على العلم الذي لم يدون والذي يتوارثه البابوات كما سبق، ولا معقب لما تقول الكنيسة، و (على الناس أن يتلقوا قولها بالقبول، وافق العقل أو خالفه، وعلى المسيحي إذا لم يستسغ عقله قولاً قالته أو مبدأ دينياً أعلنته أن يروض عقله على قبوله، فإن لم يستطع فعليه أن يشك في العقل ولا يشك في قول البابا) (١).

٢ - الاستحالة

ومن هذه الأشياء التي أعلنتها الكنيسة مسألتان لا أصل لهما في الأناجيل المعروفة ولا يستسيغهما العقل، وهاتان المسألتان هما: ١ - الاستحالة ٢ - غفران السيئات، والاستحالة هي اعتقاد المسيحيين أنهم حينما يأكلون الخبز ويشربون الخمر يوم الفصح وهو المسمى عندهم بالعشاء الرباني يستحيل الخبز إلى لحم عيسى وتستحيل الخمر إلى دمه، فمن أكل ذلك الخبز وشرب تلك الخمر فقد أدخل المسيح في جوفه وامتزج به وبتعاليمه (٢)، وقد سبق الحديث عن العشاء الرباني.

٣ - غفران الذنوب:

وأما غفران الذنوب فقد أصبح بدعة عجيبة (٣)، فإذا أراد البابا أن يبيني

(١) أبو زهرة: محاضرات في النصرانية ص ١٦٨.

(٢) متي ٢٦: ٢٧ لوقا ٢٢: ١٨ مرقس ١٤: ٢٢.

(٣) أنظر ارتباط هذه البدعة بالحروب الصليبية في الجزء الخامس من (موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية) للمؤلف

كنيسة أو يجمع مالا لشيء ما، طبع صكوك الغفران ووزعها على أتباعه لبيعوها للناس كالذين يبيعون أسهم الشركات أو أوراق اليانصيب، وبالصك فراغ ترك ليكتب به اسم الذي سيغفر ذنبه، والعجيب أن هذا الصك يغفر لمشتريه ما تقدم من الذنوب وما تأخر، فهو بعبارة أخرى إذن بارتكاب كل الجرائم بعد أن ضمنت الجنة لهذا المحفوظ، وفيما يلي نص لصك غفران: (ربنا يسوع المسيح يرحمك يا.....) (يكتب اسم الذي سيغفر له) ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القدسية، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها، وأيضا من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفضيحة، ومن كل علة، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا، والكرسي الرسولي، وأمحو جميع أقذار الذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدها في المطهر، وأردك حديثا إلى الشركة في أسرار الكنيسة، وأقرنك في شركة القديسين، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كان لك عند معموديتك، حتى إنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة، حتى تأتي ساعتك الأخيرة، باسم الأب والابن وروح القدس).

ذلك هو الوضع الذي آلت له حينذاك مسألة غفران الذنوب، فقد كان جميع المال في أول الأمر وسيلة للإعفاء من الاشتراك في الحروب الصليبية، ثم أصبح وسيلة لغفران الذنوب ما مضى منها وما هو آت. دون حاجة إلى توبة أو رد ظلامه.

٤ - الضرائب

دفع المسيحيون الأموال ليشتروا الغفران. ولكن الكنيسة لم تقنع

بما جمعت من مال، فقد أرادت أحيانا أن تأخذ مالا مرة أخرى ممن سبق أن اشترى صك الغفران، أو ممن لم يقنع بهذه البدعة وضمن بالمال على هذا الصك، وعمدت الكنيسة لذلك إلى فرض ضرائب على أتباعها كانت باهظة أحيانا، وكانت تشمل الفقير والغني.

٥ - الهرطقة ومحاربتها:

على أن أهم ما اشتهر به العهد الذي سبق حركة الإصلاح هو محاربة الهرطقة، والحديث عن هذا الموضوع يحتاجنا أن نوضح:

١ - ما الهرطقة؟

٢ - كيف حوربت؟

والإجابة عن السؤال الأول سهلة يسيرة، فالهرطقة - كما فهمتها الكنيسة إذ ذاك - هي مخالفة رأي الكنيسة، فرأى يراه عالم في العلوم الكونية هرطقة، ومحاولة فهم الكتاب المقدس لرجل غير كنسي هرطقة، وانتقاد شيء يتصل بالكنيسة هرطقة، ومساعدة واحد من هؤلاء أو الرضا عن اتجاهه هرطقة، وهكذا.

وأما كيف حاربت الكنيسة الهرطقة فيتضح ذلك من قرار المجمع الذي عقد في سنة ١٢١٥ إذ تقرر فيه استئصال الهرطقة، وقد نفذت الكنيسة هذا القرار أو هذا الاستئصال بكل قسوة ونشاط، فاستعملت القتل والحرق ومحاكم التفتيش، فأحرق يوحنا هوس وجيروم، وأحرقت كتب ايبيلارد وسجن حتى الوفاة، وأوقعت محاكم التفتيش بالهرطقة والأبرياء دون تمييز، فقد كان الايقاع بالناس دليل إخلاص إلى الكنيسة، وقد سبق الحديث عن هذه الاضطهادات. عهد النور:

وأطل عهد النور على العالم ولكن الكنيسة لم تحس به، فقبل ذلك ببضعة قرون كان هناك دين آخر قد ظهر، ذلك هو الدين الإسلامي، وذلك الدين

لم يحارب العلوم بل غذاها وحث عليها، وفي ظل هذا الدين استيقظت فلسفة الإغريق بعد سبات طويل، واستيقظ الطب والفلك وعلوم الرياضة، وقام العلماء المسلمون في هذه العلوم وفي سواها بنشاط كبير، ورعا الخلفاء والكبراء هؤلاء العلماء وبنوا لهم المعاهد الشهيرة، ومن أهمها بيت الحكمة حيث كان الخليفة المأمون يعطي المترجمين وزن ما يترجمونه من الذهب الخالص. ووجدت هذه العلوم طريقها إلى أوروبا عن طريق الأندلس وصقلية وفلسطين، والتحق كثير من المسيحيين بمعاهد قرطبة وإشبيلية وقبرص، وبدأت اليقظة تدب في أوروبا نتيجة لذلك ونتيجة لسواها، وهو ما يسمى عصر النهضة (The Renaissance) وحينئذ وجدت الكنيسة أن الهرطقة (!!) كثرت وانتشرت، فضاعفت جهدها في الكفاح، غير أن عهد النور كان قد قوي، وقد استطاعت الكنيسة أن تحصل على سلطات ضخمة وأن تحافظ عليها وأن تقضي على كل خصومها في عهد الظلام، أما وقد بدأ عهد النور فلم يعد من السهل على الكنيسة أن تستمر في هذا الطريق، ولكنها قاومت وناضلت، وقاوم معارضوها وناضلوا أيضا، وأخذوا من عهد النور قوة فلم يفنوا كما فني أمثالهم من قبل، ومن هنا بدأ صراع عنيف بين الكنيسة وبين المصلحين سنلم به إماما سريعا:

المصلحون:

بدأ المصلحون يرتفع صوتهم في القرن الخامس عشر، ومن أشهر من نادوا بالإصلاح في هذا القرن جيروم وهوس، ولكن سلطان الكنيسة كان أقوى منهما، فأعدما حرقا بالنار، بيد أن مصلحي هذا القرن على كل حال مهدوا الطريق لمن جاء بعدهم، وحفل القرن السادس عشر بمجموعة من المصلحين المشاهير، وبخاصة في إنجلترا التي كانت ترى سلطان الكنيسة تدخلا في شؤونها، وفي ألمانيا التي عانى بعض ملوكها قسوة البابوات حينما أصدروا ضدهم قرارات حرمان. ومن هنا يسر هؤلاء الملوك

لرعاياهم القيام بحركات مناوئة للكنيسة، فظهر في إنجلترا توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥)

ودعا إلى إصلاح الكنيسة بطريق سلمي، ثم ظهر بعد ذلك (في نفس القرن) أشهر المصلحين وهو مارتن لوثر، وكان ظهوره في ألمانيا موطن العقل الكبير والتفكير الحر، وكان لوثر عالما باللاهوت ولذلك نجد أنه تجمع له ما لم يتجمع لسواه،

فحركته نابعة من قبله وليست بتوجيه ملك أو إيعاز أمير وهو رجل ألماني مستقل العقل حر التفكير، ثم هو من رجال اللاهوت، فهو عليم بخبايا الكنيسة دارس لعلومها وكان لوثر - بالإضافة إلى دراسته لللاهوت - شديد الورع يحصي على نفسه سيئاتها ويبالغ في تقديرها، وتضطرب نفسه خوفا منها، وحج إلى روما رجاء أن يزيده قربه من الأماكن المقدسة صلاحا ويبعده عن السيئات، ولكنه هناك وجد ما أزعجه، إن هذه الذنوب التي أثقلته يستطيع الكاهن أن يعفيه منها بصك يشتره، يا الله!! كيف هذا؟ كيف ينجو القاتل من العذاب بصك يشتره؟ وكيف تمحى سيئات السارق وقاطع الطريق وأكل حقوق الناس إذا أراد الكاهن ذلك دون نظر إلى المعتدى عليهم ودون نظر إلى الله خالق الكون، ورأى لوثر كذلك في روما ما قلل مكانة رجال الدين عنده، وعاد إلى ألمانيا فلاحقته صكوك الغفران إذ كان البابا (ليو) يريد أن يعيد بناء كنيسة بطرس واحتاج للمال فقرر أن يحصل عليه من بيع هذه الصكوك، فأرسل أحد حاملها فيمن أرسل إلى ألمانيا، فثار لوثر لذلك وكتب احتجاجا علقه على باب الكنيسة، فطلبته الكنيسة لمحاكمته أمام محاكم التفتيش فلم يدعن فأصدرت قرارا بحرمانه، وتبعاً لذلك أصدر الإمبراطور قرارا بحرمانه من الحقوق القانونية والمدنية، ومعنى ذلك أنه أصبح مباح الدم فقد كل ما يملك، ولكن أحد الأمراء حماه.

وصادفت دعوة لوثر في القرن السادس عشر نجاحا واعتنقها كثير من المصلحين الذين ساروا في طريق لوثر، فأنكروا حق الغفران، والاستحالة، ووقف فهم الكتاب المقدس على الكنيسة، وما شابه ذلك.

نتائج الحركة الاصلاحية:

بقيت الكنيسة في واد ودعوة الاصلاح في واد آخر، وعجزت الكنيسة عن القضاء على هذه الحركات، ولكن هذه الحركات أيضا عجزت عن تحويل تفكير الكنيسة، وكانت نتيجة ذلك أن أنشأت الحركة الجديدة كنائس لأتباعها، سميت الكنائس البروتستانتية.

مبادئ الكنيسة البروتستانتية:

أهم مبادئ هذه الكنيسة هي:

١ - جعل الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للمسيحية، ورد كل الأحكام التي لم ترد فيه كتلك التي تستند إلى رأي البابوات أو إلى العلم الخاص الذي قيل إنهم يتوارثونه الواحد عن الآخر.

٢ - من حق كل مسيحي قادر أن يقرأ الكتاب المقدس وأن يفسره.

٣ - ليس لكنائس البروتستانتية رياسة عامة، فلكل كنيسة رياستها وعمل الرياسة هو الإرشاد وتوجيه من لا يستطيع أن يستقل وحده بفهم الكتاب المقدس.

٤ - ليس للكنيسة حق غفران السيئات.

٥ - ترجمة الكتاب المقدس للغات المختلفة حتى يقرأه الناس على اختلاف لغاتهم وحتى تكون صلاتهم ودعاؤهم بلغة يعرفونها.

٦ - لا علاقة للعشاء الرباني بجسم المسيح ودمه وليس هو إلا للذكرى.

٧ - عدم الاعتراف بضرورة الرهبنة وإباحة الزواج لرجال الدين.

٨ - عدم اتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس وعدم السجود لها فذلك للوثنية أقرب.

فقد الحركة الإصلاحية:
هل نجحت حركة الإصلاح هذه أو فشلت؟
يرى كثير من الباحثين أن الحركة نجحت وأن من دلائل نجاحها بقاءها
و كثرة أتباعها وانتشارها في عدة أقطار.
وقد قامت حركات إصلاحية من قبل كحركة أريوس ونسطور وغيرهما
ولكنها فشلت واندثرت، ولم يبق لها إلا ضلال قليلة إن كانت لها ضلال في
ثنايا التاريخ أو تفكير الأذكياء الموهوبين الشجعان.
أما حركة لوثر فقد ساعدها الزمن الذي كان قد تطور، والحرية التي كانت
قد بدأت تنتعش، ثم ساعد بعد ذلك على انتشارها أنها صادفت اكتشاف
أمريكا فدخلت إلى هذه البلاد مع أتباعها من الإنجليز وغيرهم، وهناك قوى
عودها واستقرت، فاتخذت لها في الدنيا الجديدة كما اتخذت في الدنيا القديمة
مراكز قوية.
ولكن إذا ذهبنا نتعمق في فهم هذه الحركة الإصلاحية نجد أنها فشلت
من ناحيتين:
أولاً: لم تستطع تقويم الكنائس التي كانت قائمة، ولم تفلح في التغلب
على البابا وأفكاره وأتباعه، فقنعت بإنشاء كنائس لها، تنفذ فيها المبادئ
الإصلاحية التي اعتنقتها، وتركت آلاف الكنائس الأخرى تسير على النحو
الذي كانت تسير عليه من قبل.
ثانياً: كانت الحركة إصلاحاً للكنيسة لا إصلاحاً للمسيحية، والفرق
بين الموضوعين كبير، ومعنى هذا أن ما أثار لوثر ومعاصريه هو أفعال
الكنيسة في ذلك العهد، أما البحث في الأشياء الهامة التي دخلت على المسيحية
الأصيلة فلم يكن موضوع إصلاح عند لوثر ومعاصريه، لقد تلقى لوثر

ومعاصروه المسيحية من الأجيال السابقة، واعتنقوها تقريرا كما هي، ولم يثوروا إلا على ما ابتدعته الكنيسة في عهدها الأخير، كغفران السيئات، والاستحالة، وحق تفسير الكتاب المقدس، والمسيحية غير المكتوبة التي يتوارثها البابوات...

وعلى هذا بقيت موضوعات ضخمة لم يتطرق لها الاصلاح وذلك مثل:

- ١ - التثليث.

- ٢ - صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر.

- ٣ - ما الكتاب المقدس؟ ومن هم مؤلفوه؟ وما الصلة بين الأناجيل ومؤلفيها؟ وأين إنجيل عيسى؟

- ٤ - مدى سلطة المجامع في اتخاذ قرارات تتعلق بأسس الدين. وبهذا كان نجاح الحركة الاصلاحية - فيما أعتقد - محدودا ومحدودا للغاية.

المسيحية في ضوء النقد العلمي
هل يجوز لي أن أنقد رسالة المسيح وأنا أو من به وبرسالته؟
صحيح أن الأديان تعرضت لنقد شنه الفلاسفة والمفكرون الأحرار
(Free Thinkers) الذين لا يتبعون ديننا معيناً، ويعطون أنفسهم الحرية الكاملة
في نقد أي دين كما ينقدون أية فكرة وأي اتجاه، ولكن هل يستطيع أتباع
الأديان أن يفعلوا ما فعله المفكرون الأحرار؟
لقد حدث في الإسلام حدث ذو بال فيما يتعلق بالتفكير الحر، ذلك أن
المسلمين قبلوا تحدي هؤلاء المفكرين الأحرار، وراح المسلمون يناقشون معهم
قواعد الإسلام في ضوء النقد العلمي والتفكير الحر، وراح هؤلاء المسلمون
وبخاصة طائفة المعتزلة يشرحون للناس اتفاق الدين الإسلامي مع العقل، كما ذهبوا
يستخدمون العقل والبراهين المنطقية في الدفاع عن الإسلام وشرح أسسه واتجاهاته،
وكان علماء الإسلام أول المتدينين الذين أجازوا أن يتدخل العقل في فهم الأديان
وأهدافها، وانتهت طائفة المعتزلة، ولكن اتجاهها هذا ظل حياً قوياً، ولا
شك أن اتجاه المعتزلة وغيرهم من المفكرين المسلمين كان صدى للتفكير الإسلامي
نفسه، فالقرآن الكريم مملوء بالآيات التي تحث على استعمال العقل وتدبر الأمور.
وفي ضوء هذا الاتجاه ننقد المسيحية نقداً علمياً هادئاً قوامه الإنصاف
والبحث عن الحق ولا شيء غير ذلك.
على أننا في الحقيقة نستطيع أن ننقد المسيحية دون هذا التردد والحذر،
فقد اتضح لنا من الدراسة السابقة أن المسيحية التي تعلمها الكنيسة، أي
مسيحية اليوم، مسيحية الأناجيل المعترف بها من الكنيسة، هذه المسيحية
لا تمثل المسيحية الحقيقية بحال، إن هذه الديانة هي من وضع بولس وليست

الوحي الذي نزل من الله إلى المسيح، ومن ثم ليس هناك أدنى حرج في نقدها وإخضاعها لمقياس الفكر حتى عند المحافظين الذين يرون أن الواجب أن نخضع للأديان السماوية دون أن نقيسها بمقياس العقل.

وهناك سبب آخر هام يبيح لنا نقد المسيحية، ذلك أن المسيحية جاءت لبني إسرائيل لتصحيح أوضاع شاذة عندهم، فقد تكالب اليهود مثلا على المال وحاولوا جمعه بمختلف الطرق، فجاءت المسيحية تدعو للزهد لتكسر حدة هذا الجشع. وكان التحدي والانتقام طابع العلاقة بين طوائف اليهود (الكهنة والفريسيين والآسيين والندريين وغيرهم (١)). فجاءت المسيحية تقول بالتسامح. ولو بقيت المسيحية على وضعها هذا أي لو بقيت ديننا لبني إسرائيل يدعوهم للزهد ليكسر حدة جشعهم، ويدعوهم للتسامح ليسكر حدة التحدي عندهم لكان ذلك جميلا - لأنها ديانة جاءت في ظروف خاصة ولجماعة خاصة فتلونت بلون خاص، ولكن بولس نقلها إلى العالمية وبقيت في أناجيلها تعاليم الزهد والتسامح فلم يستقم أمرها واضطربت وتعثرت، فلم يكن من الممكن أن تعيش هذه التعاليم، ولم يكن من الممكن أن يعيش الزهد ومحاربة المال في الأحوال الاقتصادية العادية، ولا كان من الممكن أن يظل العالم يقدم الخد الأيسر للمعتدي ليصفعه كما صفع الأيمن، ومن أجل هذا انفض أتباع المسيحية عنها وإن بقي الكثيرون منهم يحملون اسمها.

وفي ضوء هذا التقديم نبدأ بنقد المسيحية نقدا علميا هادئا، وقد سبق لنا أن نقدناها خطوة خطوة فقد كان من الضروري عندما تكلمنا عن ألوهية المسيح أو الكتاب المقدس مثلا أن تستمر فنبيدي الرأي في هذا القول، ولكننا هنا نريد أن ننقد المسيحية جملة، وهو ما نأخذ في إيرادها فنسأل السؤاليين التاليين:

(١) المسيح للمرحوم الدكتور عبد العزيز عبد المجيد، ضمن كتاب هداة الإنسانية في الشرق، ص ١٣٣ وما بعدها.

١ - ما الأسس الأصلية للديانة المسيحية؟

٢ - إلى أين انتهت هذه الديانة؟

وللإجابة على هذا السؤال الأول تقرر أن الأناجيل تكاد تكون فكرة مكررة عن التسامح والحب وعدم الميل للشر حتى في دفع الشر، وعن الصلة المباشرة بين الله والناس، ولسنا نستطيع أن نعطي هنا نماذج لما في المسيحية من تسامح وحب، لكثرة ما نعطي وكثرة ما ندع، وحسبنا أن نقول إن الإنجيل كله حث على هذه الأخلاق، فليفتح القارئ أي صفحة منه فإنه سيجد هذا الاتجاه لا محالة، وعن الصلة المباشرة بين الله والناس يقول الأستاذ فريد وجدي: (إن النقد الديني للديانة العيسوية يقول إن عيسى لم يجرى إلى الناس بأصل جديد من أصول الدين، ولا بأمر من الأمور العبادية لم يكن معروفا من قبل، ولكنه امتاز بأمر واحد لم يجعله رسول قبله مثل تجليته إياه وهو إعلان القرابة القريبة بين الله وعباده، فجعل الله لخلقهم رحيمًا بهم، وهدم الحواجز بين الله والناس (١)). ويقول الكاتب المسيحي Alfred E (٢): وتعاليم المسيح تجمعها الأسس التالية:

١ - قيام مملكة الله حيث المساواة والعدالة...

٢ - الله هو أبو البشر وهو الأمل الذي تهفو نحوه أرواح البشر جميعًا.

٣ - الكمال التام والحب الشامل.

تلك هي الديانة المسيحية لا أكثر ولا أقل، أما ما سوى تلك من أسس دينية فقد اعتمدت الديانة المسيحية فيها على التوراة، وقد صرح

(١) دائرة معارف القرن العشرين ج ٦ ص ٧٨٨.

(٢) Encyclopaedia of Religions and Ethics Vol .٣ p .٥٨٣.

عيسى بقوله أنه جاء ليتم التوراة لا ليبدأ ديناً جديداً (لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل (١)).

وهنا نجئ إلى السؤال الثاني وهو إلى أين انتهت هذه الديانة؟ فتقابلنا في الإجابة عنه حقيقة عجيبة هي أن الإنجيل أصبح منذ زمن طويل جسماً لا روح فيه، وأن المسيحيين وفي مقدمتهم رجال الكنيسة أنفسهم كانوا أول من أهمل تعاليمه. فقد عاد القسس إلى ما كان عليه الكهنة اليهود من وضع أنفسهم بين الله وبين الناس، فالتعميد والزواج والموت لا بد فيها من حضور ممثل الكنيسة (٢). ويقول عبد الأحد داود إنه من تعاليم الكنيسة أنه مهما تكن أعمال المرء سليمة وتبدو مقبولة، ومهما يكن الإيمان والصلاح مسلماً بهما عند الناس، فكل المزايا والفضائل ستبقى بدون ثمرة ما لم تتدخل قدسية القسيس بين المرء وربّه، وما لم تبارك يد القسيس هذه الأعمال (٣). أما الحب والتسامح فقد حل محلهما البغض والانتقام بل الغيظ والعدوان، وحسبنا ما ذكرناه من قبل عن اضطهاد المسيحيين بعضهم لبعض واضطهادهم لسواهم من غير المسيحيين، ومعنى ذلك أن أثر التعاليم المسيحية كان محدوداً في نفوس المسيحيين أو كان معدوماً. وكان التفكير الإسلامي في مسألتَي الحب والتسامح عملياً، فقد أوصى الإسلام تابعيه بالحب والتسامح وتكررت في القرآن آيات الحب وآيات التسامح (٤)، ولكن الإسلام لم يكتف بذلك بل فرض العدالة، ووضع النظم، فإذا عجز البشر عن اتباع الحب كان عليهم أن يخضعوا للنظم والقوانين العادلة التي فرضها الإسلام، ولكن المسيحية تركتهم للحب

(١) متي ٥ : ١٧.

(٢) Pengadjaran Geredja Katolik H . ١٤٧ - ٢٤١.

(٣) الإنجيل والصليب ص ١٢٦.

(٤) اقرأ المجتمع الإسلامي ص - ٨٩.

فقط، فإذا عجزت النفس الإنسانية عن التخلق به - وكثيرا ما يحدث - لم تكن هناك قوانين تحد من طغيانها.

ولا يوافق النقاد على عقيدة المسيحية التي ترى أن الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها، وأن على المسيحي أن يؤمن بالعقائد المسيحية، ثم يروض عقله على فهمها، وقد عبر عن ذلك القديس أنسليم بقوله (يجب أن تعتقد أولا ما يعرض على قلبك بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت) ويعلق أستاذنا الإمام محمد عبده على ذلك بقوله: والويل كل الويل لطالب الفهم إذا أداه اجتهاده إلى شيء يخالف ما تعلق به إيمانه (١).

وتعطي المسيحية للرؤساء الروحانيين سلطة تشبه سلطة الآلهة، وتجعل قولهم يلزم أن يتبعه الناس، ويلزم أن يتبعه الله (!!!) فقد ورد في متي (٢) ما نصه: الحق أقول لكم ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا في السماء، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا في السماء.

ويعلق الإمام محمد عبده على هذا بقوله: فإذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص إنه ليس بمسيحي صار كذلك، وإذا قال إنه مسيحي فاز بها. فليس المعتقد حرا في اعتقاده، يتصرف في معارفه كما يرشده عقله، بل إنه مشدود بشفتي رئيسه الديني (٣).

ويرى النقاد كذلك أن مسيحية (العهد الجديد) تفكك الأسرة، فقد نقل لوقا قول المسيح. إن كل أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وامراته وأولاده وإخوته وأخواته لا يقدر أن يكون لي تلميذا (٤). ونقل متي عن المسيح قوله: لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاما على الأرض، ما جئت لألقي سلاما بل سيفاً،

(١) الإسلام والنصرانية ص ٢٩.

(٢) الإصحاح ١٨ الفقرة ١٨.

(٣) الإسلام والنصرانية ص ٢٧.

(٤) لوقا ١٤: ٢٦.

فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حمااتها،
وأعداء الإنسان أهل بيته (١).

ويرى النقاد أن تعليم المسيحية كما صورها (العهد الجديد) تحارب العمران
لأنها تكره المال وتحاربه، وقد جاء في متي ولوقا ومرقص قصة الشاب الذي
أراد أن يتعلم من عيسى فقال له عيسى: لا تقتل، لا تسرق، لا تزن، لا تشهد
الزور.. فقال الشاب: حفظت هذا كله وعملت به. قال عيسى: بع أملاكك
وأعط ثمنها للفقراء وتعال اتبعني. فلم يقبل الشاب. فقال عيسى: يعسر أن يدخل
غني ملكوت الله... ولدخول الجمل في ثقب إبرة أيسر من دخول الأغنياء
ملكوت الله (٢).

ولو ترك الناس أموالهم وأوقفوا استثمارها فماذا تكون النتيجة غير خراب
العالم وانتهاء العمران؟

وكما تحارب هذه المسيحية العمران فإنها تحارب الأبدان، وقد جاء في
متي قول عيسى: لا يقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد
ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر، لا تقدر أن تخدموا الله
والمال، لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وما تشربون،
ولا لأجسامكم بما تلبسون (٣).

ويرى النقاد أن تلك المسيحية تحث على الرضا بالظلم والخضوع له،
وقد ورد في لوقا قول المسيح: من ضربك على خدك الأيمن فاعرض له
الآخر، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك، ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه
به (٤). وقد جاء في متي عند وصف القبض على المسيح أن أحد أتباع المسيح

(١) متي ١٠: ٣٤ - ٣٨.

(٢) متي ١٩: ١٨ - ٢٣ ومرقص ١٠: ١٧ - ٢٥ ولوقا ١٨: ١٨ - ٢٥

(٣) متي ٦: ٢٤ - ٢٥

(٤) لوقا ٦: ٢٨ - ٢٩.

أخرج سيفه وحاول أن يدافع عن المسيح (فقال له يسوع: رد سيفك إلى مكانه كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون) (١). ويرى النقاد حقيقة يدركها كل من يطالع الأناجيل، تلك الحقيقة أن هذه الأناجيل تخلو خلوا تماما من أية أثاره من علم أو إصلاح أو مدنية، وحسبك أن تقرأ الأناجيل وأن تعيد قراءتها، فلن تجد فيها ما ييني مجتمعا أو يحث على علم أو يقود إلى إصلاح أو مدنية. قد يقال إن الغرب المسيحي نهض وحقق في سبيل التقدم والمدنية خطوات واسعة، هذا صحيح، ولكن ربط التقدم بالمسيحية شيء لم يقل به أحد قط (فمدنية الغرب مدنية مادية مبنية على حب المال والسلطة والتغلب والعزة والكبرياء والعظمة والتمتع بالشهوات، والتعاليم المسيحية تناقض هذا كله بإفراط بعيد، وما وصل الأوروبيون إلى ما وصلوا إليه إلا بعد أن نبذوا التعاليم المسيحية ظهريا، ولو أن هذه المدنية من أثر التعليم المسيحي لنشأت عنه بقرب نشأته، ولكنها لم تظهر إلا بعد بضعة قرون من ظهوره) (٢). ويرتبط بهذا المبدأ ما عرف عن المسيحية من أنها تحارب الفكر وتقرر قاعدة هامة هي: (الجهالة أم التقوى) فمنعت الكنيسة - إبان نفوذها - أن ينشر التعاليم بين العامة إلا ما كان دعوة إلى الصلاح وتقرير الإيمان على وجه ظاهر، وبقي غير القسيسين في جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره. وقد رأينا من قبل أحكام الكنيسة ضد كثير من المفكرين بالتجريد والحرمان والنفي، وقد عارضت الكنيسة القول بكروية الأرض، وعارضت رحلة كريستوف كولمب للكشف عن الدنيا الجديدة، وعارضت الحقن تحت الجلد، وعارضت تخدير المرأة لتسهيل ولادتها... وكل ذلك وسواه لسبب واحد هو أن هذه الأشياء لم ترد في الكتاب المقدس وليس لأحد أن يقترح شيئا لم

(١) مرقص ١٠: ١٧ وما بعدها.

(٢) السيد محمد رشيد رضا: شبهات النصارى وحجج الإسلام ص ٧.

يرد في هذا الكتاب، فهو عندهم كل العلم وكل المعرفة، ومرة أخرى لم تنهض أوروبا نهضتها العلمية إلا بعد أن تحررت السلطة المدنية من سلطان الكنيسة. ومسيحية (العهد الجديد) تقضي بفناء الجنس البشري، فمتي يروي عن عيسى قوله: يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات، من استطاع أن يقبل فليقبل (١).

ويزيد بولس هذا الموضوع شرحا فيقول: حسن للرجل ألا يمس امرأة، ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته، وليكن لكل واحدة رجلها.... وأقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا، ولكن إذا لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن الزواج أصلح من التحرق في النار بسبب الزنا (٢).

وقد كتب الدكتور علي عبد الواحد وافي موضوعا طريفا عن (موقف اليهودية والمسيحية والإسلام من العزوبة) في مجلة الأزهر ونحن نقننس منه بعض ما كتبه عن موقف المسيحية من العزوبة (٣)، قال: ويعلق ترتوليان Tertullien على ما كتبه بولس بقوله: الزواج لمن لم يقو على العفة أفضل من أن يحرق بنار جهنم، لكن الخير أن يتقي الإنسان الأمرين معا، فلا يتزوج ولا يعرض نفسه لعذاب النار، وإن قصارى ما يحققه الزواج أن يعصم الفرد من الخطيئة، على حين التبتل يروض المرء على أعمال القديسين ويدلله السبيل له السبيل إلى منزلة الاشراق، ويتيح له أن يأتي بالمعجزات، فجسم المسيح نفسه قد جاء من يتول عذراء،

(١) متي ١٩: ١٢.

(٢) كورنثوس الأولى ٧: ١ - ٣ و ٨ - ٩.

(٣) عدد يوليو سنة ١٩٥٩ ص ٣٢ - ٣٣.

والقديس يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) والرسول بولس وجميع إخوانه الحواريين الذين سجلت أسماؤهم في سفر الخلود، آثروا التبتل وحثوا الناس عليه، وقد استطاعت مريم البتول أخت موسى أن تعبر البحر هي وجميع من كن يسرن خلفها من النساء، فانشق لهن فيه طريق يبس وانتهين إلى الساحل الآخر سالمات، والقديسة البتول تكلا قد ألقى بها الكفار إلى الأسد الجائعة فوجمت الأسد أمامها وخرت جاثية تحت قدميها، وقد فتح السيد المسيح للخصيان أبواب السماء، لأن حالتهم قد باعدت بينهم وبين قربان النساء، ولو أن آدم لم يعص ربه لعاش طاهرا حصورا ولتكاثر النوع الإنساني بطرق أخرى غير هذه الطرق البهيمية، ولعمرت الجنة بفصيحة من الطاهرين الخالدين. وينظر كثير من فقهاء الكنيسة المسيحية إلى هذه الحقائق على أنها من الأمور المسلمة في الدين بالضرورة، أي التي لا يجوز إنكارها ولا الشك فيها، حتى أن مجمع مديولاننس **Mediolanense** المسيحي قد حكم في أواخر الفرق الرابع الميلادي على الراهب جوفينيان بالطرده من الكنيسة لأنه عارض المبدأ المسيحي الذي يقرر أن التبتل خير من الزواج، وينظر هؤلاء الفقهاء كذلك إلى الزواج على أنه مجرد ضرورة لبقاء النوع الإنساني ولصيانة الفرد من الفاحشة، ومن ثم لا ينبغي في نظرهم للمسيحي أن يطلق لنفسه العنان في إشباع شهواته بل ينبغي أن يفيد من ذلك بقصد واعتدال، وفي الحدود التي تحقق الذرية والنسل، فيكون شأنه شأن الزارع الذي إذا بذر البذرة انتظر الحصاد بدون أن يلقي في الأرض بذورا أخرى.

وقد ذهبت فرقة المارسيونيين **Marsionies** وهي فرقة مسيحية اعتنقت مذهب مارسيون (القرن الثاني الميلادي) إلى ما هو أبعد من ذلك فحرمت الزواج تحريما باتا على جميع أفراد نحلته كما فعلت فرقة الحسدبين من اليهود،

وأوجبت على كل متزوج يرغب في اعتناق مذهبها من الذكور والإناث أن يفترق عن صاحبه، وبدون ذلك لا يمكن قبوله ولا تعميده. ومع أن الفرق المسيحية الباقية إلى عصرنا الحاضر لم تأخذ بهذا المذهب، فإن نظرة المسيحية إلى التبتل على أنه الحالة المثلى، وإلى الزواج على أنه مجرد ضرورة، قد أدت بالتدريج إلى نظام العزوبة المفروض على الرهبان وعلى القسسين في المذهب الكاثوليكي، فمنذ العصور المسيحية الأولى كان يحظر على القسيس أن يتزوج امرأة متوفى عنها زوجها، كما كان يحظر عليه أن يتزوج مرة ثانية بعد وفاة زوجته.

وفي أوائل القرن الرابع الميلادي أصدر مجمع الفيرا (Elvira) في إسبانيا قرارا بتحريم الزواج وبالابتعاد عن كل شهوات الجنس على كبار رجال الكنيسة، وفي أواخر القرن الحادي عشر أصدر البابا جريجوري السابع أمرا بوجوب العزوبة وتحريم الزواج على جميع القساوسة والرهبان، كبارهم وصغارهم (حتى لا تتدنس صفاتهم الكهنوتية بالاتصال الجنسي) ومع أن هذا القرار قد لاقى في مبدأ الأمر معارضة شديدة، في كثير من المناطق المسيحية فإنه لم يكفد ينتهي القرن الثالث عشر الميلادي حتى كان نظاما مقررا في الكنيسة الكاثوليكية ومطبقا على جميع القساوسة، والرهبان من الرجال، والراهبات من النساء.

ومسيحية (العهد الجديد) تدفع للرهبنة، والرهبنة هي الزهد في متع الحياة الدنيا، والبعد عن نعيمها واعتزال حياة المادة وقطع الصلة بين المترهب وبين مشاغل الحياة وعوائق الصفاء، وكل هذا الرغبة في تطهير النفس والسمو بها إلى الدرجات العالية.

والرهبنة وليدة الأمور التي سقناها آنفا، إنها وليدة هجر الوالدين والأسرة، ووليدة الزهد في الدنيا وكراهية المال والنفور منه، ووليدة

إرهاق الجسم وعدم العناية بطعامه أو شرابه أو لباسه، ووليدة الميل للعزوبة والغض من الزواج، فإذا تجمعت للمسيحي هذه الأخلاق واستساغها وجد أن من الأفضل له أن يعتزل حياة الناس، فيعتزلهم ويترهب ثم بعد ذلك يحاول أن يقتل ما بقي فيه من قوى مادية بالصوم والحرمان والإفراط من العبادة، وقد عرفت المسيحية جيوشا من الرهبان من الذكور والإناث اعتزلوا العالم وسكنوا الأديرة وعدوا أنفسهم بذلك أقرب إلى الله من جميع عباده. ومسيحية (العهد الجديد) تصور الإيمان بأنه يفعل الأعاجيب وينقل الجبال، فإذا لم تفعل الأعاجيب وتنقل الجبال فليس ذلك إلا لقلة الإيمان، ويروي متي أن المسيح وهو في طريقه مرة إلى أورشليم جاع، فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها فلم فيها شيئا إلا ورقا فقط، فقال لها: لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد. فبيست التينة في الحال، فلما رأى التلاميذ ذلك تعجبوا قائلين: كيف ييست التينة في الحال؟ فأجاب يسوع وقال لهم: الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان ولا تشكون فلا تفعلون أمر التينة فقط، بل إذا قلتُم أيضا لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر فيكون، وكل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه (١). ويروي متي أيضا عن عيسى وأتباعه ما يلي: ولما جاءوا إلى الجمع تقدم إليه رجل جاثيا له وقال: يا سيد ارحم ابني فإنه يصرع ويتألم شديدا ويقع كثيرا في النار وكثيرا في الماء، وأحضرتة إلى تلاميذك فلم يقدرُوا أن يشفوه. فأجاب يسوع وقال: أيها الجيل غير المؤمن الملتوي، إلى متى أكون معكم؟ إلى متى أحتملكم؟ قدموه إلي ههنا. فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان فشفي الغلام في تلك الساعة. ثم تقدم التلاميذ إلى يسوع على انفراد وقالوا: لماذا لم نقدر نحن أن نخرجه؟ فقال لهم يسوع: لعدم إيمانكم،

(١) متي ٢١: ١٨ - ٢٢.

فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم (١). ويقول بولس: بالإيمان قهر أناس ممالك، وسدوا أفواه أسود، وأطفأوا قوة النار، ونجوا من حد السيف (٢).

ويرى النقاد أن مسيحية روما دين غربي كما أشرنا من قبل، فإن المسيح رجل شرقي ولد في الشرق ونشأ فيه وبعث به وظل بالشرق حتى نهايته على الأرض، ولكن الغرب تلقى هذه الديانة وطبعها بطابعه، وهذه حقيقة آمن بها المبشرون المسيحيون أنفسهم واعترف بها الكتاب المسيحيون، يقول روبر ديشان (٣) إن المبشرين المسيحيين في إفريقية كانوا يعتقدون أن المدينة الغربية والدين المسيحي وحدة لا تتجزأ، ولذلك أطلقوا عليها تسمية مفردة هي (المدينة المسيحية). وقدمت روما والفاتيكان هذا الدين الغربي إلى الشرق مرة أخرى. ووصلت أقصى بلاد الشرق فاقتحمت به تايلاند وفيتنام والفيليبين والملايو وإندونيسيا، ولكن العقل الشرقي لم يستطع فيما يبدو أن يهضم هذه الديانة الغربية، ولذلك تعثر هذا الدين في تلك البقاع، وعجزت روما عجزا تاما - على الرغم من النفقات الباهظة التي تسهم فيها كل دول الغرب - أن تجعل هذا الدين يتعمق في نفوس الناس أو يجد منهم حماسة ظاهرة، وقد دخل هذا الدين إندونيسيا منذ أربعة قرون وتبعه عدد من الإندونيسيين يبلغون المليونين تقريبا، ولكن روما على الرغم من هذا النجاح الظاهري لم تستطع أن تدفع شخصا واحدا من هذين المليونين ليصبح عالما بالمسيحية، فلا تزال الكنائس في إندونيسيا يشرف عليها الأوروبيون، ولا تزال الوجوه الغربية هي التي تقيم الاحتفالات الدينية والصلوات، ولو قسنا

(١) متي ١٧: ١٤ - ٢٠.

(٢) عبرانيين ١١: ٢٣: ٣٤.

(٣) الديانات في إفريقية السوداء ص ١٧٢.

ذلك بالإسلام لظهر العجز واضحاً في المسيحية، فإن الإسلام لما كان بطبيعته ديناً عالمياً برز فيه من غير العرب من يفوقون العرب، وحسبنا أن نذكر هنا أسماء أبي حنيفة والبخاري ومسلم والغزالي وابن خلدون، ونسأل هل تستطيع المسيحية الغربية أن تقدم لنا من غير الغرب من لمع في المسيحية ممن يضاهي هؤلاء الأعلام؟.

وفي إندونيسيا برز أعلام من المسلمين فبلغوا الغاية، ولسنا ندري من نذكر منهم أو من ندع، وليس دحلان وشكر وأمينوتو وأجوز سالم وهاشم أشعري وحسن باندونج وهمكا ومحمد ناصر وحتى وسوتان منصور وعبد الوهاب إلا نماذج لمئات أو آلاف من المفكرين المسلمين الممتازين الذين أنتجتهم هذه البلاد.

وهناك في (العهد الجديد) تناقض ظاهر يحار العقل في فهمه، ومن صور التناقض البارزة ما سبق أن أوردناه في هذا المبحث الأخير وهو قول هذه الأناجيل بالحب والتسامح حتى وصلت إلى القول بحب من يكرهك والتسامح مع يعتدي عليك، ثم قولها بأن عيسى قال إنه لم يجرئ ليملاً الأرض سلاماً بل حرباً، ومن لم يكره أباه وولده فلن يكون تلميذاً للمسيح.

ومن صور التناقض كذلك ما سبق أن أوردناه بشأن ضرورة إهمال الجسد وعدم العناية به لأنه فان (١)، فذلك يتناقض مع قول بولس موصياً بالجسد: أستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم، الذي لكم من الله وأنكم لستم لأنفسكم، لأنكم قد اشتريتم بثمن، فمجدوا الله في أجسامكم (٢).

ومن صور التناقض ما أوردناه آنفاً من الاهتمام بالإيمان وأنه يفعل

(١) متي ٦: ٢٤ - ٢٥.
(٢) كورنثوس ٦: ١٩ - ٢٠.

الأعاجيب فإن يعقوب في رسالته يشيد بالأعمال ويقلل من شأن الإيمان إذا خلا من الأعمال، يقول يعقوب: ما المنفعة يا إخواني إن قال أحد إن له إيماناً ولكن ليس له أعمال، هل يقدر الإيمان أن يخلصه؟..... إن الجسد بدون روح ميت. وهكذا الإيمان أيضاً بدون أعمال ميت (١). قد يحاول البعض التحوير والتفسير ليلائم بين هذه التناقض الظاهر، ولكنها كانت دائماً وستكون دائماً محاولة فاشلة، أما الإجابة الصحيحة فمرجعها أن هذه الأناجيل ليست من مصدر واحد، إن مصدرها هم قائلوها، وهم وحدهم أو الذين حرفوها من بعدهم هم المسؤولون عن هذا التناقض، والمسؤولون عن سواه مما سبق أن أردناه.

وبعد فهذه دراسة عن المسيحية التزمت فيها روح الإنصاف وبيان الحقيقة جهد الطاقة: وقصدت أن يكون بحثاً علمياً يخضع للعقل والمنطق لا للعاطفة والشعور، والمرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه، وقد اتضح لنا من هذه الدراسة أن المسيحية بعدت عن صفاتها ودخلتها عناصر غريبة عجيبة حتى نقلتها حتى طبيعتها وطبيعة الأديان السماوية كلها، وكان ذلك إيذاناً بإرسال نبي جديد برسالة جديدة، ينقذ العالم مما نزل به من خطوب وويلات، ويضع أسساً صالحة شاملة لأمر الدين وأمر الدنيا، وبهذا جاء محمد، وبهذا جاءت رسالة الإسلام، التي خصصنا لها الحلقة الثالثة من هذه السلسلة (سلسلة مقارنة الأديان).

قضية الألوهية
(نموذج للمقارنة بين قضايا الأديان)

(٢٣٥)

مقدمة:

طرق البحث في مقارنة الأديان

دراسة مقارنة الأديان لها طريقتان:

١ - الطريق الأول أن تكون المباحث الكبرى بالأديان هي عناوين للدراسات، كأن نكتب كتابا عن (الله)، وندرس به مختلف الاتجاهات عن الإله، ونكتب كتابا آخر عن (النبوة) وثالثا عن (التشريع)... وهكذا... وقد سار على ذلك المنوال بعض الباحثين مثل max Mueller في كتابه Essay on Comparative Mythology ومثل الأستاذ العقاد في كتابه (الله).

ولكن يؤخذ على هذه الطريقة بعض مآخذ أهمها:

أولا - أن مباحث الأديان ليست متشابهة، فمثلا:

- تاريخ اليهود له أثر كبير في عقيدتهم، ومن ثم وجب أن يكون مبحثا مهما عند دراسة (اليهودية)، ولكن التاريخ الإسلامي ليس ذا أثر في العقيدة الإسلامية، ومن ثم فليس ضروريا أن يكون ضمن مباحث كتاب عن (الإسلام).

- لم يتكلم بوذا عن الإله، ولكن محمدا تكلم عنه وأفاض.

- وفي البوذية موضوع النرفانا، وفي الجينية موضوع النجاة، وليس في الأديان السماوية ما يماثل هذه المباحث.

- في أديان الهند موضوع التناسخ، وليست كذلك الأديان السماوية.

- يهتم الإسلام بالتشريع، ولا تهتم المسيحية به وهكذا..

وإذا لم تتشابه المباحث كانت المقارنة غير دقيقة، وكانت المباحث التي

توجد في دين واحد من الأديان قلقه الموضوع في هذه الدراسة، إذ لا توجد مقارنة بين الأديان عنها.

ثانيا - دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو لا تعطي فكرة متكاملة عن كل دين، إذ سترد مباحث كل دين متناثرة هنا وهناك.

على أن دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو ينبغي أن تجيء بعد دراسة الأديان نفسها، فإن طبيعة المقارنة أن تتأخر عن استيعاب الأصل، ففي الأدب المقارن يلزم أن ندرس الآداب المختلفة ثم نقارن بينها، وفي الفقه المقارن يلزم أن ندرس التشريعات المختلفة ثم نقارن بينها، وفي مقارنة الأديان يلزم أن ندرس الأديان ثم نعقد المقارنة بين مباحثها.

ويمكن القول - إنه - بسبب هذه المآخذ - لم يسر أحد إلى آخر الشوط في دراسة مقارنة الأديان متبعا هذا الطريق.

٢ - الطريق الثاني: هو أن يخصص كتاب لكل دين، تدرس فيه مباحثه العقائدية والتشريعية المختلفة مشفوعة بالمقارنة كلما وجد لها مجال، وهذا الطريق هو الذي يسير عليه أغلب الكتاب، وهو ما اتبعته في (سلسلة مقارنة الأديان) وبه نتحاشى المآخذ التي سبق أن أوردناها على الطريق الأول. ونحن بعد أن استكملنا دراستنا طبقا لهذه الطريقة نجدها في وضع يجعل من اليسير علينا أن نقتبس بعض ما كتبناه عن مبحث من أهم مباحث الأديان وهو (قضية الألوهية) ونضع ما اقتبسناه بعضه بجانب بعض حتى تتكون لنا صورة واضحة للاتجاهات حول هذه القضية التي هي أساس الأديان، وبهذا نكون قد عرضنا الطريقتين معا في هذه القضية كنموذج لدراسة القضايا الدينية الأخرى دراسة مقارنة، وقد خصصنا (قضية الألوهية) بهذه الدراسة لأنها قمة المشكلات الدينية، وعلى هدى دراستنا فيها يمكن للقاري أن يكون

فكرة عن المقارنة بين كثير من قضايا الأديان التي احتوتها هذه السلسلة. ونقطة أخرى يتحتم عرضها في هذه المقدمة، وهي أننا في دراستنا لمقارنة الأديان اهتمنا بالأديان السماوية لأن صراعا عنيفا يدور بينها، وكان من الطبيعي أن يكون بينها وئام، فأردنا أن نتعرف على ألوان الانحرافات التي وضعت الشقاق مكان الوفاق، والكراهية مكان الحب، أما اهتمامنا بأديان الهند فيرجع لسببين:

أولهما: أن أديان الهند كانت معنا تسربت منه ألوان من الأفكار فوجدت طريقها بين معتقدات المسيحيين والمسلمين، فالشعار المسيحي (تثليث في وحدة ووحدة في تثليث) منحدر من الهندوسية، وكانت البوذية أهم مصدر اقتبست منه المسيحية كثيرا من مبادئها كما ذكرناها في الجزء الرابع من هذه السلسلة، وقال بعض المسلمين بالتناسخ ووحدة الوجود تأثرا بثقافة الهند. والسبب الثاني: أن البوذية تعتبر من أديان الدعوة، أي من الأديان التي لها دعاة ينشرونها ويحاولون جذب الأتباع لها، ومن هنا تدخل البوذية في صراع مع الإسلام في منطقة الشرق الأقصى، ولا بد من التعرف على عناصر هذا الصراع ليتمكن تقدير نتائجه.

وفي ترتيب الأديان التي درسناها في هذه السلسلة ابتدأنا بالأديان السماوية بترتيبها التاريخي، لأنها الأصل في الدراسة، ثم درسنا أديان الهند في الجزء الرابع، ولكننا في عرضنا لقضية الألوهية سنبداً بأديان الهند، لأن منها تسربت بعض الأفكار - كما قلنا - لمعتقدات المسيحيين وقلة من المسلمين. وفي ضوء هذا التقديم نبدأ عرض قضية الألوهية:

قضية الألوهية

الله في التفكير الهندوسي:

يتجه التفكير الهندوسي فيما يخص بالإله إلى نزعة التعدد غالبا، وقد بلغ التعدد عند الهنود مبلغا كبيرا، فقد كان عندهم لكل قوة طبيعية تنفعهم أو تضرهم إله يعبدونه ويستنصرون به في الشدائد كالماء والنار والأنهار والجبال وغيرها، وكانوا يدعون تلك الآلهة لتبارك لهم في ذريتهم وأموالهم من المواشي والغلات والثمار وتنصرهم على أعدائهم.

ويقول غوستاف لوبون: وهيئات أن تجد هندوسيا لا يعبد عددا من الآلهة، فالعالم عنده زاخر بها حتى أنه يصلي للنمر الذي يفترس أنعامه، ولجسر الخط الحديدي الذي يصنعه الأوربي، وللأوربي نفسه عند الاقتضاء (١).

ولكن بعض الهنود في وسط هذا التعدد كانوا يميلون أحيانا للتوحيد أو اتجاه قريب منه، فقد كانوا إذا دعوا إليها من آلهتهم أو أثنوا عليه أو تقربوا إليه بقربان، أقبلوا عليه بكل عواطفهم وجل ميولهم حتى يغيب عن أعينهم سائر الآلهة والأرباب (٢)، ويصير إليهم هو ذلك الإله لا غير، فيسمونه بكل اسم حسن ويصفونه بكل صفة كمالية، ويخاطبونه برب الأرباب وإله الآلهة، تعظيما وإجلالا لا تحقيقا وإيقانا، وإذا عطفوا إلى غيره أقاموه مقام الأول وجعلوه رب الأرباب وإله الآلهة، وهذا التعبير (رب الأرباب أو إله الآلهة) كان أولا على العظمة والجلال، فلما مضت القرون على هذا النحو

(١) غوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٣٦٨.

(٢) ٦. by Lewis Renan p. Hiaduisism Ed.

أصبح هذا التعبير ثابت المعنى، أي أنهم اعتقدوا فعلا أن في صف الآلهة رئيسا ومرؤوسين وأمرا ومأمورين، وأن الرئيس والامر هو وحده رب الأرباب وإله الآلهة، وهذا وصف ثابت له لا ينتقل إلى سواه والكائنات كلها تحت يده وسائر الآلهة تحت أمره (١).

التثليث في الفكر الهندي:

وحوالي القرن التاسع قبل الميلاد وصل فكر الكهنة الهنود إلى رأي تشببه عقيدة التثليث الحالية عند المسيحيين، فقد جمعوا الآلهة في إله واحد، وقالوا أنه هو الذي أخرج العالم من ذاته، وهو الذي يحفظه إلى أن يهلكه ويرده إليه، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء، فهو براهما من حيث هو موجود، وهو فشنو من حيث هو حافظ، وهو سيفا من حيث هو مهلك (٢). وفتح الكهنة الهنود الباب للمسيحيين فيما يسمى: تثليث في وحدة. وحدة في تثليث.

عبادة البقرة: ومن بين المعبودات المتعددة عند الهنود حظيت البقرة بأسمى مكانة، وهي من المعبودات الهندية التي لم تضعف قداستها مع كر السنين وتوالي القرون، ففي الويدا حديث عن قداستها والصلاة لها، ولا تزال البقرة حتى الآن تستمتع بهذه القدسية، ففي الأدب المنسوب للمهاتما غاندي تفسير لما حظيت به البقرة قديما وحديثا من نفوذ ديني، وفي عدد نوفمبر (سنة ١٩٦٣) من مجلة

(١) محمد عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة.

(٢) دكتور إبراهيم مذكور ودكتور يوسف كرم: دروس في تاريخ الفلسفة ص ١٢.

s journal, Bhavan التي تصدر في بومباي بالهند، عدة مقالات عن عبادة البقرة، وسنقتبس هنا خلاصة هذه المقالات، وأول ما نقتبسه نشيد من (ساما ويدا) (١) نشرته المجلة في صفحة مستقلة، داخل رسم تخطيطي للبقرة (٢) والترجمة العربية للنشيد هي:

صلاة إلى البقرة:

أيتها البقرة المقدسة، لك التمجيد والدعاء، في كل مظهر تظهرين به، أنثى تدرين اللبن في الفجر وعند الغسق، أو عجلا صغيرا، أو ثورا كبيرا، فلنعد لك مكانا واسعا نظيفا يليق بك، وماء نقيًا تشربينه، لعلك تنعمين هنا بالسعادة.

أما رأي مهاتما غاندي في عبادة البقرة فقد أثبتته مفصلا في المجلة السابقة واقتبسناه في كتابنا عن (أديان الهند الكبرى) (٣) وفيما يلي لمحات منه: (عندما أرى بقرة لا أعدني أرى حيوانا، لأنني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع... وإن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال وأنا أعد نفسي واحدا من هؤلاء الملايين).
الله في التفكير الجيني:

كانت الجينية نوعا من المقاومة للهندوسية وثورة على سلطان البراهمة، ومن هنا لم يعترف مهاويرا بالآلهة، فالاعتراف بالآلهة قد يخلق من جديد طبقة

(١) قسم من أقسام الويدا وهو كتاب الهندوس المقدس.

(٢) انظره بكتاب أديان الهند الكبرى ص ٣١.

(٣) ص ٣٢.

براهمة أو كهنة يعدون أنفسهم صلة بين الناس والآلهة، وقرر أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون، ومن هنا سمي هذا الدين دين إلحاد. غير أن العقل البشري يميل إلى الاعتراف بإله، ويحتاج الإلحاد إلى أدلة أكثر من الأدلة التي يحتاجها إثبات الآلهة. ومن هنا وجد فراغ كبير في الجينية بسبب عدم اعتراف مهاويرا بإله يكمل به صورة الدين الذي دعا إليه، وكان من نتيجة ذلك أن اعتبره أتباعه إلهًا، بل عدوا الجيناوات الأربعة والعشرين آلهة لهم، ولعلمهم بذلك كانوا متأثرين بالفكر الهندي الذين يميل في الأكثر إلى تعدد الآلة.

الله في التفكير البوذي:

لم يعن بوذا بالحديث عن الإله، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتًا أو إنكارًا، وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية، وما وراء الطبيعة، وما يتحدث عن القضايا الدقيقة في الكون، وكان ينهي أصحابه وزواره أن يخوضوا في هذه الأبحاث ويوبخهم على سؤالهم عن مثل هذه القضايا. ولكن بوذا اتجه أحيانًا إلى جانب الإنكار أكثر من اتجاهه إلى جانب الإثبات فقد وقف في إحدى خطبه يسخر ممن يقول بوجود الإله، وكان مما قاله في ذلك: إن المشايخ الذين يتكلمون عن الله، ولم يروه وجها لوجه، كالعاشق الذي يذوب كمدا وهو لا يعرف من هي حبيبته، أو كالذي يبني السلم وهو لا يدري أين يوجد القصر، أو كالذي يريد أن يعبر نهرا فينادي الشاطئ الآخر ليقدم له (١).

ومن أجل إهمال الإله أو الاتجاه إلى نكرانه أحيانًا اتجه براهمة عصره إلى أن يصموه بوصمة الإلحاد.

(١) العلامة رادها كرشتن (أنظر أديان الهند ص ١٦٨).

والإيمان بإله، اتجاه نفسي قوي لا يقل عن قوة الغرائز في البشر، وإهمال هذا الاتجاه يحدث ارتباكا واضطرابا، ومن أجل هذا نجد أتباع بوذا من بعده يفكرون في الإله، ويعملون على الوصول إليه أو التعرف عليه، ولما كان بوذا قد ترك هذا المجال خاليا، فقد لعبت بهم الأهواء فاتجه بعضهم إلى الاعتقاد أن بوذا ليس إنسانا محضا، بل إن روح الله قد حلت به، وهذه العقيدة تشبه عقيدة الحلول التي يعتنقها بعض المسيحيين في السيد المسيح، فيقولون إن شخصيته ثنائية: لاهوتية وناسوتية، وإن الشخصية اللاهوتية حلت بالناسوت. وتسربت هذه العقيدة أيضا إلى (مدعي التشيع) فقالوا بها فيما يتعلق بعلي بن أبي طالب، وعاقبهم رضي الله عنه بما يستحقون، بل ذهب بعض البوذيين إلى القول بأن بوذا كائن لاهوتي هبط إلى هذا العالم لينقذه مما فيه من شرور (١). وقد تسربت هذه العقيدة كذلك لبعض الطوائف المسيحية.

الله عند اليهود:

لم يستطع بنو إسرائيل في أي فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة الله الواحد الذي دعا له الأنبياء، وكان اتجاههم إلى التجسيم والتعدد والنفعية واضحا في جميع مراحل تاريخهم، وعلى الرغم من ارتباط وجودهم بإبراهيم إلا أن البدائية الدينية كانت طابعهم، وكثرة أنبيائهم دليل على تجدد الشرك فيهم، وبالتالي تجدد الحاجة إلى أنبياء يجددون الدعوة إلى التوحيد، وكانت هذه الدعوات قليلة الجدوى على أي حال، فظهروا للتاريخ بدائيين يعبدون الأرواح، والأحجار، وأحيانا مقلدين يعبدون معبودات الأمم المجاورة التي كانت لها حضارة وفكر قلدهما اليهود. ويقول J. Shotwell (٢) إن اليهود كانوا في مطلع ظهورهم على مسرح التاريخ بدوا رحلا تسيطر عليهم الأفكار البدائية كالخوف من الشياطين، والاعتقاد في الأرواح، وكانوا يعبدون

(١) حامد عبد القادر: بوذا الأكبر ص ٩٦، ١٢٠، ١٣٠.

الحجارة والأغنام والأشجار، ويقول Reinach إن اليهود اتخذوا في بيوتهم أصناما صغيرة كانوا يعبدونها ويتنقلون بها من مكان إلى مكان (١)، وقد ظل بنو إسرائيل على هذا الاعتقاد حتى جاء موسى وخرج بهم من مصر. ولكن بني إسرائيل كما يقول ول ديوارنت (٢) لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل، ولم يستطع موسى أن يمنع قطيعه من عبادة العجل الذهبي لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر، وظلوا زمنا طويلا يتخذون هذا الحيوان القوي آكل العشب رمزا لإلههم، وتقرر التوراة قصة العجل الذي عمله لهم هارون فعبدوه بعد أن تأخر موسى في العودة إليهم، وكيف خلعوا ملابسهم وأخذوا يرقصون عراة أمام هذا الرب، وقد أعدم موسى ثلاثة آلاف منهم عقابا لهم على عبادة هذا الوثن (٣)، وقد بقيت عبادة العجل تتجدد في حياة بني إسرائيل من حين إلى حين، فقد عمل يربعام بن سليمان عجلي ذهب ليعبدهما أتباعه حتى لا يحتاجوا إلى الذهب إلى الهيكل (٤)، وقد عبد أهاب ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد (٥).

وهكذا كان اتجاه اليهود ماديا في الغالب ولم تجد الاتجاهات الروحية عندهم أرضا خصبة في أكثر الأوقات، وقد عبرت يائيل ديان ابنة القائد العسكري، موسى ديان عن ذلك بقولها - على لسان أحد أبطال روايتها (طوبى للخائفين) - ما يلي:

(١). ١٧٦ . History of Religions p

(٢) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٣٨.

(٣) خروج ٣٢: ١٨ - ٢٦ والقرآن الكريم يقرر أن السامري هو الذي عمل العجل.

(٤) الملوك الأول ١٢: ٢٦ - ٢٨.

(٥) ول ديوارنت ج ٢ ص ٣٣٩.

أيام زمان حين كنا يهودا في روسيا وغيرها كان من الضروري بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات، ونحافظ على ديننا، فقد كان الدين اليهودي لنا وسيلتنا لتعاون وبتعاطف ونذود عنا الردى، أما الآن فقد أصبح لدينا شئ أهم، هو الأرض، أنت الآن إسرائيلي، ولست مجرد يهودي إني قد تركت في روسيا كل شئ ملبسي ومتاعبي وأقاربي وإلهي، وعثرت هنا على رب جديد، هذا الرب الجديد هو خصب الأرض وزهر البرتقال (١).

الله في التفكير المسيحي:

عندما نصل عن الحديث عن الله في التفكير المسيحي نحتاج إلى مزيد من الصبر لنرى التحول الخطير الذي أصاب الفكر المسيحي في هذه القضية الهامة:

تقرر الأناجيل المسيحية وأعمال الرسل ثلاث قضايا مهمة:
أولها: أن الله واحد لا شريك له..

والثانية: أن عيسى رسول الله وليس أكثر من رسول.

والثالثة: أن عيسى رسول لبني إسرائيل فقط.

وعن القضية الأولى نورد النصوص التالية من هذه الأناجيل:

- يروي متي عن عيسى قوله: أن أباكم واحد الذي في السماوات (إصحاح ٢٣ الفقرة ٨).

(١) يائيل ديان: طوبى للخائفين (أنظر القصة كاملة بكتاب اليهودية ص ١٧٦ - ١٧٧).

- ويروي مرقس: قول عيسى: الرب إلهنا إله واحد وليس آخر سواه (١٢: ٣٠ - ٣١).
- ويروي يوحنا عن عيسى قوله: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم (٢٠: ١٨).
- وعن القضية التالية نورد من الأناجيل النصوص التالية:
- جاء في إنجيل متي قوله: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل (٢١: ١١).
- وجاء في لوقا: قد خرج نبي عظيم (٧: ١٦).
- ويروي يوحنا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم (٦: ١٤ و ٧: ٤٠).
- ويروي يوحنا كذلك عن عيسى قوله: وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله (٨: ٤٠).
- ويروي لوقا عن عيسى قوله عندما أحس بقرب نهايته بسبب مؤامرات اليهود عليه:
- ينبغي أن أسير اليوم وغدا وما يليه، لأنه لا يمكن أن يهلك نبي خارج أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين.
- وعن القضية الثالثة نورد النصوص التالية:
- جاء في متي ما نصه: ثم خرج يسوع من هناك، وانصرف إلى نواحي صور وصيدا وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت قائلة: ارحمني يا سيد يا ابن داود، ابنتي مجنونة جدا، فلم يجبهها بكلمة

فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها لأنها تصيح وراءنا، فأجاب وقال:
لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة (متي ١٥ : ٢١ - ٢٤).
- وفي متي كذلك أن عيسى عندما حدد الحواريين الاثني عشر أوصاهم
قائلا: إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا
بالحري إلى خراف بني إسرائيل الضالة (١٠ : ٥ - ٦).
وقد خصم اليهود بطرس لأنه دخل على غير اليهود وتكلم معهم. (أعمال
الرسل ١١ الفقرة الأولى).
وورد في عبارات بطرس قوله لغير اليهود: أنتم تعلمون كيف هو محرم على
رجل يهودي أن يلتصق بأحد أجنبي أو يأتي إليه (أعمال الرسل ١٠ : ٢٨).
والقرآن الكريم يقرر هذه الاتجاهات الثلاث في المسيحية، قال تعالى:
- وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم (سورة المائدة
الآية ٧٢).
- لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد (سورة
المائدة الآية ٧٣).
- ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل (سورة المائدة
الآية ٧٥).
- ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليهم
شهيذا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم (سورة المائدة
الآية ١٧).

- ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بني إسرائيل
(سورة آل عمران الآيتان ٤٨ - ٤٩).

ومن أجل هذا كان نقل المسيحية من الوجدانية إلى التثليث، ونقل عيسى
من رسول إلى إله، والقول بأن المسيحية رسالة عامة، والقول بأن عيسى هو
ابن الله نزل ليضحى بنفسه للتكفير عن خطيئة البشر، وأنه عاد مرة أخرى
إلى السماء ليجلس على يمين أبيه، كان هذا كله عملا جديدا على المسيحية التي جاء
بها عيسى. كيف انتقلت المسيحية من حال إلى حال، ومن الذي قام
بذلك؟ ومتى؟.

هذا ما سنحاول إبرازه فيما يلي:

ترتبط هذه الأمور بشخصية مهمة في المسيحية، هي شخصية شاءول
(بولس)، ولذلك يرى الباحثون الغربيون أن المسيحية الحالية بهذه العناصر
الجديدة هي من صنع هذا الرجل، ويقول Berry (١) إن بولس هو في الحقيقة
مؤسس المسيحية، ويقول Weels (٢) إن كثيرا من الثقافات العصريين يعدونه
المؤسس الحقيقي للمسيحية.

وبولس كما يقول عن نفسه (يهودي فريسي ابن فريسي على رجاء قيامة
الأموات) (أعمال الرسل ٢٣: ٦) وكان عدوا للمسيحيين، وهو في ذلك يقول:
سمعتم بسيرتي قبلا في الديانة اليهودية، إنني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط
وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسي،
إذ كنت أوفر غيرة في تقليدات آبائي) (غلاطية ١: ١٣ - ١٤).

(١) أنظر رأي Berry في كتاب (المسيحية) ص ٦٩ وما بعدها وبخاصة ص ٧٣.

(٢) ٦٩٥. P Outline of History Vol ٣

ويبدو أنه كان من وسائل بولس لتدمير المسيحية أن يحطم معتقداتها واتجاهاتها المقدسة، ووضع لذلك طريقة تكفل له الوقوف في وجه معارضيته عندما يظهر بأفكاره الجديدة، فادعى شاءول أن السيد المسيح - بعد نهايته على الأرض - ظهر له وصاح فيه وهو في طريقه إلى دمشق: لماذا تضطهدني؟ فخاف شاءول وصرخ: من أنت يا سيد؟ قال: أنا يسوع الذي تضطهده. قال شاءول: ماذا تريد أن أفعل؟ قال يسوع: قم وكرز بالمسيحية.

ويقول لوقا في ختام هذه القصة جملة ذات بال غيرت وجه التاريخ هي: (وللوقت جعل يكرز في المجمع بالمسيح أنه ابن الله) (أعمال ٩ : ٣ - ٣٠).

وهكذا وضع بولس لنفسه سياجا يحتمي به لأنه كان يدرك أن معارضة قوية ستهب في وجهه وتنكر هذه المعتقدات الجديدة التي جاء بها، وهي القول بتعدد الآلهة وأن عيسى ابن الله نزل ليضحى بنفسه للتكفير عن خطيئة البشر، وأنه عاد مرة أخرى إلى السماء ليجلس على يمين أبيه. فأعلن أنه تلقى المعتقدات الجديدة من عيسى مباشرة، وأنه الوحيد الذي أؤتمن عليها وفي ذلك يقول: وأعرفكم أيها الإخوة، الإنجيل الذي بشرت به أنه ليس بحسب إنسان لأنني لم أقبله من عند إنسان ولا علمته، بل بإعلان يسوع المسيح (غلاطية ١ : ١١ - ١٢)، ويقول كذلك: إنه الوحيد الذي أؤتمن على المسيحية الصحيحة (تيطس ١ : ٣) وعلى إنجيل مجد الله المبارك (تيموثاوس الأولى ١ : ١١).

وقد عارضه الحواريون معارضة شديدة، وهبوا في وجه يصارعونه في عناد طويل مرير، وحققوا عليه كل نصر، فانفض الناس من حوله تماما، ولم يبق معه إلا قلة قليلة جدا، وهو يقرر ذلك بقوله إلى تلاميذه:

- أنت تعلم أن جميع الذين في آسيا ارتدوا عني (تيموتاوس الثانية ١ : ٥).

- بادر أن تجئ إلي سريعا لأن ديماس قد تركني إذ أحب العالم الحاضر وذهب إلى تسالونيكى، وكريسكيس إلى غلاطية، وتيطس إلى دلماطية لوقا وحده معي، إسكندر النحاس أظهر لي شرورا كثيرة ليحازه الرب حسب أعماله، فاحتفظ منه أنت أيضا، لأنه قاوم أقوالنا جدا، في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي، بل الجميع تركوني (تيموتاوس الثانية ٤ : ٩ - ١٦):

وراح بولس يهاجم معارضييه مهاجمة قاسية، ويصفهم بأنهم انصرفوا إلى كلام باطل. وأنهم يميلون للحقد والحسد، ويتجهون للباطل والرياء، والعلم الكاذب والمباحثات الغبية السخيفة... (تيموتاوس الأولى الإصحاح السادس).

وقد سار يوحنا في رسائله في الطريق الذي فتحه أستاذه بولس، وأخذ يدافع عن المعتقدات التي ابتكرها فكر بولس ويهاجم المعارضين بألفاظ قاسية لا تليق بالمفكرين فهو في أسلوبه وفي فكره يحذو حذو أستاذه، ومن ذلك قوله في رسالته الأولى:

كل من ينكر لابن ليس له الأب أيضا، ومن يعترف بالابن فله الأب أيضا، احذروا الذين يضلونكم (١).

وفي رسالته الثانية يقول:

قد دخل إلى العالم مضلون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتيا في الجسد، هذا هو المضل والضد للمسيح، انظروا إلى أنفسكم لئلا يضيع ما عملناه، كل من تعدى ولم يثبت في تعليم المسيح فليس له الله، ومن يثبت في تعليم

(١) يوحنا الأولى ٦ : ١٨ - وما بعدها.

المسيح فهذا له الأب والابن جميعا، إن كان أحدا يأتاكم ولا يجيء بهذا التعليم فلا تقبلوه في البيت، ولا تقولوا له سلام، لأن من يسلم عليه يشترك في أعماله الشريرة (١).

وفي رسالته الثالثة يقول:

كتبت إلى الكنيسة ولكن ديوتريفس لا يقبلنا ومن أجل ذلك إذا جئت فسأذكره بأعماله التي يعملها هاذرا علينا بأقوال خبيثة، وهو غير مكثف بهذه الأقوال بل لا يقبل أتباعنا، ويمنعهم ويطردهم من الكنيسة (٢).

ولم تجد أفكار بولس ولا أقوال يوحنا أرضا خصبة في آسيا، كما اقتبسنا من كلامه أنفا، فلما عبرت هذه الأفكار إلى أوروبا وجدت هناك أرضا خصبة، فالتثليث ونزول الإله من السماء تضحية بنفسه وتكفيرا عن خطيئة البشر، وصعوده إلى السماء مرة أخرى، كل هذا كان له جذور قديمة في الخرافات الأوربية، ولم يكن التوحيد عميق الجذور بأوروبا.

ومر الزمن جيلا بعد جيل والمذهبان يعيشان، ففي آسيا تعيش المسيحية التي جاء بها عيسى ويعتنقها علماء المسيحية، وغيرهم، وفي أوروبا تعيش آراء بولس، حتى جاء القرن الرابع الميلادي وجاء عهد قسطنطين (توفي سنة ٣٣٧ م) الذي أصدر سنة ٣١٣ قانون التسامح مع المسيحية، وأراد بعد ذلك أن يضع حدا حول حقيقة المسيح، فدعا لمؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ وحضره جلة العلماء المسيحيين من كل البقاع ومعهم الأسانيد التي يستندون عليها في معتقداتهم، وكان عدد الحاضرين ٢٠٤٨، وقد اتضح من أول لحظة أن الجمهرة العظمى من الحاضرين تدين بالمسيحية الحقيقية وكان معهم من الأناجيل ما يعضد آراءهم، ولكن حاشية الإمبراطور وهي أوربية لم تكن تعرف من المسيحية إلا تلك

(١) يوحنا الثانية ٧ - ١٩.

(٢) يوحنا الثالثة ٩ - ١٠.

المعلومات السائدة في أوروبا، والتي كانت من تراث بولس، ولذلك رأت هذه الحاشية أن اتجاه الأغلبية من حاضري المؤتمر يتعارض مع الاتجاه الرسمي، ومع معلوماتهم عن المسيحية، وعدوا ذلك انحرافاً، وأثاروا الإمبراطور، الذي كان طبعا كالحاشية في اعتقاده، وقد أثاره كذلك (بابا) روما الذي يمثل هذا الاعتقاد من الناحية الدينية فأصدر الإمبراطور بناء على ذلك أمره بإخراج الرؤساء الروحانيين الموحدين ونفي الكثيرين منهم، وقتل العالم المصري أريوس الذي كان يتخذ التوحيد عقيدة له، ثم أمر بعقد المؤتمر من الأعضاء الذين يعتنقون مذهب بولس أو الخائفين والمترددتين، وكان عددهم ٣١٨، واتخذ هؤلاء قراراً بألوهية المسيح، وكان هذا أساساً للمعتقدات الأخرى التي قال بها بولس، واتخذ المؤتمر كذلك قراراً بتدمير كل الوثائق التي تخالف هذا الرأي، وإنزال العقوبات الشديدة بمن يخفي تلك الوثائق، وتبعاً لذلك اختفت المسيحية الحقيقية رويداً رويداً واختفت الأناجيل الصحيحة، وحلت المسيحية البوليسية محل مسيحية عيسى.

وهكذا صنع هؤلاء الإله وأخفوا إنجيل عيسى، والأناجيل الحقيقية التي أخذت عنه، ولم يبقوا من المصادر المسيحية إلى ما يؤيد اتجاههم أو ما يقف موقفاً سلبياً. ولعل ذلك يوضح قصة التفكير المسيحي في قضية الألوهية.

الله في التفكير الإسلامي:

إن حديثنا عن (الله في التفكير المسيحي) تلخيص لدراسات واسعة، ولكننا لا نحتاج عندما نتحدث عن (الله في التفكير الإسلامي) إلى أي تلخيص لأن الموضوع واضح تمام الوضوح، ولذلك فنحن نحيل القارئ إلى كتاب (الإسلام) من هذه السلسلة ليرى دراسة واضحة حول وجود الله ووحديته وصفاته، ولتأكد أن محاولات الانحراف في الإسلام باءت بالفشل.

نتيجة المقارنة:

إن المقارنة السابقة توضح حقيقتين مهمتين:

الحقيقة الأولى أن جهود الانحراف اتجهت بكل قواها وشرورها إلى الله سبحانه وتعالى، وحقت - للأسف - في هذا المجال ما أرادته من نجاح، والقارئ يرى اتجاه التعدد في الهندوسية وتأليه البقرة، ويرى كذلك تأليه جينا، وتأليه بوذا، وتأليه العجل، وتأليه المسيح، وقد اتجهت المحاولة كذلك للإسلام فقال قوم من مدعي التشيع بتأليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ولكن هذه المحاولة لم تنجح وحاربها علي نفسه (١)، وحاربها بعده كل المسلمين، فنجا الإسلام وحده من محاولات التحريف في عقيدة الألوهية.

الحقيقة الثانية: أن الانحراف بالأديان هو الذي سبب الصراع بين معتنقيها. ولو سارت الأديان سيرها الطبيعي كرسالات من عند الله دون تحريف لالتقت جميعا في أهدافها وفي كثير من وسائلها.

إن الدعوة التي ننادي بها هي أن نعود للحق، وأن نخلص معتقدات البشرية مما تسرب لها من أخطاء وما قادها للانحراف، ليحل الوفاق محل الخلاف، والوئام محل الصراع، ونحن نعتقد أن العقيدة الصحيحة معروفة لكثيرين من قادة الأديان، ولكن الاحتراف وحب الدنيا وزينتها يزينان الباطل ويدفعان لتأييد الانحراف.

فاللهم اهدنا سواء السبيل

(١) أنظر هذه المسألة في (أديان الهند الكبرى) ص ٦٨ - ٦٩.